تفسير المراغي

تأليف

صاحب الفضيلة الأستاذ الكبير

أحمد مصطفى المراغي

أستاذ الشريعة الإسلامية واللغة العربية
بكلية دار العلوم سابقا

الجزء السادس والعشرون

شركة مكتبة ومطبعة مصطفى البابي الحلبي وأولاده بمصر

الطبعة الأولى

١٣٦٥ هـ — ١٩٤٦ م

الجزء السادس والعشرون

ســـــورة الأحقاف

هى مكية إلا ثلاث آيات : ١٠ ، ١٥ ، ٣٥ فمدنية .

وعدة آياتها خمس وثلاثون ، نزلت بعد الجاثية .

ووجه اتصالها بما قبلها — أنه تعالى ختم السورة السالفة بالتوحيد وذمّ أهل الشرك وتوعدهم عليه ، وافتتح هذه بالتوحيد وتوبيخ المشركين على شركهم أيضا .

بسم الله الرحمن الرحيم

بِسْمِ اللهِ الرَّحْمٰنِ الرَّحِيمِ

حمٓ (١) تَنْزِيلُ الْكِتَابِ مِنَ اللهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ (٢) مَا خَلَقْنَا السَّمٰوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا إِلَّا بِالْحَقِّ وَأَجَلٍ مُسَمًّى ، وَالَّذِينَ كَفَرُوا عَمَّا أُنْذِرُوا مُعْرِضُونَ (٣) قُلْ أَرَأَيْتُمْ مَاتَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللهِ أَرُونِي مَاذَا خَلَقُوا مِنَ الْأَرْضِ ؟ أَمْ لَهُمْ شِرْكٌ فِي السَّمٰوَاتِ ، ائْتُونِي بِكِتَابٍ

مِنْ قَبْلِ هَذَا أَوْ أَثَارَةٍ مِنْ عِلْمٍ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ (٤) وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنْ يَدْعُو مِنْ دُونِ اللهِ مَنْ لاَيَسْتَجِيبُ لَهُ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ وَهُمْ عَنْ دُعَائِهِمْ غَافِلُونَ ؟ (٥) وَإِذَا حُشِرَ النَّاسُ كَانُوا لَهُمْ أَعْدَاءً وَكَانُوا بِعِبَادَتِهِمْ كَافِرِينَ (٦) .

شرح المفردات

أجل مسمى : هو يوم القيامة ، أنذروا : أى خوّفوا ، معرضون : أى مولّون لاهون ، تدعون : أى تعبدون ، شرك : أى نصيب ، أثارة : أى بقية، ومثلها الأَثَرة (بالتحريك) يقال (سمنت الإبل على أثارة) أى بقية شحم كان قبل ذلك ، حشر: أى جمع ، كافرين : أى مكذبين .

المعنى الجملى

بدأ سبحانه السورة بإثبات أن هذا القرآن من عندالله، لامن عند محمد كما تدّعون ثم ذكر أن خلق السموات والأرض مصحوب بالحق قائم بالعدل والنظام ، ومن النظام أن تكون الآجال مقدرة معلومة لكل شيء ، إذ لاشيء فى الدنيا بدائم ، ولابد من يوم يجتمع الناس فيه للحساب ، حتى لايستوىَ المحسن والمسيء ، ولكن الذين كفروا أعرضوا عن إنذار الكتاب ولم يفكروا فيما شاهدوا فى العالَم من النظام والحكمة ، فلا هم بسماع الوحى متعظون ، ولا هم بالنظر فى العالم المشاهد يعتبرون ؛ ثم نعى على المشركين حال آلهتهم وأمر رسوله صلى الله عليه وسلم أن يقول لهم : أخبرونى ماذا خلق آلهتكم من الأرض ، أم لهم شركة فى خلق السموات حتى يستحقون العبادة ؟ فإن كان لهم ماتدّعون فهاتوا دليلا على هذا الشرك المدَّعَى بكتاب موحى به من قبل القرآن أو ببقية من علوم الأولين ، وكيف خطر على بالكم أن

تعبدوها وهى لاتستجيب لكم دعاء إلى يوم القيامة وهى غافلة عنكم، وفى الدار الآخرة تكون لكم أعداء وتجحد عبادتكم لها .

الإيضاح

(حٰمٓ) الكلام فى مثلها قد تقدم من قبل .

(تنزيل الكتاب من الله العزيز الحكيم) اعلم أنّ نظم أول هذه السورة كنظم أول سورة الجاثية وقد تقدم إيضاحه وتفسيره .

(ما خلقنا السموات والأرض وما بينهما إلا بالحق وأجل مسمى) أى ماخلقناهما إلا خلقا ملتبسا بالعدل ، و بتقدير أجل مسمى لكل مخلوق ، إليه ينتهى بقاؤه فى هذه الحياة الدنيا ، وهذا يستدعى أن يكون خلقه لحكمة وغاية ، وأن يكون هناك يوم معلوم للحساب والجزاء ، لئلا يتساوى مَن أحسن فى الدار الأولى ومن أساء فيها ، ومن أطاع ربه واتبع أوامره ونواهيه ، ومن دسّى نفسه ، وركب رأسه ، واتبع شيطانه وهواه ، وسلك سبل الغواية فلم يترك منها طريقا إلا سلكه ، ولا بابا إلا ولَجَه .

ثم بين غفلة المشركين و إعراضهم عما أنذروا به فقال :

(والذين كفروا عما أنذروا معرضون) أى مع مانصبنا من الأدلة ، وأرسلنا من الرسل ، وأنزلنا من الكتب — بقى هؤلاء الكفار معرضين عنه ، غير ملتفتين إليه ، فلا هم بما أنزلنا من الكتب اتعظوا ، ولا بما شاهدوا من أدلة الكون اعتبروا، وأنّى لهم ذلك ؟ فهم صم بكم عمى لايعقلون .

و بعد أن أثبت لنفسه الألوهية ، وأنه رحيم عادل ، وأثبت البعث والجزاء يوم القيامة ، ردّ على عبدة الأصنام فقال :

(قل أرأيتم ماتدعون من دون الله أرونى ماذا خلقوا من الأرض أم لهم شرك فى السموات) أى قل لهم أيها الرسول : أخبرونى عن حال آلهتكم بعد التأمل

فى خلق السموات والأرض وما بينهما والنظام القائم فيها المبنى على الحكمة ودقة الصنع والإبداع فى التكوين : هل تعقلون لهم مدخلا فى خلق جزء من هذا العالم السفلى ، فيستحقوا لأجله العبادة ؟ ولو كان لهم ذلك لظهر التفاوت فى هذا النظام ، والمشاهد أنه على حال واحدة يستمد أدناه من أعلاه ، ويرتبط بعضه ببعض ، وكل فرد فى الأرض مخدوم بجميع الأفراد فيها ، أم هل تظنون أن لهم شركة فى خلق العالم العلوى شموسه وأقماره ، كواكبه ونجومه ، سياراتها وثوابتها .

وقصارى ذلك — نفى استحقاق آلهتهم للمعبودية على أتمّ وجه ، فقد نفى أن لها دخلا فى خلق شىء من أجزاء العالم السفلى استقلالا ، ونفى ثانيا أن لها دخلا على سبيل الشركة فى خلق شىء من أجزاء العالم العلوى ، ونَفْيُ ذلك يستلزم نفى استحقاق المعبودية أيضا .

وتخصيص الشركة فى النظم الجليل بقوله سبحانه « فِي السَّمَوَاتِ » مع أنه لاشركة فيها ولا فى الأرض أيضا — لأن الغرض إلزامهم بما هو مسلّم لهم ، ظاهر لكل أحد ، والشركة فى الحوادث السفلية ليست كذلك ، لتملكهم وإيجادهم بعضها على حسب الصورة الظاهرة .

وبعد أن بكّتهم وعجّزهم عن الإتيان بسند عقلى ، عجزهم وبكّتهم عن الإتيان بسند نقلى فقال :

(ائتونى بكتاب من قبل هذا أو أثارة من علم إن كنتم صادقين) أى إن كان ما تقولونه حقا فائتونى أيها القوم بكتاب من قبل هذا الكتاب كالتوراة والإنجيل يشهد بصحة ماتدّعون لآلهتكم ، أو ببقية بقيت عندكم من علم الأولين المفكرين فى خلق السموات والأرض ترشد إلى استحقاق الأصنام والأوثان للعبادة . وتدل على صحة المسلك الذى سلكتموه .

والخلاصة — إن الدليل : إما وحى من الله ، أو بقية من كلام الأوائل ، وإما

إرشاد من العقل ، فإن كان الأول فأين الكتاب الذى يدل على أنهم شركاء ؟ وإن كان الثانى فأين هو ؟

وبعد أن أبطل شركة الأصنام فى الخلق بعدم قدرتها على ذلك — أتبعه إبطاله بعدم علمها بالعبادة فقال :

(ومن أضل ممن يدعو من دون الله من لايستجيب له إلى يوم القيامة وهم عن دعائهم غافلون) أى لا أضل ممن يعبد من دون الله أصناما ويتخذهم آلهة ، وهم إذا دعوا لايسمعون ولا يجيبون إلى يوم القيامة ؛ أى لايجيبون أبدا ماداموا فى الدنيا ، إذ هم فى غفلة عن دعائهم ، لأنهم أحجار ، فهم صم بكم لايسمعون ولا يتكلمون .

وما أنكى هذا التوبيخ وما أمضّ ألمه لهؤلاء المشركين على سوء رأيهم وقبح اختيارهم فى عبادتهم ما لايعقل شيئا ولا يفهم ، وتركهم عبادة من بيده جميع نعمهم ، ومن به إغاثتهم حين تنزل بهم الجوائح والمصايب .

وبعد أن أبان أنهم لاينفعونهم فى الدنيا ولا يستجيبون لهم دعاء — أبان حالهم فى الآخرة فقال :

(وإذا حشر الناس كانوا لهم أعداء وكانوا بعبادتهم كافرين) أى وإذا جمع الناس لموقف الحساب كانت هذه الآلهة التى يعبدونها فى الدنيا أعداء لهم، إذ يتبرءون منهم ، وكانوا بعبادتهم كافرين ، فهم يقولون : ما أمرناهم بعبادتنا ولا شعرنا بهم ، تبرأنا إليك ربنا منها .

ونحو الآية قوله تعالى : « وَاتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللهِ آلِهَةً لِيَكُونُوا لَهُمْ عِزًّا . كَلَّا سَيَكْفُرُونَ بِعِبَادَتِهِمْ وَيَكُونُونَ عَلَيْهِمْ ضِدًّا » وقوله حكاية عن إبراهيم عليه السلام : « قَالَ إِنَّمَا اتَّخَذْتُمْ مِنْ دُونِ اللهِ أَوْثَانًا مَوَدَّةَ بَيْنِكُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ثُمَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكْفُرُ بَعْضُكُمْ بِبَعْضٍ وَيَلْعَنُ بَعْضُكُمْ بَعْضًا وَمَأْوَاكُمُ النَّارُ وَمَا لَكُمْ مِنْ نَاصِرِينَ » .

وَإِذَا تُتْلَى عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا بَيِّنَاتٍ قَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلْحَقِّ لَمَّا جَاءَهُمْ هَذَا سِحْرٌ مُبِينٌ (٧) أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ قُلْ إِنِ افْتَرَيْتُهُ فَلَا تَمْلِكُونَ لِي مِنَ اللَّهِ شَيْئًا هُوَ أَعْلَمُ بِمَا تُفِيضُونَ فِيهِ، كَفَى بِهِ شَهِيدًا بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ وَهُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ (٨) قُلْ مَا كُنْتُ بِدْعًا مِنَ الرُّسُلِ وَمَا أَدْرِي مَا يُفْعَلُ بِي وَلَا بِكُمْ، إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَى إِلَيَّ، وَمَا أَنَا إِلَّا نَذِيرٌ مُبِينٌ (٩).

شرح المفردات

المراد بالحق آيات القرآن ، افتراه : كذب عليه عمدا ، فلا تملكون لى من الله شيئا : أى لاتغنون عنى من الله شيئا إن أراد عقابى ، تفيضون فيه : أى تخوضون فيه من تكذيب القرءان ، يقال أفاض القوم فى الحديث : أى اندفعوا فيه ، والبدع والبديع من كل شىء : المبتدَع المحدَث دون سابقة له .

المعنى الجملى

بعد أن تكلم فى تقرير التوحيد ونفى الأضداد والأنداد — أعقب هذا بالكلام فى النبوة و بين أنه كلما تلا عليهم الرسول شيئا من القرآن قالوا إنه سحر ، بل زادوا فى الشناعة وقالوا : إنه مفترى ، فرد عليهم بأنه لو افتراه على الله فمن يمنعه من عقابه لو عاجله به ؟ وهو العليم بما تندفعون فيه من الطعن فى نبوّتى ، و يشهد لى بالصدق والبلاغ ، وعليكم بالكذب والجحود .

ثم أمر رسوله أن يقول لهم : إنى لست بأول الرسل حتى تنكروا دعائى لكم إلى التوحيد ، ونهيى لكم عن عبادة الأصنام ، وما أدرى مايفعل بى فى الدنيا ؟

أأموت أم أقتل كما قتل الأنبياء قبلى ، ولا مايفعل بكم ، أتُرمَوْن بالحجارة من السماء أم تخسف بكم الأرض ، أم يُفعل بكم غير ذلك مما عمل مع سائر المكذبين للرسل ؟ وإنى لا أعمل عملا ولا أقول قولا إلا بوحى من ربى ، وما أنا إلا نذير ، لا أستطيع أن آتى بالمعجزات والأخبار الغيبية ، فالقادر على ذلك هو الله تعالى .

الإيضاح

(وإذا تتلى عليهم آياتنا بينات قال الذين كفروا للحق لما جاءهم هذا سحر مبين) أى وإذا تتلى على هؤلاء المشركين حججنا التى أودعناها كتابنا الذى أنزلناه عليك قالوا : هذا خداع وتمويه يفعل فعل السحر فى قلب من سمعه .

ثم انتقل من هذه المقالة الشنعاء إلى ماهو أشنع منها فقال :

(أم يقولون افتراه) أى دع هذا واسمع القول المنكر العجيب : إنهم يقولون إن محمدا افتراه على الله عمدا واختلقه عليه اختلاقا .

وقد أمر الله رسوله أن يبطل شبهتهم بقوله :

(قل إن افتريته فلا تملكون لى من الله شيئا) أى قل لهم : لو كذبت على الله وزعمت أنه أرسلنى إليكم ولم يكن الأمر كذلك لعاقبنى أشد العقاب ولم يقدر أحد من أهل الأرض لا أنتم ولا غيركم أن يجيرنى منه ، فكيف أقدُم على هذه الفرية وأعرّض نفسى لعقابه ، فالملوك لايتركون من كذب عليهم دون أن ينتقموا منه ، فما بالكم بمن يتعمد الكذب على الله فى الرسالة ، وهى الجامعة لأمور عظيمة ، ففيها الإخبار عن تكليف الناس بما يصلح شأنهم فى دينهم ودنياهم .

ونحو الآية قوله : « قُلْ إِنِّى لَنْ يُجِيرَنِى مِنَ اللهِ أَحَدٌ ، وَلَنْ أَجِدَ مِنْ دُونِهِ مُلْتَحَدًا إلاَّ بَلاَغًا مِنَ اللهِ وَرِسَالَتِهِ » وقوله : « وَلَوْ تَقَوَّلَ عَلَيْنَا بَعْضَ الْأَقَاوِيلِ . لَأَخَذْنَا مِنْهُ بِالْيَمِينِ . ثُمَّ لَقَطَعْنَا مِنْهُ الْوَتِينَ . فَمَا مِنْكُمْ مِنْ أَحَدٍ عَنْهُ حَاجِزِينَ » .

ثم علل ما أفاده الكلام من وجوب الانتقام منهم بقوله :

(هو أعلم بما تفيضون فيه) أى هو أعلم من كل أحد بما تخوضون فيه من التكذيب بالقرآن والطعن فى آياته وتسميته سحرا تارة وفرية أخرى .

ثم أكد صدق مايقول بنسبة علم ذلك إلى الله فقال :

(كفى به شهيدا بينى وبينكم) فهو يشهد لى بالصدق فى البلاغ ، ويشهد عليكم بالكذب والجحود .

ولا يخفى ما فى هذا من الوعيد الشديد على إفاضتهم فى الطعن فى الآيات .

ثم فتح لهم باب الرحمة بعد الإنذار السابق لعلهم يتوبون ويثوبون إلى الحق فقال :

(وهو الغفور الرحيم) أى ومع كل ما صدر منكم من تلك المطاعن الشنعاء إن أنتم تبتم وأنبتم إلى ربكم وصح عزمكم على الرجوع عما أنتم فيه ، تاب عليكم وعفا عنكم وغفر لكم ورحمكم .

وبعد أن حكى عنهم طعنهم فى القرآن — أمر رسوله أن يرد عليهم مقترحاتهم العجيبة ، وهى طلبهم من الرسول صلى الله عليه وسلم أن يأتيهم بمعجزات على حسب مايريدون ويشتهون ، وكلها تدور حول الإخبار بشئون الغيب فقال :

(قل ما كنت بدعاً من الرسل) أى قل لهم : لست بأول رسول بلّغ عن ربه ، بل قد جاءت رسل من قبلى ، فما أنا بالفذّ الذى لم يعهد له نظير حتى تستنكرونى وتستبعدون رسالتى إليكم ، وما أنا بالذى يستطيع أن يأتى بالمعجزات متى شاء ، بل ذلك بإذنه تعالى وتحت قبضته وسلطانه ، وليس لى من الأمر شىء ، وإلى ذلك أشار بقوله :

(وما أدرى مايفعل بى ولا بكم) أى ولا أعلم مايفعل بى فى الدنيا ، أأخرج من بلدى كما أُخْرِجَت أنبياء من قبلى ، أم أُقتَل كما قتل منهم من قتل ؟ ولا مايفعل

بكم أيها المكذبون ، أتُرْمَوْن بحجارة من السماء أم تُخْسَف بكم الأرض ؟ كل هذا علمه عند ربى .

وفى صحيح البخارى وغيره من حديث أمّ العلاء أنها قالت : « لما مات عثمان ابن مظعون رضى الله عنه ، قلت : رحمة الله عليك يا أبا السائب ، لقد أكرمك الله تعالى ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : وما يدريكِ أن الله أكرمه ؟ أمّا هو فقد جاءه اليقين من ربه ، وإنى لأرجو له الخير ، والله ما أدرى ـ وأنا رسول الله ـ مايُفعل بى ولا بكم ، قالت أمّ العلاء فوالله ما أزكّى بعده أبداً » .

وفى رواية الطبرانى وابن مردويه عن ابن عباس «أنه لما مات قالت امرأته أو امرأة: هنيئا لك ابنَ مظعون الجنةُ ، فنظر إليها رسول الله صلى الله عليه وسلم نظر مغضَب وقال : وما يدريك ؟ والله إنى لرسول الله ، وما أدرى مايفعل الله بى ، فقالت : يا رسول الله صاحبك وفارسك وأنت أعلم ، فقال : أرجو له رحمة ربه تعالى وأخاف عليه ذنبه »

ومن هذا يعلم أن ماينسب إلى بعض الأولياء من العلم بشئون الغيب ، فهو فرية على الله ورسوله ، وكفى بما سلف ردّا عليهم .

ثم أكد ماسلف وقرره بقوله :

(إن أتبع إلا مايوحى إلىّ) أى ما أتبع إلا القرآن ولا أبتدع شيئا من عندى .

ثم زاد الأمر توكيدا فقال :

(وما أنا إلا نذير مبين) أى وما أنا إلا نذير أنذركم عقاب الله ، وأخوّفكم عذابه ، وآتيكم بالشواهد الواضحة على صدق رسالتى ، ولست أقدر على شىء من الأعمال الخارجة عن قدرة البشر .

قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ كَانَ مِنْ عِنْدِ اللهِ وَكَفَرْتُمْ بِهِ وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ عَلَى مِثْلِهِ فَآمَنَ وَاسْتَكْبَرْتُمْ إِنَّ اللهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ (١٠) وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلَّذِينَ آمَنُوا لَوْ كَانَ خَيْرًا مَاسَبَقُونَا إِلَيْهِ ، وَإِذْ لَمْ يَهْتَدُوا بِهِ فَسَيَقُولُونَ هَذَا إِفْكٌ قَدِيمٌ (١١) وَمِنْ قَبْلِهِ كِتَابُ مُوسَى إِمَامًا وَرَحْمَةً ، وَهَذَا كِتَابٌ مُصَدِّقٌ لِسَانًا عَرَبِيًّا لِيُنْذِرَ الَّذِينَ ظَلَمُوا وَبُشْرَى لِلْمُحْسِنِينَ (١٢) إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ (١٣) أُولَئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ خَالِدِينَ فِيهَا جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ (١٤) .

المعنى الجملى

لايزال الكلام موصولا بسابقه ، فبعد أن نعى عليهم استهزاءهم بكتابه وقولهم فيه : إنه سحر مفترى ، وردّ الرسول عليهم بأنه ليس بأول رسول حتى يستنكرون نبوته ويطلبون منه مالا قِبَل له به من المعجزات التى أَمْرها بيد الله لابيده — أردف هذا بأمر رسوله أن يقول لهم : ماظنكم أن الله صانع بكم إن كان هذا الكتاب الذى جئتكم به قد أنزله الله علىّ لأبلغكموه فكفرتم به وكذبتموه ؟ وقد شهد شاهد من بنى إسرائيل الواقفين على أسرار الوحى بما أوتوا من التوراة على مثل ماقلتُ ، فآمن واستكبرتم ؟ ثم حكى عنهم شبهة أخرى بشأن إيمان من آمن منهم من الفقراء كعمار وصهيب وابن مسعود فقالوا : لو كان هذا الدين خيرا ماسبقنا إليه هؤلاء ، ثم ذكر أنهم حين لم يهتدوا به قالوا : إنه من أساطير الأولين ، ثم ذكر أن مما يدل على صدق القرآن أن التوراة وهى الإمام المقتدى به ، بشرت بمقْدَم محمد صلى الله

عليه وسلم فاقبلوا حكمها فى أنه رسول حقا من عند الله ، ثم أعقب هذا ببيان أن من آمنوا بالله وعملوا صالحا لا يخافون مكروها ولا يحزنون لفوات محبوب ، وأولئك هم أهل الجنة جزاء ماعملوا من عمل صالح وما أخبتوا إلى ربهم وانقادوا لأمره ونهيه.

الإيضاح

(قل أرأيتم إن كان من عندالله وكفرتم به وشهد شاهد من بنى إسرائيل على مثله فآمن واستكبرتم) أى قل لهم : أخبرونى إن ثبت أن القرآن من عند الله لعجز الخلق عن معارضته ، لاأنه سحر ولامفترى كما تزعمون ، ثم كذبتم به وشهد أعلم بنى إسرائيل بكونه من عند الله فآمن واستكبرتم — أفلستم تكونون أضل الناس وأظلمهم ؟.

والخلاصة — أخبرونى إن اجتمع كون القرآن من عند الله مع كفركم به ، وشهادة منصف من بنى إسرائيل عارف بالتوراة على مثل ماقلت فآمن به مع استكباركم — أفلا تكونون ظالمين لأنفسكم ؟

وهذا الشاهد هو عبد الله بن سلام — فقد أخرج البخارى ومسلم وغيرهما عن سعدبن أبى وقاص قال : «ماسمعت رسول الله صلى اللهعليهوسلم يقول لأحد يمشى على وجه الأرض: إنه من أهل الجنة إلا لعبد الله بن سلام ، وفيه نزلت : (وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ عَلَى مِثْلِهِ) » .

وأخرج الترمذى وابن جرير وابن مردويه عن عبد الله بن سلام قال : نزل فىّ آيات من كتاب الله ، نزلت فىّ «وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ عَلَى مِثْلِهِ» . ونزل فىّ : « قُلْ كَفَى بِاللهِ شَهِيدًا بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ وَمَنْ عِنْدَهُ عِلْمُ الْكِتَابِ » .

ثم ذكر أن فى استكبارهم عن الإيمان هو ظلمهم لأنفسهم وكفرهم بآيات ربهم فقال :

(إن الله لايهدى القوم الظالمين) أى إن الله لايوفق لإصابة الحق وهدى

الصراط المستقيم من ظلموا أنفسهم باستحقاقهم سخط الله لكفرهم به بعد قيام الحجة الظاهرة عليهم .

عن عوف بن مالك الأشجعي قال : « انطلق النبي صلى الله عليه وسلم وأنا معه حتى دخلنا كنيسة اليهود يوم عيدهم ، فكرهوا دخولنا عليهم ، فقال لهم رسول الله صلى الله عليه وسلم : يا معشر اليهود أرونى اثنى عشر رجلا منكم يشهدون أن لا إله إلا الله وأن محمدا رسول الله، يحط الله عن كل يهودى تحت أديم السماء الغضب الذى عليه ، فسكتوا فما أجابه منهم أحد ، ثم ردّ عليهم فلم يجبه أحد ثلاثا ، فقال: أبيتم ، فوالله لأنا الحاشر وأنا العاقب وأنا المقفّى، آمنتم أو كذبتم ، ثم انصرف وأنا معه حتى كدنا نخرج ، فإذا رجل من خلفه فقال : كما أنت يا محمد فأقبل ، فقال ذلك الرجل : أىّ رجل تعلمونى فيكم يا معشر اليهود ، فقالوا : والله مانعلم فينا رجلا أعلم بكتاب الله ولا أفقه منك ولا من أبيك ولا من جدّك ، فقال فإنى أشهد بالله أنه النبى الذى تجدونه مكتوبا فى التوراة والإنجيل ، قالوا كذبت ، ثم ردوا عليه وقالوا شرًّا ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : كذبتم لن يقبل منكم قولكم ، فخرجنا ونحن ثلاثة : رسول الله وأنا وعبد الله بن سلام فأنزل الله : (قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ كَانَ مِنْ عِنْدِ اللهِ إلى قوله — إِنَّ اللهَ لَا يَهْدِى الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ) .

أخرجه أبو يعلى وابن جرير والطبرانى والحاكم وصححه السيوطى .

ثم حكى نوعا آخر من أقاويلهم الباطلة فى القرآن العظيم والمؤمنين به فقال:

(وقال الذين كفروا للذين آمنوا لو كان خيرا ماسبقونا إليه) أى وقال كفار مكة لأجل إيمان من آمن من فقراء المؤمنين كعمار وصُهَيب وابن مسعود ومن لفّ لِفَّهم : لو كان ما أتى به محمد خيراً ماسبقنا إليه هؤلاء ، فإن معالى الأمور لاتنالها أيدى الأراذل ، وهؤلاء سُقَّاط الناس ورعاة الإبل والشاء ، وقد قالوا ذلك زعما منهم أنهم المستحقون للسبق إلى كل مكرمة ، وأن الرياسة الدينية مما تنال بأسباب دنيوية ،

وقد غاب عنهم أنها منوطة بكمالات نفسية وملكات روحية مبناها الإعراض عن زخارف الدنيا الدنية والإقبال على الآخرة ، وأن من فاز بها فقد حازها بحذافيرها ، ومن حُرِمها فما له فيها من خلاق ، ولم يعلموا أن الله يختص برحمته من يشاء ويصطفى لدينه من يشاء .

وعن قتادة : قال ناس من المشركين نحن أعز ونحن ونحن فلو كان خيرا ماسبقنا إليه فلان وفلان فنزلت هذه الآية .

وروى أنه لما أسلمت جُهينة ومُزَينة وأسلم وغِفار قالت بنو عامر وغطفان وأشجع وأسد : لو كان هذا خيرا ماسبقتنا إليه رعاء البُهْم والشاء .

فأجابهم الله عن هذا بقولهم :

(وإذ لم يهتدوا به فسيقولون هذا إفك قديم) أى وقد ظهر عنادهم واستكبارهم إذ لم يهتدوا به ، وسيقولون الفَيْنَةَ بعد الفينة والحين بعد الحين : هذا كذب مأثور عن الأقدمين ، انتقاصا له ولأهله ، واستكبارا عن اتباع الحق . قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « الكبر بطر الحق وغمط الناس » .

ونحو الآية قوله تعالى حكاية عنهم : « وَقَالُوا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ اكْتَتَبَهَا فَهِيَ تُمْلَى عَلَيْهِ بُكْرَةً وَأَصِيلاً » .

ثم رد عليهم طعنهم فى القرآن وأثبت صحته فقال :

(ومن قبله كتاب موسى إماما ورحمة وهذا كتاب مصدق لسانا عربيًّا لينذر الذين ظلموا وبشرى للمحسنين) أى ومما يدل على صحة القرآن أنكم لاتنازعون فى أن الله أنزل التوراة على موسى وجعلها إماما لبنى إسرائيل ورحمة لهم ، وهى قد اشتملت على البشارة بمَقْدَم محمد صلى الله عليه وسلم فلا بد أن يكون محمد صادقا فى رسالته ، وأن يكون القرآن من عند الله ، وقد جاء بلسان عربى لينذر الذين ظلموا أنفسهم وهم مشركو مكة وهو بشرى لمن أحسن عملا .

والخلاصة — كيف يكون إفكا قديما وهو مصدق لكتاب موسى الذى تعترفون بصدقه ، وهو بلسان عربى والتوراة بلسان عبرى ، فتصديق الأول للثانى دليل على اتحادهما صدقا — فبطل كونه إفكا قديما وثبت الصدق القديم .

وبعد أن ذكر طريق المبطلين أرشد إلى طريق المحقين وذكر جزاءهم فقال :

(إن الذين قالوا ربنا الله ثم استقاموا فلا خوف عليهم ولاهم يحزنون) أى إن الذين قالوا ربنا الله لا إله غيره ، ثم استقاموا على تصديقهم بذلك ولم يخلطوه بشرك ، ولم يخالفوا الله فى أمر ولا نهى — فلا خوف عليهم من فزع يوم القيامة وأهواله ، ولاهم يحزنون على ما خلّفوا وراءهم بعد مماتهم .

(أولئك أصحاب الجنة خالدين فيها جزاء بما كانوا يعملون) أى هؤلاء الذين قالوا هذا القول واستقاموا — هم أهل الجنة ماكثين فيها أبدا ثوابا منا لهم كفاء ما قدموا من صالح الأعمال فى الدنيا .

وَوَصَّيْنَا الْإِنْسَانَ بِوَالِدَيْهِ إِحْسَانًا حَمَلَتْهُ أُمُّهُ كُرْهًا وَوَضَعَتْهُ كُرْهًا وَحَمْلُهُ وَفِصَالُهُ ثَلَاثُونَ شَهْرًا حَتَّى إِذَا بَلَغَ أَشُدَّهُ وَبَلَغَ أَرْبَعِينَ سَنَةً قَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِي أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ الَّتِي أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَعَلَى وَالِدَيَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صَالِحًا تَرْضَاهُ وَأَصْلِحْ لِي فِي ذُرِّيَّتِي إِنِّي تُبْتُ إِلَيْكَ وَإِنِّي مِنَ الْمُسْلِمِينَ (١٥) أُولَئِكَ الَّذِينَ نَتَقَبَّلُ عَنْهُمْ أَحْسَنَ مَا عَمِلُوا وَنَتَجَاوَزُ عَنْ سَيِّئَاتِهِمْ فِي أَصْحَابِ الْجَنَّةِ وَعْدَ الصِّدْقِ الَّذِي كَانُوا يُوعَدُونَ (١٦)

شرح المفردات

الإيصاء والوصية : بيان الطريق القويم لغيرك ليسلكه ، والإحسان : خلاف الإساءة ، والحسن : خلاف القبح ، والمراد أنه يفعل معهما فعلا ذا حسن ،

والكره (بالضم والفتح) كالضعف والضعف : المشقة ، وحمله : أى مدة حمله ، وفصاله : فطامه ؛ والمراد به الرضاع التام المنتهى بالفطام ، والأشد : استحكام القوة والعقل ، أوزعنى : أى رغبنى ووفقنى ، من أوزعته بكذا : أى جعلته مولعا به راغبا فى تحصيله ، والقبول : هو الرضا بالعمل والإثابة عليه ، فى أصحاب الجنة : أى منتظمين فى سلكهم كما تقول أكرمنى الأمير فى أصحابه .

المعنى الجملى

بعد أن ذكر فى سابق الآيات توحيده سبحانه و إخلاص العبادة له والاستقامة فى العمل — أردف هذا بالوصية بالوالدين ، وقد فعل هذا فى غير موضع من القرآن الكريم كقوله : « وَقَضَى رَبُّكَ أَلاَّ تَعْبُدُوا إلاَّ إيَّاهُ وَبِالْوَالِدَيْنِ إحْسَاناً » وقوله : « أَنِ اشْكُرْ لِي وَلِوَالِدَيْكَ إِلَيَّ الْمَصِيرُ » .

روى أن هذه الآية نزلت فى أبى بكر إذ أسلم والداه ولم يتفق ذلك لأحد من الصحابة ، فأبوه أبو قحافة عثمان بن عمرو ، وأمه أمّ الخير بنت صخر بن عمرو .

الإيضاح

(ووصينا الإنسان بوالديه إحساناً) أى أمرناه بالإحسان إليهما والحنوّ عليهما ، والبر بهما فى حياتهما و بعد مماتهما ، وجعلنا البر بهما من أفضل الأعمال ، وعقوقهما من الكبائر ، والآيات والأحاديث فى هذا الباب كثيرة .

ثم ذكر سبب التوصية وخص الكلام بالأم لأنها أضعف وأولى بالرعاية ، وفضلها أعظم كما ورد فى صحيح الأحاديث ومن ثم كان لها ثلثا البر ؛ فقال :

(حملته أمه كرها ووضعته كرها) أى إنها قاست فى حمله مشقة وتعبا من وحم وغثيان وثقل إلى نحو أولئك مما ينال الحوامل ، وقاست فى وضعه مشقة من تعب الطلق وألم الوضع ، فكل هذا يستدعى البر بها واستحقاقها للكرامة وجميل الصحبة .

ثم بين سبحانه مدة حمله وفصاله فقال :

(وحمله وفصاله ثلاثون شهرا) أى ومدة حمله وفصاله ثلاثون شهرا تكابد الأمّ فيها الآلام الجسمية والنفسية ، فتسهر الليالى ذوات العدد إذا مرض وتقوم بغذائه وتنظيفه وكل شئونه بلا ضجر ولا ملل ، وتحزن إذا اعتل جسمه أو ناله مكروه يؤثر فى نموّه وحسن صحته .

وفى الآية إيماء إلى أن أقل الحمل ستة أشهر ، لأن أكثر مدة الإرضاع حولان كاملان لقوله تعالى : « وَالْوَالِدَاتُ يُرْضِعْنَ أَوْلَادَهُنَّ حَوْلَيْنِ كَامِلَيْنِ لِمَنْ أَرَادَ أَنْ يُتِمَّ الرَّضَاعَةَ » فلم يبق للحمل إلا ستة أشهر ، وبذلك يعرف أقل الحمل وأكثر الإرضاع .

وأول من استنبط هذا الحكم منها علىّ كرم الله وجهه ووافقه عليه عثمان وجمع من الصحابة رضى الله عنهم . روى محمد بن إسحق صاحب السيرة عن مَعْمَر ابن عبد الله الجهنى قال : تزوج منا رجل من امرأة من جهينة فولدت له لتمام ستة أشهر، فانطلق زوجها إلى عثمان رضى الله عنه فذكر ذلك له ، فبعث إليها، فلما قامت لتلبس ثيابها بكت أختها ، فقالت لها : وما يبكيك ؟ فوالله ما التبس بى أحد من خلق الله تعالى غيره قط ، فيقضى الله فىّ ماشاء ، فلما أتى بها عثمان أمر برجمها ، فبلغ ذلك عليا فأتاه فقال ماتصنع ؟ قال ولدت لتمام ستة أشهر وهل يكون ذلك ؟ فقال له علىّ : أما تقرأ القرآن ؟ قال بلى ، قال : أما سمعت الله عز وجل يقول (وحمله وفصاله ثلاثون شهرا) وقال : «حَوْلَيْنِ كَامِلَيْنِ» فلم تجده أبقى إلا ستة أشهر ، فقال عثمان: والله مافطنت لهذا ، علىّ بالمرأة ، فوجدها قد فُرِغ منها ، قال مَعْمَر فوالله ما الغراب بالغراب ولا البيضة بالبيضة بأشبه منه بأبيه ، فلما رآه أبوه قال : ابنى والله لا أشك فيه .

وعن ابن عباس أنه كان يقول : إذا ولدت المرأة لتسعة أشهر كفاها من الرضاع

أحد وعشرون شهرا ، وإذا ولدت لسبعة أشهر كفاها من الرضاع ثلاثة وعشرون شهرا ، وإذا ولدت لستة أشهر فحولان كاملان لأن الله يقول : (وحمله وفصاله ثلاثون شهرا) .

(حتى إذا بلغ أشده) أى حتى إذا اكتهل واستوفى السن التى تستحكم فيها قوته وعقله وهى فيما بين الثلاثين والأربعين .

(وبلغ أربعين سنة) وهذا نهاية استحصاد العقل واستكماله ، ومن ثم روى عن ابن عباس : من أتى عليه الأربعون ولم يغلب خيره شره فليتجهز إلى النار ولهذا قيل :

إذا المرء وافى الأربعين ولم يكن له دون مايهوى حياء ولا سِتْر

فدعه فلا تَنَفّس عليه الذى مضى وإن جرّ أسباب الحياة له العمر

قال المفسرون: لم يبعث الله نبيا قط قبل الأربعين إلا ابنى الخالة «عيسى ويحيى».

(قال رب أوزعنى أن أشكر نعمتك التى أنعمت علىّ وعلى والدىّ) أى رب وفقنى لشكر نعمك التى غمرتنى بها فى دينى ودنياى ، بما أتمتع به من سعة فى العيش وصحة فى الجسم وأمن ودعة الإخلاص لك واتباع أوامرك وترك نواهيك ، وأنعمت بها على والدىّ من تحننهما علىّ حين ربيانى صغيرا .

(وأن أعمل صالحا ترضاه) أى واجعل عملى وفق رضاك لأنال مثوبتك .

(وأصلح لى فى ذريتى) أى واجعل الصلاح ساريا فى ذريتى متمكنا من نفوسهم راسخا فى قلوبهم .

قال ابن عباس : أجاب الله دعاء أبى بكر فأعتق تسعة من المؤمنين منهم بلال وعامر بن فُهَيْرة ، ولم يُرِد شيئا من الخير إلا أعانه عليه ، ودعا فقال : أصلح لى فى ذريتى ، فأجابه الله تعالى ، فلم يكن له ولد إلا آمنوا جميعا ، فاجتمع له إسلام أبويه وأولاده جميعا ، وقد أدرك أبوه وولده عبد الرحمن وولده أبو عتيق النبىّ

صلى الله عليه وسلم وآمنوا به ، ولم يكن ذلك لأحد من الصحابة رضى الله عنهم أجمعين .

(إنى تبت إليك وإنى من المسلمين) أى إنى تبت إليك من ذنوبى التى فرطت منى فى أيامى الخوالى ، وإنى من الخاضعين لك بالطاعة المستسلمين لأمرك ونهيك ، المنقادين لحكمك .

روى أبو داود فى سننه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان يُعلّمهم أن يقولوا فى التشهد : اللهم ألّف بين قلوبنا ، وأصلح ذات بيننا ، واهدنا سبل السلام ، ونجّنا من الظلمات إلى النور ، وجنّبنا الفواحش ماظهر منها وما بطن ، وبارك لنا فى أسماعنا وأبصارنا وقلوبنا ، وأزواجنا وذرياتنا ، وتُبْ علينا إنك أنت التواب الرحيم ، واجعلنا شاكرين لنعمتك ، مُثْنِين بها عليك ، وأتمها علينا .

ثم ذكر جزاء أصحاب هذه الأوصاف الجليلة فقال :

(أولئك الذين نتقبل عنهم أحسن ماعملوا ونتجاوز عن سيئاتهم فى أصحاب الجنة) أى هؤلاء الذين هذه صفاتهم هم الذين يتقبل الله عنهم أحسن ماعملوا فى الدنيا من صالح الأعمال ، فيجازيهم به ويثيبهم عليه ، ويصفح عن سيئات أعمالهم التى فرطت منهم فى الدنيا لمامًا ولم تكن عادة لهم ، بل جاءت بحافز من القوة الشهوانية أو القوة الغضبية فلا يعاقبهم عليها ، وهم منتظمون فى سلك أصحاب الجنة ، داخلون فى عدادهم .

ثم أكد الوعد السابق بقوله :

(وعد الصدق الذى كانوا يوعدون) أى وعدهم الله الوعد الحق الذى لاشك فيه وأنه موفٍّ به .

وهذه الآية كما تنطبق على سعد بن أبى وقاص وعلى أبى بكر الصديق اللذين قيل فى كل منهما إن الآية نزلت فيه تنطبق على كل مؤمن ، فهو موصّى بوالديه ،

مأمور أن يشكر نعمة الله عليه وعلى والديه ، وأن يعمل صالحا ، وأن يسعى فى إصلاح ذريته ، ويدعو الله أن يوفقه لعمل أهل الجنة .

وَالَّذِى قَالَ لِوَالِدَيْهِ أُفٍّ لَكُمَا أَتَعِدَانِنِى أَنْ أُخْرَجَ وَقَدْ خَلَتْ الْقُرُونُ مِنْ قَبْلِى ؟ وَهُمَا يَسْتَغِيثَانِ اللهَ وَيْلَكَ آمِنْ ، إِنَّ وَعْدَ اللهِ حَقٌّ فَيَقُولُ مَاهَذَا إِلاَّ أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ (١٧) أُولَئِكَ الَّذِينَ حَقَّ عَلَيْهِمُ الْقَوْلِ فِى أُمَمٍ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِمْ مِنَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ إِنَّهُمْ كَانُوا خَاسِرِينَ (١٨) وَلِكُلٍّ دَرَجَاتٌ مِمَّا عَمِلُوا وَلِيُوَفِّيَهُمْ أَعْمَالَهُمْ وَهُمْ لاَيُظْلَمُونَ (١٩) وَيَوْمَ يُعْرَضُ الَّذِينَ كَفَرُوا عَلَى النَّارِ أَذْهَبْتُمْ طَيِّبَاتِكُمْ فِى حَيَاتِكُمُ الدُّنْيَا وَاسْتَمْتَعْتُمْ بِهَا ، فَالْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ الْهُونِ بِمَا كُنْتُمْ تَسْتَكْبِرُونَ فِى الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَبِمَا كُنْتُمْ تَفْسُقُونَ (٢٠) .

شرح المفردات

أفٍّ : صوت يصدر من الإنسان حين تضجره ، أخرج : أى أبعث من القبر للحساب ، خلت القرون من قبلى : أى مضت ولم يخرج منها أحد ، يستغيثان الله : أى يقولان الغياث بالله منك ، يقال استغاث الله واستغاث بالله ، والمراد أنهما يستغيثان بالله من كفره إنكارا له واستعظاما له حتى لجأ إلى الله فى دفعه كما يقال العياذ بالله من كذا ، ويلك : دعاء عليه بالثبور والهلاك ، ويراد به الحث على الفعل أو تركه إشعاراً بأن مرتكبه حقيق بأن يهلك ، فإذا سمع ذلك ارعوى عن غيِّه وترك ماهو فيه وأخذ بما ينجيه ، أساطير الأولين : أى أباطيلهم التى سطروها فى الكتب من

غير أن يكون لها حقيقة ، حق عليهم القول : أى وجب عليهم قوله لإبليس « لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنْكَ وَمِمَّنْ تَبِعَكَ مِنْهُمْ أَجْمَعِينَ » من الخاسرين : أى الذين ضيعوا نظرهم الشبيه برءوس الأموال باتباعهم همزات الشياطين ، والدرجات : المنازل واحدها درجة ، وهى المنزلة ، ويقال لها منزلة إذا اعتبرت صعودا ، ودركة إذا اعتبرت حدورا ، ومن ثم يقال درجات الجنة ، ودركات النار ، فالتعبير بالدرجات هنا على سبيل التغليب ، طيباتكم : أى شبابكم وقوتكم يقولون ذهب أطيباه أى شبابه وقوته ، الهون : أى الهوان والذل ، تفسقون : أى تخرجون من طاعة الله .

المعنى الجملى

بعد أن ذكر عزّ اسمه حال الداعين للوالدَين ، البررة بهما ، ثم ذكر ما أعد لهما من الفوز والنجاة فى الدار الآخرة — أعقب هذا بذكر حال الأشقياء العاقين للوالدين المنكرين للبعث والحساب ، المحتجين بأن القرون الخوالى لم تبعث ، ثم رد الآباء عليهم بأن هذا اليوم حق لاشك فيه ، ثم بإجابة الأبناء لهم بأن هذه أساطير الأولين وخرافاتهم ، ثم ذكر أن أمثال هؤلاء ممن حق عليهم القول بأن مصيرهم إلى النار .

ثم أردف هذا بأن لكل من البررة والكفرة منازل عند ربهم كفاء ماقدموا من عمل وسيجزون عليها الجزاء الأوفى ، ثم أخبر بأنه يقال للكفار حين عرضهم على النار : أنتم قد تمتعتم فى الحياة الدنيا واستكبرتم عن اتباع الحق وتعاطيتم الفسوق والمعاصى ، فجازاكم الله بالإهانة والخزى والآلام الموجبة للحسرات المتتابعة فى دركات النار .

الإيضاح

(والذى قال لوالديه أفّ لكما ، أتعداننى أن أخرج وقد خلت القرون من قبلى ؟) أى والذى قال لوالديه أن دعواه إلى الإيمان والإقرار ببعث الله خلقَه من

قبورهم ومجازاته إيام بأعمالهم : أفّ لكما : إنى لضجر منكما ، أتقولان إنى أبعث من قبرى حيا بعد موتى وفنائى وما لحقنى من بِلى وتفتت عظام ؟ إن هذا لعجب عاجب فهاهى ذى قرون مضت ، وأمم قد خلت من قبلى كعاد وثمود ولم يبعث منهم أحد ، ولو كنت مبعوثا بعد وفاتى كما تقولان لبُعث من قبلى من القرون الغابرة ؛ ألا ترى إلى قول من قال :

ما جاءنا أحـد يخبّر أنه　　　فى جنة لمّا مضى أو نار

وزعم مروان بن الحكم أنها نزلت فى عبد الرحمن بن أبى بكر الصديق رضى الله عنه ، وقد ردت عليه عائشة رضى الله عنها . أخرج ابن أبى حاتم وابن مردويه عن عبد الله قال: إنى لفى المسجد حين خطب مروان فقال : إن الله قد رأى لأمير المؤمنين (يعنى معاوية) فى يزيد رأياً حسنا أن يستخلفه ، فقد استخلف أبو بكر وعمر ، فقال عبد الرحمن بن أبى بكر: سنةَ هِرَقْل وقيصر[1] إن أبا بكر رضى الله عنه ماجعلها فى أحد من ولده ولا أحد من أهل بيته ، ولا جعلها معاوية إلا رحمة وكرامة لولده ، فقال مروان : ألستَ « الَّذِى قَالَ لِوَالِدَيْهِ أُفٍّ لَـكُمَا» فقال عبد الرحمن : ألستُ ابن اللعين الذى لعن رسولُ الله صلى الله عليه وسلم أباك ، فسمعت عائشة فقالت لمروان : أنت القائل لعبد الرحمن كذا وكذا ، كذبتَ والله مافيه نزلت ، نزلت فى فلان بن فلان .

والحق أن الآية لم ترد فى شخص معين ، بل المراد كل شخص يقول أمثال هذه المقالة فيدعوه أبواه إلى الإيمان بالبعث وإلى الدين الصحيح فيأبى وينكر .

(وهما يستغيثان الله ويلك آمن إن وعد الله حق) أى ووالداه يستصرخان الله عليه ويستغيثانه أن يوفقه إلى الإيمان بالبعث ويقولان له حثا وتحريضا : هلا كان لك صدّق بوعد الله وأنك مبعوث بعد وفاتك ، إن وعد الله الذى وعده خلقه أنه باعثهم من قبورهم ومخرجهم منها إلى موقف الحساب لمجازاتهم حق لاشك فيه .

(١) يريد أن البيعة لأولاد الملوك سنة ملوك الروم؛ وهرقل : اسم ملك الروم .

والخلاصة — إنهما يستعظمان قوله ويلجأان إلى الله فى دفعه ويدعوان عليه بالويل والثبور ليستحثاه على ترك ماهو فيه ويشعراه بأن مايرتكبه جدير بأن يهلك فاعله .

ثم ذكر ردّه عليهما مع الاستهزاء بهما والتعجيب من حالها .

(فيقول : ماهذا إلا أساطير الأولين) أى فيقول مجيبا والديه رادّا عليهما نصحهما مكذبا بوعد الله : ماهذا الذى تقولان لى وتدعوانى إليه ، إلا ماسطره الأولون من الأباطيل ، فأصبتماه أنتما وصدقتما به ، ولا ظلّ له من الحقيقة .

ثم ذكر سبحانه جزاء هؤلاء على ما قالوا واعتقدوا فقال :

(أولئك الذين حق عليهم القول فى أمم قد خلت من قبلهم من الجن والإنس) أى هؤلاء الذين هـذه فهم أوصافهم الذين وجب عليهم عذاب الله وحلت عليهم عقوبته وسخطه فيمن حل به العذاب من الأمم الذين قد مضوا من قبلهم من الجن والإنس ممن كذبوا الرسل وعَتَوْا عن أمر ربهم .

وفى الآية إيماء إلى أن الجن يموتون قرنا بعد قرن كالإنس ، قال أبو حيان فى البحر : قال الحسن البصرى فى بعض مجالسه : الجن لايموتون ، فاعترضه قتادة بالآية فسكت .

وفيها ردّ أيضا على من قال : إنهـا نزلت فى عبد الرحمن بن أبى بكر ، لأنه رضى الله عنه أسلم وجُبّ عنه ماقبل وكان من أفاضل الصحابة ، أما من حق عليه القول فهو من علم الله تعالى أنه لايُسْلِم أبدا .

ثم ذكر العلة فى هذا العذاب المهين فقال :

(إنهم كانوا خاسرين) لأنهم ضيعوا فِطرهم التى فطرهم الله عليها واتبعوا الشيطان ، فغبنوا ببيعهم الهدى بالضلال ، والنعيم بالعذاب .

ثم ذكر أن لـكل من الفريقين الذين قالوا ربنا الله ، والذى قال لوالديه مراتب متفاوتة فقال :

(ولكل درجات مما عملوا وليوفيهم أعمالهم وهم لايظلمون) أى ولكلّ من الأبرار والفجار من الإنس والجن مراتب عند الله يوم القيامة على حسب أعمالهم من خير أو شر فى الدنيا ، وليوفيهم أجور أعمالهم ، المحسن منهم بإحسانه ، والمسىء منهم بإساءته ، وهم لايظلمون شيئا حينئذ ، فلا يعاقب المسىء إلا بعقوبة ذنبه ، ولا يحمل عليه ذنب غيره ، ولا يبخس المحسن منهم ثواب إحسانه .

وبعد أن بيّن سبحانه أنه يعطى كل ذى حق حقه — بين الأهوال التى يلاقيها الكافرون فقال :

(ويوم يعرض الذين كفروا على النار أذهبتم طيباتكم فى حياتكم الدنيا واستمتعتم بها فاليوم تجزون عذاب الهون بما كنتم تستكبرون فى الأرض بغير الحق وبما كنتم تفسقون) أى واذكر لقومك حال الذين كفروا حين يعذبون فى النار، ويقال لهم على سبيل التأنيب والتوبيخ : إن كل ماقدر لكم من اللذات والنعيم قد استوفيتموه فى الدنيا ونلتموه ولم يبق لكم منه شىء ، ولكن بقيت لكم الإهانة والخزى جزاء استكباركم وفسوقكم عن أمر ربكم وخروجكم من طاعته .

وفى هذا تحريض على التقلل من زخرف الدنيا وزينتها والأخذ بالتقشف فيها .

أخرج سعيد بن منصور وعبد بن حميد وابن المنذر والحاكم والبيهقى عن ابن عمر أن عمر رضى الله عنه رأى فى يد جابر بن عبد الله رضى الله عنه درهما فقال ماهذا الدرهم ؟ قال أريد أن أشترى به لأهلى لحما قرموا إليه ، فقال : أكلما اشتهيتم شيئا اشتريتموه ؟ أين تذهب عنكم هذه الآية : « أَذْهَبْتُمْ طَيِّبَاتِكُمْ فِي حَيَاتِكُمُ الدُّنْيَا وَاسْتَمْتَعْتُمْ بِهَا » .

وروى الحسن عن الأحنف بن قيس أنه سمع عمر بن الخطاب رضى الله عنه يقول : لأنا أعلم بخفض العيش ، ولو شئت لجعلت أكبادا وصلاء[1] وصنابا وصلائق

(١) الصلاء : الشواء بالمد والكسر ؛ والصناب : صباغ (سلطة) يتخذ من الخردل والزبيب ، والصلائق : الحملان المشوية

ولـكنى أستبقى حسناتى ، فإن الله عز وجل وصف أقواما فقال: « أَذْهَبْتُمْ طَيِّبَاتِكُمْ فِي حَيَاتِكُمُ الدُّنْيَا وَاسْتَمْتَعْتُمْ بِهَا » .

وأخرج أحمد والبيهقى فى شعب الإيمان عن ثوبان رضى الله عنه قال : « كان رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا سافر كان آخر عهده من أهله بفاطمة ، وأول من يدخل عليه منهم فاطمة رضى الله عنها ، فقدم من غزاة فأتاها فإذا بمِسْح (بكسر فسكون ، وهو ثوب من شعر غليظ) على بابها ، ورأى على الحسن والحسين قُلْبَيْن (مثنى قلب بضم فسكون السوار) من فضة فرجع ولم يدخل عليها ، فلما رأت ذلك ظنت أنه لم يدخل من أجل ما رأى ، فهتكت الستر ونزعت القُلبين من الصبيّين فقطعتهما فبكيا ، فقسمت ذلك بينهما ، فانطلقا إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم وهما يبكيان، فأخذ ذلك رسول الله منهما ، وقال يا ثوبان اذهب بهذا إلى بنى فلان (أهل بيت بالمدينة) واشتر لفاطمة قلادة من عَصْب (بفتح فسكون خرز أبيض) وسوارين من عاج ، فإن هؤلاء أهل بيتى : ولا أحب أن يأكلوا طيباتهم فى حياتهم الدنيا » .

وقد كان السلف الصالح يؤثرون التقشف والزهد فى الدنيا رجاء أن يكون ثوابهم فى الآخرة أكمل ، لا أن التمتع بزخارف الدنيا مما يمتنع ، بدليل قوله تعالى « قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللهِ الَّتِي أَخْرَجَ لِعِبَادِهِ وَالطَّيِّبَاتِ مِنَ الرِّزْقِ » .

نعم إن الاحتراز عن التنعم أولى ، لأن النفس إذا اعتادت ذلك وألفته صعب عليها تركه والاكتفاء بما دونه ، ولله درّ البوصيرى إذ يقول :

والنفس كالطفل إن تهمله شبّ على حب الرّضاع وإن تفطمه ينفطم

والذى يضبط هذا الباب ويحفظ قانونه : أن على المرء أن يأكل ماوجد ، طيبا كان أو قفَارا (الطعام بلا أُدْم) ولا يتكلف الطيب ويتخذه عادة ، وقد كان النبى صلى الله عليه وسلم يشبع إذا وجد ، ويصبر إذا عدِم ، ويأكل الحلوى إذا قدر عليها

ويشرب العسل إذا اتفق له ، ويأكل اللحم إذا تيسر ، ولا يعتمده أصلا ، ولا يجعله ديدنا له .

قصص هود عليه السلام مع قومه عاد

وَاذْكُرْ أَخَا عَادٍ إِذْ أَنْذَرَ قَوْمَهُ بِالْأَحْقَافِ وَقَدْ خَلَتِ النُّذُرُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا اللَّهَ ، إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ (٢١) قَالُوا أَجِئْتَنَا لِتَأْفِكَنَا عَنْ آلِهَتِنَا ، فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَا إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ (٢٢) قَالَ إِنَّمَا الْعِلْمُ عِنْدَ اللَّهِ وَأُبَلِّغُكُمْ مَا أُرْسِلْتُ بِهِ إِلَيْكُمْ وَلَكِنِّي أَرَاكُمْ قَوْمًا تَجْهَلُونَ (٢٣) فَلَمَّا رَأَوْهُ عَارِضًا مُسْتَقْبِلَ أَوْدِيَتِهِمْ قَالُوا هَذَا عَارِضٌ مُمْطِرُنَا، بَلْ هُوَ مَا اسْتَعْجَلْتُمْ بِهِ رِيحٌ فِيهَا عَذَابٌ أَلِيمٌ (٢٤) تُدَمِّرُ كُلَّ شَيْءٍ بِأَمْرِ رَبِّهَا ، فَأَصْبَحُوا لَا يُرَى إِلَّا مَسَاكِنُهُمْ ، كَذَلِكَ نَجْزِي الْقَوْمَ الْمُجْرِمِينَ (٢٥) وَلَقَدْ مَكَّنَّاهُمْ فِيمَا إِنْ مَكَّنَّاكُمْ فِيهِ وَجَعَلْنَا لَهُمْ سَمْعًا وَأَبْصَارًا وَأَفْئِدَةً فَمَا أَغْنَى عَنْهُمْ سَمْعُهُمْ وَلَا أَبْصَارُهُمْ وَلَا أَفْئِدَتُهُمْ مِنْ شَيْءٍ إِذْ كَانُوا يَجْحَدُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَحَاقَ بِهِمْ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ (٢٦) وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا مَا حَوْلَكُمْ مِنَ الْقُرَى وَصَرَّفْنَا الْآيَاتِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ (٢٧) فَلَوْلَا نَصَرَهُمُ الَّذِينَ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ قُرْبَانًا آلِهَةً بَلْ ضَلُّوا عَنْهُمْ وَذَلِكَ إِفْكُهُمْ وَمَا كَانُوا يَفْتَرُونَ (٢٨) .

شرح المفردات

أخا عاد : هو هود عليه السلام ، والأحقاف : واحدها حقف (بالكسر والسكون) وهو رمل مستطيل مرتفع فيه انحناء ، سمى به وادٍ بين عمّان ومَهْرَة كانت تسكنه عاد ، وكانوا أهل عمل ، سيارة فى الربيع ، فإذا هاج العود رجعوا إلى منازلهم ، وهم من قبيلة إرَم ، والنذر : واحدهم نذير أى منذر ، من بين يديه : أى من قبله ، ومن خلفه : أى من بعده ، لتأفكنا : أى لتصرفنا ، عن آلهتنا : أى عن عبادتها ، بما تعدنا : أى من معاجلة العذاب على الشرك ، إنما العلم عند الله : أى العلم بوقت نزوله عند الله ، والعارض : السحاب الذى يعرض فى أفق السماء قال الأعشى:

يا من رأى عارضا قد بِتُّ أرمقه كأنما البرق فى حافاته الشُّعَل

مستقبل أوديتهم : أى متجها إليها ، تُدَمِّر : أى تهلك ، حاق : أى نزل ، صرفنا : أى بيّننا ونوّعنا ، الآيات : الحجج والعبر ، فلولا : أى فهلا ، نصرهم : أى منعهم ، قربانا : أى متقربا بها إلى الله ، ضلوا عنهم : أى غابوا عنهم ، إفكهم : أى أثر إفكهم وصرفهم عن الحق، وما كانوا يفترون : أى وأثر افترائهم وكذبهم.

المعنى الجملى

بعد أن أورد سبحانه الدلائل على إثبات التوحيد والنبوة التى أعرض عنها أهل مكة ولم يلتفتوا إليها ولم تُجْدِهم فتيلا ولا قِطميرا ، لاستغراقهم فى الدنيا واشتغالهم بطلبها — أردف هذا بذكر قصص عاد وضرب لهم المثل ليعتبروا فيتركوا الاغترار بما وجدوه من الدنيا ، ويقبلوا على طاعة الله ، فقد كانوا أكثر منهم أموالا وأقوى منهم جندا ، فسلط الله عليهم العذاب بسبب كفرهم ولم يغن عنهم مالهم من الله شيئا .

الإيضاح

(واذكر أخا عاد إذ أنذر قومه بالأحقاف وقد خلت النذر من بين يديه ومن خلفه ألا تعبدوا إلا الله إنى أخاف عليكم عذاب يوم عظيم) أى واذكر أيها الرسول لقومك المكذبين ماجئتهم به من الحق - هودا أخا عاد فقد كذبه قومه بالأحقاف حين أنذرهم بأس الله وشديد عذابه ، وقد مضت رسل من قبله ومن بعده منذرة أممها ألا تشركوا مع الله شيئا فى عبادتكم إياه ، بل أخلصوا له العبادة ، وأفردوا له الألوهة ، وقد كانوا أهل أوثان يعبدونها من دون الله ، فقال لهم ناصحا : إنى أخاف عليكم عذاب يوم عظيم الهول «يَوْمَ لاَ يُغْنِي مَوْلًى عَنْ مَوْلًى شَيْئًا وَلاَ هُمْ يُنْصَرُونَ. يَوْمَ لاَ يَنْفَعُ مَالٌ وَلاَ بَنُونَ إِلاَّ مَنْ أَتَى اللهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ» .

وحين نصحهم بذلك أجابوه :

(قالوا أجئتنا لتأفكنا عن آلهتنا ؟ فأتنا بما تعدنا إن كنت من الصادقين) أى قال قومه له : أجئتنا لتصرفنا عن عبادة آلهتنا إلى عبادة ماتدعونا إليه وإلى اتباعك فيما تقول ؟ هلمّ فهاتِ ماتعدنا به من العذاب على عبادة مانعبد من الآلهة إن كنت صادقا فى قولك وعِدَتِك .

والخلاصة - أتزيلنا بضروب من الكذب عن آلهتنا وعبادتها ؟ فأتنا بما تعدنا من معاجلة العذاب على الشرك إن كنت صادقا فى وعيدك ، وقد استعجلوا عذاب الله وعقوبته استبعادا منهم لوقوعه كما قال تعالى . « يَسْتَعْجِلُ بِهَا الَّذِينَ لاَ يُؤْمِنُونَ بِهَا » .

فردّ هود عليهم مقالهم :

(قال إنما العلم عند الله) أى قال : إنما العلم بوقت نزوله عند الله وحده لا عندى فلا أستطيع تعجيله ولا أقدر عليه ، ثم بين وظيفته فقال :

(وأبلغكم ما أرسلت به إليكم) من ربكم من الإنذار والإعذار ، لا أن آتى بالعذاب ، فليس ذلك من مقدورى ، بل هو من مقدورات ربى .

ثم بين لهم أنهم جاهلون بوظيفة الرسل فقال :

(ولكنى أراكم قوما تجهلون) أى و إنى لأعتقد فيكم الجهل ، ومن ثم بقيتم مصرّين على كفركم ، ولم تهتدوا بما جئتكم به ، بل اقترحتم علىّ ماليس من شأن الرسل ، وهو الإتيان بالعذاب .

ثم ذكر مجىء العذاب إليهم وانتقامه منهم واستئصال شأفتهم فقال :

(فلما رأوه عارضا مستقبل أوديتهم قالوا هذا عارض ممطرنا) أى فلما جاءهم عذاب الله الذى استعجلوه ، فرأوا سحابا يعرض فى أفق السماء متجها إلى أوديتهم قالوا هذا عارض ممطرنا ، ظنا منهم أن غيثا قد أتاهم وفيه حياتهم .

روى أنه قد حبس عنهم المطر أياما ، فساق الله إليهم سحابة سوداء ، فخرجت عليهم من وادٍ لهم يقال له المغِيث ، فلما رأوها تستقبل أوديتهم استبشروا بها خيرا .

ولما سمع هود مقالهم وشامه مليا قال :

(بل هو ما استعجلتم به) من العذاب إذ قلتم « فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَا إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ » .

ثم فسر هذا العارض و بين حقيقته فقال :

(ريح فيها عذاب أليم) أى بل هو ريح فيها عذاب يهلككم ويجعلكم كأمس الدابر .

ثم وصف هذه الريح فقال :

(تدمر كل شىء بأمر ربها) أى تهلك كل شىء مرت به من نفوس عاد وأموالها بإذن ربها .

ونحو الآية قوله تعالى : « مَاتَذَرُ مِنْ شَيْءٍ أَتَتْ عَلَيْهِ إِلاَّ جَعَلَتْهُ كَالرَّمِيمِ » أى كالشىء البالى الخلق .

ثم ذكر مآل أمرهم بعدها فقال :

(فأصبحوا لايرى إلا مساكنهم) أى فجاءتهم الريح فدمرتهم فصاروا بعد الهلاك لايرى إلا آثار مساكنهم ، إذ قد اجتاحت الأموال وأذهبت الأنفس وجعلتها أثرا بعد عين .

روى عن ابن عباس : أن أول ماعرفوا أنه عذاب أليم أنهم رأوا ما كان فى الصحراء من رحالهم ومواشيهم تطير به الريح بين السماء والأرض فدخلوا بيوتهم وغلقوا أبوابهم ، فقلعتها الريح وصرعتهم : وأحال الله عليهم الرمال فكانوا تحتها سبع ليال وثمانية أيام ، ثم كشفت الريح عنهم الرمال فاحتملتهم فطرحتهم فى البحر.

أخرج مسلم والترمذى والنسائى عن عائشة رضى الله عنها قالت: «كان رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا عصفت الريح قال : اللهم إنى أسألك خيرها وخير مافيها وخير ما أرسلت به ، وأعوذ بك من شرها وشر مافيها وشر ما أرسلت به ، فإذا أخيلت السماء تغيَّر لونه صلى الله عليه وسلم وخرج ودخل وأقبل وأدبر ، فإذا مطرت سُرّى عنه ، فسألته ؛ فقال عليه السلام لا أدرى لعلَّه كما قال قوم عاد (هذا عارض ممطرها)» .

وأخرج البخارى ومسلم وغيرهما عن عائشة قالت: « مارأيت رسول الله مستجمعا ضاحكا حتى أرى منه لهواته[1] وإنما كان يبتسم ، وكان إذا رأى غيما وريحا عُرف ذلك فى وجهه ، قلت يا رسول الله : الناس إذا رأوا الغيم فرحوا رجاء أن يكون فيه المطر ، وأراك إذا رأيته عُرف فى وجهك الكراهية ، قال : ياعائشة وما يؤمِّننى أن يكون فيه عذاب ، عذِّب قوم بالريح ، وقد رأى قوم العذاب فقالوا هذا عارض ممطرنا» .

وفى صحيح مسلم عن ابن عباس أن النبى صلى الله عليه وسلم قال « نُصِرْتُ بالصَّبَا ، وَأُهْلِكَتْ عادٌ بالدَّبُور[2] » .

---

(١) واحدها لهاة : وهى اللحمة المشرفة على الحلق فى أقصى سقف الفم .

(٢) الصبا : ريح الشمال ، والدبور : ريح الجنوب.

وقد قال شاعرهم يحكى هذا القصص فيما رواه ابن الكلبى :

فدعا هود عليهم دعوةً أضحَوْا هُمُودا
عصفت ريح عليهم تركت عاداً خمودا
سُخّرت سبع ليال لم تدَع فى الأرض عودا

(كذلك نجزى القوم المجرمين) أى كما جازينا عاداً بكفرهم بالله ذلك العقاب فى الدنيا ، فأهلكناهم بعذابنا ، كذلك نجزى كل مجرم كافر بالله متماد فى غيّه .

ولا يخفى ما فى هذا من التهديد والوعيد الشديد .

ثم أخبر سبحانه عن قوة عاد بقوله :

(ولقد مكناهم فيما إن مكنا كم فيه) أى ولقد مكنا عادا الذين أهلكناهم بكفرهم فيما لم نمكنكم فيه من الدنيا ، وأعطيناهم منها ما لم نعطكم مثله ولا قريبا منه من الأموال الكثيرة وبسطة الأجسام وقوة الأبدان — وهم على ذلك مانجَوْا من عقاب الله ، فتدبروا أمركم وفكروا فيما تعملون قبل أن يحل بكم العذاب ، ولا تجدون منه مهربا .

ونحو الآية قوله : « كَانُوا أَكْثَرَ مِنْهُمْ وَأَشَدَّ قُوَّةً وَآثَارًا فِي الْأَرْضِ » .

(وجعلنا لهم سمعا وأبصاراً وأفئدة فما أغنى عنهم سمعهم ولا أبصارهم ولا أفئدتهم من شىء) أى إنا فتحنا عليهم أبواب نعمنا ، فأعطيناهم سمعا فما استعملوه فى سماع الأدلة والحجج ليعتبروا ويتذكروا ، وأعطيناهم أبصارا ليروا مانصبناه من الشواهد الدالة على وجودنا فما انتفعوا بها ، وأعطيناهم قلوبا تفقه حكمة الله فى خلق الأكوان فما استفادوا منها مايفيدهم فى آخرتهم وقربهم من جوار ربهم ، بل صرفوها فى طلب الدنيا ولذاتها ، لاجرم لم ينفعهم ما أعطيناهم من السمع والأبصار والأفئدة ، إذ لم يستعملوها فيما خلقت له من شكر من أنعم بها ودوام عبادته .

ثم بين العلة فى عدم إغناء ذلك عنهم فقال :

(إذ كانوا يجحدون بآيات الله) أى لأنهم كانوا يكذبون رسل الله و ينكرون معجزاتهم .

(وحاق بهم ما كانوا به يستهزئون) أى ونزل بهم ماسخروا به فاستعجلوه من العذاب .

وفى هـذا تخويف لأهل مكة حتى يحذروا من عذاب الله ، و يخافوا عقابه ، فإن عادا لمـا اغتروا بدنياهم ، وأعرضوا عن قول الحق — نزل بهم العذاب ، ولم تغن عنهم قوتهم ولا كثرتهم شيئا — فأهل مكة مع عجزهم وضعفهم أولى .

ولما أخبر بهلاكهم على مالَهم من المُكْنة العظيمة ، ليتعظ بهم من سمع أمرهم ، أتبعه بذكر من كان مشاركا لهم فى التكذيب ، فأدركه سوء العذاب كما أدركهم فقال :

(ولقد أهلكنا ماحولكم من القرى) أى ولقد أهلكنا يا أهل مكة ماحول قريتكم من القرى المكذبة للرسل كعاد ، وقد كانوا بالأحقاف بحضرموت ، وثمود وكانت منازلهم بينهم و بين الشام ، وسبإ باليمن ، ومدين ، وكانت فى طريقهم فى رحلاتهم صيفا وشتاء ، بعد أن أنذرناهم بالمَثُلات ، فلم يغن ذلك عنهم شيئا فأخذناهم أخذ عزيز مقتدر .

(وصرّفنا الآيات لعلهم يرجعون) أى و بيّنا لهم دلائل قدرتنا ، و بديع حججنا ليرجعوا عن غيّهم الذى استمسكوا به لمحض التقليد ، أو لشبهة عرضت لهم ، فحلّ بهم سوء العذاب ولم يجدوا لهم نصيرا ولا دافعا لعذاب الله ، وهـذا ماعناه سبحانه بقوله :

(فلولا نصرهم الذين اتخذوا من دون الله قربانا آلهة ، بل ضلوا عنهم) أى فهلا نصرهم أوثانهم وآلهتهم التى اتخذوا عبادتها قرباناً يتقربون به إلى ربهم فيما زعموا ، حين جاءهم بأسنا فأنقذوهم من عذابنا إن كانوا يشفعون عنده .

وفى هذا تقريع لأهل مكة وتأنيب لهم على أنه لو كانت آلهتهم التى يعبدونها من دون الله تغنى عنهم شيئا ، أو تنفعهم عنده — لأغنت عمن كان قبلهم من الأمم الذين أهلكوا بعبادتهم إياها ، فدفعت عنهم العذاب إذ نزل بهم ، أو لشفعت لهم عند ربهم ، لكنها أضرتهم ولم تنفعهم ، وغابت عنهم أحوج ما كانوا إليها ، فما أحراهم أن يتنبهوا لما هم فيه من خطل الرأى وسوء التقدير للأمور .

(وذلك إفكهم وما كانوا يفترون) أى وامتناع نصرة آلهتهم لهم وضلالهم عنهم — أثر من آثار إفكهم الذى هو اتخاذهم إياها آلهة ، وثمرة افترائهم على الله الكذب .

استماع الجن للقرآن

وَإِذْ صَرَفْنَا إِلَيْكَ نَفَرًا مِنَ الْجِنِّ يَسْتَمِعُونَ الْقُرْآنَ ، فَلَمَّا حَضَرُوهُ قَالُوا أَنْصِتُوا فَلَمَّا قُضِيَ وَلَّوْا إِلَى قَوْمِهِمْ مُنْذِرِينَ (٢٩) قَالُوا يَاقَوْمَنَا إِنَّا سَمِعْنَا كِتَابًا أُنْزِلَ مِنْ بَعْدِ مُوسَى مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ وَإِلَى طَرِيقٍ مُسْتَقِيمٍ (٣٠) يَا قَوْمَنَا أَجِيبُوا دَاعِيَ اللَّهِ وَآمِنُوا بِهِ يَغْفِرْ لَكُمْ مِنْ ذُنُوبِكُمْ وَيُجِرْكُمْ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ (٣١) وَمَنْ لَا يُجِبْ دَاعِيَ اللَّهِ فَلَيْسَ بِمُعْجِزٍ فِي الْأَرْضِ وَلَيْسَ لَهُ مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءُ ، أُولَئِكَ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ (٣٢) .

شرح المفردات

صرفنا : أى وجهنا ، والنفر : مابين الثلاثة والعشرة من الرجال ، سموا بذلك : لأنهم ينفرون إذا حزبهم أمر لكفايته ، أنصتوا : أى اسكتوا ، قضى : أى فرغ

من تلاوته ، ولّوا : أى رجعوا ، منذرين : أى مخوّفين لهم عواقب الضلال . روى أن هؤلاء الجن كانوا من جنّ نَصِيبين من ديار بكر قريبة من الشام ، أو من نِينَوَى بالموصل ، وكان الاجتماع بوادى نخلة على نحو ليلة من مكة ، وقد أُمر الرسول صلى الله عليه وسلم أن ينذر الجن ويدعوهم إلى الله تعالى ويقرأ عليهم القرآن ، فصرف الله إليه نفراً منهم فاستمعوا منه ، حتى إذا انقضى من تلاوته رجعوا إلى قومهم منذريهم عقاب الله إذا هم استمروا على الضلال . أجاره الله من العذاب : أنقذه منه ، وداعى الله : هو الرسول صلى الله عليه وسلم ، فليس بمعجز فى الأرض : أى لا يُنجى منه مهرب ، ولا يسبق قضاءه سابق .

المعنى الجملى

بعد أن ذكر سبحانه أن فى الإنس من آمن ومنهم من كفر — أعقب هذا ببيان أن الجن كذلك ، فمنهم من آمن ومنهم من كفر ، وأن مؤمنهم معرّض للثواب، وكافرهم معرض للعقاب ، وأن الرسول عليه السلام كما أرسل إلى الإنس أرسل إلى الجن .

واعلم أن عالَم الملائكة وعالَم الجن لا يقوم عليهما دليل من العقل ؛ فهو بمعزل عن ذلك ، وإنما دليلهما السمع وإخبار الأنبياء بذلك فقط ، فعلينا أن نؤمن بما جاء به فحسْبُ ولا نزيد على ذلك شيئا ، ولا نتوسع فى بحثه وتأويله وتفصيله ، فإن ذلك من عالَم الغيب الذى لم نؤت من علمه كثيرا ولا قليلا ، فعلينا أن نؤمن بأن اتصالا قد تمّ بين النبى صلى الله عليه وسلم وعالَم الملائكة ، وبه تلقى الوحى على أيديهم ، وأنه اتصل بعالَم الجن ، فعلمهم وبشرهم وأنذرهم ، لكننا لا ندرى كيف كان الاتصال ولا كيف تلقوا عنه القرآن ، ولعل تقدم العلوم فى مستأنف الأيام يلقى علينا ضوءا من هذه المعرفة ، أو لعل قراءة علم الروح والتوسع فى دراسته ينير لنا بعض السر

فى ذلك ، فنى هذه الدراسة معرفة شىء من أحوالنا فى الحياة الأخرى بعد هذه الحياة.
وسيأتى تفصيل لهذا القصص فى سورة الجن .

الإيضاح

(وإذ صرفنا إليك نفراً من الجن يستمعون القرآن ، فلما حضروه قالوا أنصتوا فلما قضى ولّوا إلى قومهم منذرين) أى واذكر أيها الرسول لقومك موبّخا لهم على كفرهم بما آمنت به الجن ، لعلهم يتنبهون لجهلهم ، ويرعوون عن غيّهم وقبيح ماهم فيه من كفر بالقرآن وإعراض عنه ، مع أنهم أهل اللسان الذى به نزل، ومن جنس الرسول الذى جاء به ، وأولئك استمعوه وعلموا أنه من عند الله وآمنوا به ، وليسوا من أهل لسانه ، ولا من جنس رسوله — فى ذلك الوقت الذى وجه الله إليه جماعة من الجن ، ليستمعوا القرآن ويتعظوا بما فيه من عِبَر وعظات ، فلما حضروا الرسول قال بعضهم لبعض : أنصتوا مستمعين ، فلما فرغ من تلاوته رجعوا إلى قومهم لينذروهم بأس الله وشديد عذابه .

وذكر الوقت ذكرٌ لما فيه من الأحداث التى يراد إخبار السامع بها ، لما لها من خطر جليل وشأن عظيم ، فيراد علمه بها ليكون لها فى نفسه الأثر الذى يقصد منها من ترغيب أو ترهيب ، ومسرة أو حزن إلى نحو أولئك من أغراض الكلام ومقاصده .

أخرج البخارى ومسلم وغيرهما عن مسروق قال : سألت ابن مسعود من آذن النبى صلى الله عليه وسلم بالجن ليلة استمعوا القرآن ، قال آذنته بهم الشجرة .

وأخرج أحمد ومسلم والترمذى عن علقمة قال : قلت لابن مسعود : هل صحب رسولَ الله صلى الله عليه وسلم منكم أحد ليلة الجن ، قال ماصحبه منا أحد ، ولكنا فقدناه ذات ليلة فقلنا اغتيل . استُطير . مافعل ؟ قال : فبتنا بشر ليلة بات بها قوم ،

فلما كان فى وجه الصبح إذا نحن به يجيء من قِبَل حراء فأخبرناه فقال : إنه أتانى داعى الجنّ فأتيتهم فقرأت عليهم القرآن ، فانطلق فأرانا آثارهم وآثار نيرانهم .

وقد وردت أحاديث كثيرة أن الجن بعد هذا وفدت على رسول الله صلى الله عليه وسلم مرة بعد مرة ، وأخذت عنه الشرائع والأحكام الدينية . ثم فصل ما قالوه لهم فى إنذارهم .

(قالوا : يا قومنا إنا سمعنا كتابا أنزل من بعد موسى مصدقا لما بين يديه يهدى إلى الحق و إلى طريق مستقيم) أى قالوا لهم يا قومنا من الجن : إنا سمعنا كتابا أنزله الله من بعد توراة موسى ، يصدق ماقبله من كتب الله التى أنزلها على رسله ، ويرشد إلى سبيل الحق ، و إلى مافيه لله رضا ، و إلى الطريق الذى لاعوج فيه .

وخصوا التوراة بالذكر لأنه متفق عليه عند أهل الكتابين . وقال عطاء لأنهم كانوا على اليهودية ، وهذا يحتاج إلى نقل صحيح .

(ياقومنا أجيبوا داعى الله وآمنوا به يغفر لكم من ذنوبكم و يجركم من عذاب أليم) أى ياقومنا أجيبوا رسول الله محمدا صلى الله عليه وسلم إلى مايدعوكم إليه من طاعة الله ، وصدقوه فيما جاء به من أمر الله ونهيه — يغفر لكم بعض ذنوبكم ويسترها لكم ولا يفضحكم بها فى الآخرة بعقوبته إياكم عليها ، وينقذكم من عذاب موجع ، إذا أنتم تبتم من ذنوبكم وأنبتم إلى ربكم ، وأخلصتم له العبادة .

وفى الآية إيماء إلى أن حكم الجن حكم الإنس فى الثواب والعقاب والتعبد بالأوامر والنواهى .

ثم حذروا قومهم وتوعدوهم وأوجبوا إجابتهم داعىَ الله بطريق الترهيب إثر إيجابها بطريق الترغيب فقالوا :

(ومن لايجب داعى الله فليس بمعجز فى الأرض وليس له من دونه أولياء) أى ومن لايجب رسول الله محمداً صلى الله عليه وسلم إلى مادعا إليه من التوحيد

والعمل بطاعته ، فلا يفوت ربه ولا يسبقه هربا إذا أراد عقوبته على تكذيبه داعيَه، ولا يجد له نصراء ينصرونه ويدفعون عنه عذابه .

ثم بيّن أن من فعل ذلك فقد بلغ الغاية في الضلال، والبعد عن الصراط السويّ فقال: (أولئك فى ضلال بعيد) أى وأولئك الذين يفعلون ذلك يكونون فى ضلال بيّن وجور عن قصد السبيل ، لأن طريق الحق واضح وأعلامه منصوبة ، والوصول إليه ميسور ، فمن جانفه وأعرض عنه فقد أجرم واستحق الجزاء الذى هو له أهل .

أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللهَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَلَمْ يَعْيَ بِخَلْقِهِنَّ بِقَادِرٍ عَلَى أَنْ يُحْيِيَ الْمَوْتَى ؟ بَلَى إِنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (٣٣) وَيَوْمَ يُعْرَضُ الَّذِينَ كَفَرُوا عَلَى النَّارِ أَلَيْسَ هَذَا بِالْحَقِّ ؟ قَالُوا بَلَى وَرَبِّنَا ، قَالَ فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنْتُمْ تَكْفُرُونَ (٣٤) فَاصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُولُوا الْعَزْمِ مِنَ الرُّسُلِ وَلَا تَسْتَعْجِلْ لَهُمْ كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَ مَا يُوعَدُونَ لَمْ يَلْبَثُوا إِلَّا سَاعَةً مِنْ نَهَارٍ بَلَاغٌ ، فَهَلْ يُهْلَكُ إِلَّا الْقَوْمُ الْفَاسِقُونَ (٣٥).

شرح المفردات

لم يعى : أى لم يعجز، قال الكسائى : يقال أعييت من التعب ، وعييت من انقطاع الحيلة والعجز ، قال عَبيد بن الأبرص :

عَيُّوا بأمرهمُ كما عيّتْ ببيضتها الحمامهْ

أولو العزم : أى ذوو الحزم والصبر ، قال مجاهد : هم خمسة نظمهم الشاعر فى قوله :

أولو العزم نوحٌ والخليل الممجّدُ وموسى وعيسى والحبيبُ محمدٌ

بلاغ : أى كفاية فى الموعظة .

المعنى الجملى

بعد أن ذكر فى أول السورة مايدل على وجود الإله القادر الحكيم ، وأبطل قول عبدة الأصنام ، ثم ثنى بإثبات النبوة وذكر شبهاتهم فى الطعن فيها وأجاب عنها — أردف ذلك بإثبات البعث وأقام الدليل عليه ، فذكر أن من خلق السموات والأرض على عظمهن فهو قادر على أن يحيي الموتى ، ثم أعقب هذا بما يجرى مجرى العظة والنصيحة لرسوله صلى الله عليه وسلم بالصبر على أذى قومه كما صبر من قبله أولو العزم من الرسل ، وبعدم استعجال العذاب لهم ، فإنه نازل بهم لامحالة وإن تأخر ، وحين نزوله بهم سيستقصرون مدة لبثهم فى الدنيا حتى يحسبونها ساعة من نهار لهول ما عاينوا ، ثم ختم السورة بأن فى هذه العظات كفاية أيّما كفاية ، وما يهلك إلا من خرج عن طاعة ربه ، ولم ينقد لأمره ونهيه :

الإيضاح

(أو لم يروا أن الله الذى خلق السموات والأرض ولم يعى بخلقهن بقادر على أن يحيي الموتى؟) أى أولم ينظر هؤلاء المنكرون إحياء الخلق بعد وفاتهم ، وبعثه إياهم من قبورهم بعد بلاهم ، فيعلموا أن الذى خلق السموات السبع والأرض فابتدعهن من غير شىء ، ولم يعى فى إنشائهن — بقادر على أن يحيي الموتى فيخرجهم من بعد بلاهم فى قبورهم أحياء كهيئتهم قبل وفاتهم ؟

ونحو الآية قوله عز وجل : « لَخَلْقُ السَّمٰوَاتِ وَالْأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ النَّاسِ وَلَـٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ » .

والخلاصة — إن من قال للسموات والأرض كونى فكانت بلا ممانعة ولا مخالفة، طائعة خائفة وجلة — أليس ذلك بقادر على أن يحيي الموتى ؟ .

ثم أجاب عن ذلك مقرِّراً للقدرة على وجه عام يكون كالبرهان على المقصود فقال:

(بلى إنه على كل شىء قدير) أى بلى إن الذى خلق ذلك — ذو قدرة على كل شىء أراد خلقه ، ولا يعجزه شىء أراد فعله .

وقد أجاب سبحانه عن هذا السؤال ؛ لوضوح الجواب إذ لايختلف فيه أحد ، ولا يعارض فيه ذو لبّ .

ولما أثبت البعث بما أقام من الأدلة ذكر مايحدث حينئذ من الأهوال فقال :

(ويوم يعرض الذين كفروا على النار أليس هذا بالحق؟ قالوا بلى وربنا) أى ويوم يعرض هؤلاء المكذبون بالبعث وبثواب الله لعباده على أعمالهم الصالحة ، وعقابه إياهم على أعمالهم السيئة — على نار جهنم يقال لهم على سبيل التأنيب والتوبيخ : أليس هـذا العذاب الذى تُعذَّبونه اليوم ،وقد كنتم تكذبون به فى الدنيا — بالحق الذى لاشك فيه ؟ قالوا من فَوْرهم : بلى وربنا إنه لحق .

(قال فذوقوا العذاب بما كنتم تكفرون) أى قال آمرا لهم على طريق الإهانة والتوبيخ : ذوقوا عذاب النار الآن جزاء جحودكم به فى الدنيا وإبائكم الاعترافَ به إذا دُعيتم للتصديق به .

ولما قرر التوحيد والنبوة والبعث وأجاب عن شبهاتهم — أردف ذلك بما يجرى مجرى العظة والنصيحة لنبيّه ، لأن الكفار كانوا يؤذونه ويوغرون صدره فقال :

(فاصبر كما صبر أولوا العزم من الرسل) أى فاصبر أيها الرسول على ما أصابك فى الله من أذى مكذبيك من قومك الذين أرسلناك إليهم منذراً ، كما صبر أولو العزم من الرسل على القيام بأمر الله والانتهاء إلى طاعته .

والخلاصة — اصبر على الدعوة إلى الحق ومكابدة الشدائد كما صبر إخوانك الرسل من قبلك .

وعن عائشة قالت : ظلّ رسول الله صلى الله عليه وسلم صائما ثم طوى ، ثم ظلّ صائما ثم طوى ثم ظل صائما قال يا عائشة : « إن الدنيا لاتنبغى لمحمد ولا لآل محمد ،

يا عائشة إن الله لم يرض من أولى العزم عن الرسل إلا بالصبر على مكروهها ، والصبر عن محبوبها ، ثم لم يرض منى إلا أن يكلفنى ما كلفهم فقال : « اصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُولُو الْعَزْمِ مِنَ الرُّسُلِ » وإنى والله لأصبرنّ كما صبروا جهدى ولا قوة إلا بالله » . أخرجه ابن أبى حاتم والدّيلمى .

ولما أمره بالصبر، وهو أعلى الفضائل، نهاه عن العجلة وهى أخسّ الرذائل فقال :

(ولا تستعجل لهم) أى لاتعجل بمسألة ربك العذابَ لهم ، فإنه نازل بهم لامحالة .

ونحو الآية قوله تعالى : « وَذَرْنِي وَالْمُكَذِّبِينَ أُولِي النَّعْمَةِ وَمَهِّلْهُمْ قَلِيلاً » وقوله : « فَمَهِّلِ الْكَافِرِينَ أَمْهِلْهُمْ رُوَيْدًا » .

ثم أخبر بأن العذاب إذا نزل بالكافرين استقصروا مدة لبثهم فى الدنيا حتى يحسبونها ساعة من نهار فقال :

(كأنهم يوم يرون مايوعدون لم يلبثوا إلا ساعة من نهار) أى كأنهم حين يرون عذاب الله الذى أوعدهم بأنه نازل بهم — لم يلبثوا فى الدنيا إلا ساعة من نهار — لأن شدة ماينزل بهم منه ينسيهم قدر ما مكثوا فى الدنيا من السنين والأعوام ، فيظنونها ساعة من نهار .

ونحو الآية قوله : « كَمْ لَبِثْتُمْ فِي الْأَرْضِ عَدَدَ سِنِينَ؟ . قَالُوا لَبِثْنَا يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ فَاسْأَلِ الْعَادِّينَ » وقوله : « كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَهَا لَمْ يَلْبَثُوا إِلاَّ عَشِيَّةً أَوْ ضُحَاهَا » .

(بلاغ) أى هذا القرآن بلاغ لهم وكفاية إن فكروا واعتبروا ، ودليله قوله تعالى : « هَذَا بَلاَغٌ لِلنَّاسِ وَلِيُنْذَرُوا بِهِ » وقوله : « إِنَّ فِي هَذَا لَبَلاَغًا لِقَوْمٍ عَابِدِينَ » .

ثم أوعد وأنذر فقال :

(فهل يهلك إلا القوم الفاسقون) أي وما يهلك بالعذاب إذا نزل إلا الخارجون عن طاعة الله المخالفون لأمره ونهيه ؛ إذ لايعذب إلا من يستحق العذاب .

قال قتادة : لايهلك على الله إلا هالك مشرك ، وهذه الآية أقوى آية فى الرجاء ومن ثم قال الزجاج : تأويله لايهلك مع رحمة الله وفضله إلا القوم الفاسقون ، وهذا تطميع فى سعة فضل الله سبحانه وتعالى .

أخرج الطبرانى فى الدعاء عن أنس أن النبى صلى الله عليه وسلم كان يدعو: « اللهم إنى أسألك موجبات رحمتك ، وعزائم مغفرتك ، والسلامة من كل إثم ، والغنيمة من كل برّ ، والفوز بالجنة ، والنجاة من النار ، اللهم لاتدع لى ذنباً إلا غفرته ولا همًّا إلا فرّجته ، ولا ديناً إلا قضيته ، ولا حاجة من حوائج الدنيا والآخرة إلا قضيتها برحمتك يا أرحم الراحمين » .

خلاصة ما اشتملت عليه هذه السورة الكريمة

(١) إقامة الأدلة على التوحيد والرد على عبدة الأصنام والأوثان .

(٢) المعارضات التى ابتدعها المشركون للنبوة والإجابة عنها و بيان فسادها .

(٣) ذكر حال أهل الاستقامة الذين وحدوا الله وصدقوا أنبياءه و بيان أن جزاءهم الجنة .

(٤) ذكر وصايا للمؤمنين من إكرام الوالدين وعمل مايرضى الله .

(٥) بيان حال من انهمكوا فى الدنيا ولذاتها .

(٦) قصص عاد وفيه بيان أن صرف النعم فى غير وجهها يورث الهلاك .

(٧) استماع الجن للرسول صلى الله عليه وسلم وتبليغهم قومهم ماسمعوه .

(٨) عظة للنبى صلى الله عليه وسلم والمؤمنين من أمته .

(٩) بيان أن القرآن فيه البلاغ والكفاية فى الإنذار .

(١٠) من عدل الله ورحمته ألايعذب إلا من خرج من طاعته ولم يعمل بأمره ونهيه.

سورة محمد صلى الله عليه وسلم

وتسمى سورة القتال

هى مدنية إلا آية ١٣ فقد نزلت فى الطريق أثناء الهجرة .

وعدة آيها ثمان وثلاثون آية . نزلت بعد الحديد .

ولا تخفى قوة ارتباطها بما قبلها ، فإن أولهـا متلاحم بآخر السورة السابقة ، حتى لو أسقطت البسملة من البين لكان الكلام متصلا بسابقه لاتنافر فيه ، ولكان بعضه آخذا بحُجَز بعض .

أخرج الطبرانى فى الأوسط عن ابن عمر رضى الله عنهما أن النبى صلى الله عليه وسلم كان يقرؤها فى صلاة المغرب .

بِسْمِ اللهِ الرَّحْمٰنِ الرَّحِيمِ

الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللهِ أَضَلَّ أَعْمَالَهُمْ (١) وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَآمَنُوا بِمَا نُزِّلَ عَلَى مُحَمَّدٍ وَهُوَ الْحَقُّ مِنْ رَبِّهِمْ كَفَّرَ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَأَصْلَحَ بَالَهُمْ (٢) ذَلِكَ بِأَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا اتَّبَعُوا الْبَاطِلَ وَأَنَّ الَّذِينَ آمَنُوا اتَّبَعُوا الْحَقَّ مِنْ رَبِّهِمْ ، كَذَلِكَ يَضْرِبُ اللهُ لِلنَّاسِ أَمْثَالَهُمْ (٣) .

شرح المفردات

صدّوا عن سبيل الله : أى صرفوا الناس عن الدخول فى الإسـلام ، وذلك يستلزم أنهم منعوا أنفسهم عن الدخول فيه ، أضلّ أعمالهم : أى أبطلها ، وهو الحق

من ربهم : أى وهو الحق الثابت الذى لامرية فيه ، بالهم : أى حالهم فى الدين والدنيا بالتوفيق لصالح الأعمال ، وأصل البال : الحال التى يكترث بها ، ولذلك يقال ما باليت به : أى ما اكترثت به ، ومنه قوله صلى الله عليه وسلم « كل أمر ذى بال» الحديث . يضرب الله للناس أمثالهم : أى يبين لهم مآل أعمالهم وما يصيرون إليه فى معادهم .

المعنى الجملى

قسم الله الناس فريقين : أهل الكفر الذين صدوا الناس عن سبيل الله ، وهؤلاء يبطل أعمالهم سواء كانت حسنة كصلة الأرحام وإطعام الطعام ، أو سيئة كالكيد لرسول الله والصدّ عن سبيل الله ، فالأولى يبطل ثوابها ، والثانية يمحو أثرها ، وهكذا كل من قاوم عملا شريفا فإن مآله الخذلان .

وأهل الإيمان بالله ورسوله الذين أصلحوا أعمالهم ، وأولئك يغفر الله لهم سيئات أعمالهم ويوفقهم فى الدين والدنيا ، كما أضاع أعمال الكافرين ولم يُثِبْ عليها .

ثم علل ماسلف بأن أعمال الفريقين جرت على ماسنه الله فى الخليقة : بأن الحق منصور، وأن الباطل مخذول سواء كان فى أمور الدين أم فى أمور الدنيا ، فالصناعات المحكَمَة إنما يقبل الناس عليها ويُؤْثرونها ، لأنها جارية على الطريق القويم والنسق الحق ، وهكذا الشأن فى المزروعات والمصنوعات المتقنة الجيدة، والسياسات الحكيمة.

فالصناعات المرذولة والسلع المزجاة لن يكون حظها إلا الكساد والبوار ، لأن الباطل لاثبات له ، والحق هو الثابت ، والله هو الحق فينصر الحق ، والعلم الصحيح والدين الصحيح والصناعات الجيدة والآراء الصادقة نتائجها السعادة ، وضدها عاقبته الشقاء والبوار .

وقصارى ذلك — إن الله سبحانه خلق السموات والأرض بالحق وعلى قوانين

ثابتة منظمة ، فكل ماقرب من الحق كان باقيا ، وكل ما ابتعد عنه كان هالكا ، فرجال الجدّ والنشاط مؤيدون ، ورجال الكسل والتواكل مخذولون ، والمحققون فى كل شىء محبوبون منصورون .

الإيضاح

(الذين كفروا وصدوا عن سبيل الله أضل أعمالهم) أى الذين جحدوا توحيد الله وعبدوا غيره وصدوا من أراد عبادته والإقرار بوحدانيته وتصديق نبيّه عما أراد — جعل الله أعمالهم تسير على غير هدى ، لأنها عملت فى سبيل الشيطان لافى سبيل الرحمن ، وما عمل للشيطان فمآله الخسران .

فما عملوه فى الكفر مما كانوا يسمونه مكارم أخلاق : من صلة الأرحام وفك الأسارى وإطعام الطعام وعمارة المسجد الحرام وإجارة المستجير وقرى الأضياف ونحو ذلك — حكم الله ببطلانه ، فلا يرون له فى الآخرة ثوابا ، ويجزون به فى الدنيا من فضله تعالى .

ونحو الآية قوله : « وَقَدِمْنَا إِلَى مَا عَمِلُوا مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَاهُ هَبَاءً مَنْثُورًا » .

قال ابن عباس : نزلت الآية فى المطعمين ببدر، وهم اثنا عشر رجلا : أبوجهل ، والحارث بن هشام ، وعتبة، وشيبة ابنا ربيعة، وأبىّ، وأمية ابنا خلف، ومُنبّه ونُبيه ابنا الحجاج ، وأبو البخترى بن هشام ، وزمعة بن الأسود ، وحكيم بن حزام ، والحرث بن عامر بن نوفل .

ولما ذكر سبحانه جزاء أهل الكفر ، أتبعهم بثواب أهل الإيمان فقال :

(والذين آمنوا وعملوا الصالحات وآمنوا بما نزّل على محمد وهو الحق من ربهم كفر عنهم سيئاتهم وأصلح بالهم) أى والذين صدقوا الله وعملوا بطاعته واتبعوا أمره ونهيه وصدقوا بالكتاب الذى نزل على محمد ، وهو الحق من ربهم — محا الله

بفعلهم سيء ماعملوا فلم يؤاخذهم به ، وأصلح شأنهم فى الدنيا بتوفيقهم لسبل السعادة ، وأصلح شأنهم فى الآخرة بأن يورثهم نعيم الأبد والخلود الدائم فى جناته .

قال ابن عباس نزلت الآية فى الأنصار .

ثم بين سبب الإضلال ، و إصلاح البال فقال :

(ذلك بأن الذين كفروا اتبعوا الباطل ، وأن الذين آمنوا اتبعوا الحق من ربهم) أى و إنما أبطلنا أعمال الكفار وتجاوزنا عن سيئات الأبرار ، وأصلحنا شئونهم ، لأن الذين كفروا اختاروا الباطل على الحق بما وسوس إليهم به الشيطان ، ولأن الذين آمنوا اتبعوا الحق الذى جاءهم من ربهم ، فأنار الله بصائرهم وهداهم إلى سبل الرشاد .

(كذلك يضرب الله للناس أمثالهم) أى كما بينت لكم فِعلى بفريقى الكفار والمؤمنين . كذلك نمثل للناس الأمثال ونشبه لهم الأشباه ، فنلحق بالأشياء أمثالها وأشكالها .

والخلاصة — إنه جعل اتباع الباطل مثلا لعمل الكفار ، والإضلالَ مثلا لخيبتهم ، واتباعَ الحق مثلا لعمل المؤمنين ، وتكفير سيئاتهم مثلا لفوزهم ، وهكذا شأن القرآن يوضح الأمور التى فيها عظة وذكرى بضرب الأمثال كما ضرب المثل بالنخل والحنظل فى سورة أخرى .

فَإِذَا لَقِيتُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا فَضَرْبَ الرِّقَابِ حَتَّى إِذَا أَثْخَنْتُمُوهُمْ فَشُدُّوا الْوَثَاقَ ، فَإِمَّا مَنًّا بَعْدُ وَإِمَّا فِدَاءً حَتَّى تَضَعَ الْحَرْبُ أَوْزَارَهَا ، ذَلِكَ وَلَوْ يَشَاءُ اللَّهُ لَانْتَصَرَ مِنْهُمْ ، وَلَكِنْ لِيَبْلُوَ بَعْضَكُمْ بِبَعْضٍ ، وَالَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَلَنْ يُضِلَّ أَعْمَالَهُمْ (٤) سَيَهْدِيهِمْ وَيُصْلِحُ

بَالَهُمْ (٥) وَيُدْخِلُهُمُ الْجَنَّةَ عَرَّفَهَا لَهُمْ (٦) يَأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنْ تَنْصُرُوا اللَّهَ يَنْصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ (٧) وَالَّذِينَ كَفَرُوا فَتَعْسًا لَهُمْ وَأَضَلَّ أَعْمَالَهُمْ (٨) ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَرِهُوا مَا أَنْزَلَ اللَّهُ فَأَحْبَطَ أَعْمَالَهُمْ (٩) .

شرح المفردات

لقيتم من اللقاء : وهو الحرب ، فضرب الرقاب : أى فالقتل، وعبر به عنه تصويرا له بأشنع صورة وهو حزّ العنق و إطارة العضو الذى هو رأس البدن وأوجه أعضائه ومجمع حواسه ، و بقاء البدن ملقى على هيئة مستبشعة ، وفى ذلك من الغلظة والشدة ماليس فى لفظ القتل ، وأثخنتموهم : أى أكثرتم القتل فيهم ، فشدّوا الوثاق : أى فأسروهم ، والوثاق : (بالفتح والكسر): مايوثق به ، منًّا : أى إطلاقا من الأسر بالمجّان ، فداء : أى إطلاقا فى مقابلة مال أو غيره ، والأوزار فى الأصل : الأحمال و يراد بها آلات الحرب وأثقالها من السلاح والكُراع ، قال الأعشى :

وأعددت للحرب أوزارها رماحا طوالا وخيلا ذكورًا

ومن نسج داودَ موْضونةً تساق مع الحىّ عِيراً فعِيرًا

انتصر : أى انتقم ببعض أسباب الهلاك من خسف أو رجفة أو غرق ، ليبلو: أى ليختبر ، يضلّ : أى يضيع ، بالهم: أى شأنهم وحالهم ، عرّفها : أى بيّنها وأعلمها، إن تنصروا الله : أى تنصروا دينه ، يثبت أقدامكم : أى يوفقكم للدوام على طاعته ، فتعسًا لهم ،من قولهم : تعس (بفتح العين) الرجل تعسا : أى سقط على وجهه، وضده انتعش : أى قام من سقوطه ، ويقال تعسا ونُكْسا (بضم النون) : أى سقوطا على الوجه وسقوطا على الرأس ، أحبط أعمالهم : أى أبطلها .

المعنى الجملى

بعد أن ذكر فيما سلف أن الناس فريقان : أحدهما متبع للباطل، وهو حزب الشيطان ، وثانيهما متبع للحق ، وهو حزب الرحمن ـ ذكر هنا وجوب قتال الفريق الأول حتى يفيء إلى أمر الله ، ويرجع عن غيّه ، وتخضد شوكته .

الإيضاح

(فإذا لقيتم الذين كفروا فضرب الرقاب حتى إذا أثخنتموهم فشدوا الوثاق فإما منًّا بعدُ وإما فداء حتى تضع الحرب أوزارها) أى فإذا واجهتم المشركين فى القتال فاحصدوهم حصدا بالسيوف حتى إذا غلبتموهم وقهرتم من لم تضربوا رقابهم وصاروا فى أيديكم أسرى فشدوهم فى الوثاق ، كى لايقاتلوكم أو يهربوا منكم ، ثم أنتم بعد انتهاء الحرب وانتهاء المعارك — بالخيار فى أمرهم ، إن شئتم مننتم عليهم فأطلقتموهم بلا عوض من مال أو غيره ، وإن شئتم فاديتموهم بمال تأخذونه منهم وتشاطرونهم عليه — حتى لا يكون حرب مع المشركين ولا قتال ، بزوال شوكتهم .

ونحو الآية قوله تعالى « وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّى لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ الدِّينُ لِلَّهِ » .

قال ابن عباس رضى الله عنهما : لما كثر المسلمون واشتد سلطانهم أنزل الله تعالى فى الأسارى (فإما منًّا بعد وإما فداء) وكان عليه عمل رسول الله صلى الله عليه وسلم والخلفاء من بعده . روى البخارى عن أبى هريرة رضى الله عنه قال : « بعث النبى صلى الله عليه وسلم خيلا قِبَل نجد ، فجاءت برجل من بنى حَنيفة ، يقال له ثُمامة ابن أُثال ، فربطوه فى سارية من سوارى المسجد ، فخرج إليه رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقال ماعندك يا ثُمامة ؟ فقال : عندى خير ، إن تقتلنى تقتل ذا دم ، وإن تُنعم تنعم على شاكر ، وإن كنت تريد المال فسل ماشئت ، حتى كان الغد ، فقال له صلى الله عليه وسلم : ماعندك يا ثمامة ؟ قال عندى ماقلت لك ، قال : أطلقوا

ثمامة ، فانطلق إلى نخل قريب من المسجد فاغتسل ثم دخل المسجد فقال : أشهد أن لا إله إلا الله ، وأن محمدا رسول الله ، والله ما كان على وجه الأرض وجه أبغض إلىّ من وجهك ، فقد أصبح وجهك أحب الوجوه إلىّ، والله ما كان من دين أبغض إلىّ من دينك ، فأصبح دينك أحب الدين إلىّ ، والله ما كان من بلد أبغض إلىّ من بلدك ، فقد أصبح بلدك أحب البلاد إلىّ ، و إن خيلك أخذتنى وأنا أريد العمرة فماذا ترى ؟ فبشره رسول الله صلى الله عليه وسلم وأمره أن يعتمر ، فلما قدم مكة قال له قائل : صبوتَ ، قال لا ولكن أسلمتُ مع محمد صلى الله عليه وسلم .

وعن عمران بن حصين قال : أسر أصحابُ رسول الله صلى الله عليه وسلم رجلا من عَقِيل فأوثقوه ، وكانت ثقيف قد أسرت رجلين من أصحاب النبى صلى الله عليه وسلم ، ففداه رسول الله صلى الله عليه وسلم بالرجلين اللذين أسرتهما ثقيف .

واعلم أن للحرب فوائد ، وللسلم أخرى ، فالأمم فى حال الطفولة عقولها أشبه بعقول الشاب المراهق الذى لم يبلغ الحلم ، تراه يقاتل الصبيان و يشاجرهم و يوقع الأذى بهم وهم يزيدون فى أذاه ، و ينكلون به ، وهذه هى حال الأمم اليوم .

ألاَ إن الحرب تقوى الأبدان ، وترقى الصناعات ، وتجعل الأمم تنمو ، وتوقظ الشعور ، وتفتح المغلق ، وتيسر العسير ، قال أرسطو للإسكندر : إن الراحة مضرة للأمم ، ومن ثم قيل : إذا أردت رقىّ أمة فاجعلها تخوض الحروب ؛ فذلك يفتح لها باب السعادة ؛ والأمم النائمة على فراش الراحة الوثير معرّضة للزوال .

فإذا كملت أخلاق الأمم ومواهبها ، فإن نتائج السلم عندها ستكون كنتائج الحرب لدى مَن قبلها ، فكما يفرح الرجل فى الأمم الحاضرة بغلبة الأعداء وشفاء الغليل وجمع الرجال والسلاح والكُراع ، فسيكون فرح الأمم فيما بعد بمساعدة غيرها وانشراح صدورها بظهور أمم أخرى تكافح معها فى ميدان الحياة ، و يكون كل فرد فى الأمم المقبلة أشبه بالأب يكدح لمساعدة أبنائه . وهذا الكدح والجد فى العمل لفائدة الجميع يجد فيه العامل لذة وفرحا أشد من فرح المنتصر فى ميادين القتال .

إن الأمم لاتزال فى الطور الأول ، فهى تسعى لإسعاد نفسها بإهلاك سواها ، وسيأتى حين تسعى فيه لإسعاد الجميع ، ويكون فرحها بهذا المسعى أشد من فرحها بهزيمة الأعداء ويكون الناس جميعا بعضهم لبعض كالآباء والأبناء .

وإلى حال الكمال أشار سبحانه بقوله : (حتى تضع الحرب أوزارها) وإلى حال النقص أشار سبحانه بقوله :

(ذلك) أى هذا الذى أمرتكم به من قتل المشركين إن لقيتموهم فى حرب وشدّ وثاقهم فى أسرهم والمنّ والفداء حتى تضع الحرب أوزارها — هو الحق الذى أمركم به ربكم ، وهو السنة التى جرى عليها لإصلاح حال عباده ، وهى التى ستبقى السنة الطبيعية بين الأمم مادامت فى طور طفولتها ، حتى يتم نضجها العقلى والخلُقى فتضع الحرب أوزارها ، إذ لايكون هناك حاجة إليها، لأن العالم كله يكون كأسرة واحدة ، سعادته بسعادة أفراده جميعا ، وشقاؤه بشقائهم .

ثم بين أن هذه هى السنة التى أرادها الله من حرب المشركين ، ولو شاء لانتقم منهم بلا حرب ولا قتال ، فقال :

(ولو يشاء الله لانتصر منهم ولكن ليبلو بعضكم ببعض) أى ولو يشاء ربكم لانتصر من هؤلاء المشركين بعقوبة عاجلة ، وكفاكم أمرهم ، ولكنه أراد أن يبلو بعضكم ببعض فيختبركم بهم ، فيعلم المجاهدين منكم والصابرين ويبلوهم بكم ، فيعاقب بأيديكم من شاء ، ويتعظ منهم من شاء بمن أهلك بأيديكم حتى ينيب إلى الحق .

وفى الجهاد تقوية لأبدانكم ، ورقىّ لعقولكم ، ونفاذ لكلمتكم ، وجمع لشملكم بما ترون من اتحاد عدوكم ، وبه ترقى الزراعة والتجارة والصناعة وجميع العلوم ، إذ لايتم حرب ولا غلبة إلا بها ، وهكذا ترتقى حال الأعداء ، فيتسع العمران ، وتعم المدنية ، ويرقى النوع الإنسانى ، ولا يعيش فى هذا الوسط الصاخب إلا الصالح للبقاء ، والضعيف من الطرفين هالك ، وهذه هى سنة الله فى الكون .

ثم ذكر جزاء المجاهدين فى سبيل الله فقال :

(والذين قتلوا فى سبيل الله فلن يضل أعمالهم) أى والذين جاهدوا أعداء الله فى دين الله وفى نصرة ما بعث الله به رسوله صلى الله عليه وسلم من الهدى ، فلن يجعل أعمالهم التى عملوها فى الدنيا ضائعة سدى ؛ كما أذهب أعمال الكافرين وجعلها عديمة الجدوى .

روى أحمد أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: «يعطى الشهيد ست خصال. عند أول قطرة من دمه تكفّر عنه كل خطيئة ، ويرى مقعده من الجنة ، ويزوّج من الحور العين ، ويأمن من الفزع الأكبر ، ومن عذاب القبر ، ويحلّى حُلة الإيمان » .

وأخرج ابن جرير وابن أبى حاتم عن قتادة قال : ذكر لنا أن هذه الآية نزلت يوم أُحد ، ورسول الله صلى الله عليه وسلم فى الشِّعب ، وقد فشت فيهم الجراحات والقتل ، وقد نادى المشركون : اعْلُ هُبَل (أكبر أصنامهم) ونادى المسلمون : الله أعلى وأجلّ . وقال المشركون : يوم بيوم بدر والحرب سجال . فقال النبىّ صلى الله عليه وسلم : قولوا لاسواء . قتلانا أحياء عند ربهم يرزقون ، وقتلاكم فى النار يعذبون، فقال المشركون : إن لنا العُزّى ولا عُزّى لكم . فقال المسلمون : الله مولانا ولا مولى لكم » .

ثم فسر ماسلف بقوله :

(سيهديهم ويصلح بالهم . ويدخلهم الجنة عرّفها لهم) أى سيوفقهم الله للعمل بما يرضيه ويحبه ، ويصونهم مما يورث الضلال ، ويصلح شأنهم فى العقبى ، ويتقبل أعمالهم ، ويجعل لكل منهم مقرّا فى الجنة لايضل فى طلبه .

لاجرم أن لكل امرئ فى الحياة عملا يستوجب حالا فى الآخرة لايتعداها ، كما يحصل كل من نال إجازة فى علم أو صناعة على عمل يشاكل إجازته فى قوانين الدولة .

والناس فى الآخرة أشبه بأنواع السمك فى البحر الملح وأنواع الطير فى جوّ السماء لكل منها جوّ لاتتعداه ، هكذا لكل من الصالحين درجة فى الآخرة لايتعداها ، بل يجد نفسه مقهورا على البقاء فيها ؛ كما أن السمك منه ماهو قريب من سطح الماء ، ومنه مايوجد تحت سطح الماء بمئات الأمتار أو آلافها ، و إلى ذلك يشير قوله : « وَلِكُلٍّ دَرَجَاتٌ مِمَّا عَمِلُوا » .

أخرج عبد بن حميد وابن جرير عن مجاهد قال : يُهْدَى أهل الجنة إلى بيوتهم ومساكنهم ، وحيث قسم الله لهم منها ، لايخطئون ؛ كأنهم ساكنوها منذ خلقوا ، لايستدلون عليها .

وفى الخبر : « لأحدكم بمنزله فى الجنة أعرف منه بمنزله فى الدنيا » .

ثم وعدهم سبحانه بنصرهم على أعدائهم إذا نصروا دينه بقوله :

(يأيها الذين آمنوا إن تنصروا الله ينصركم ويثبت أقدامكم) أى إن تنصروا دين الله ينصركم على عدوكم ، ويثبت أقدامكم فى القيام بحقوق الإسلام ومجاهدة الكفار ، لتكون كلمة الله هى العليا ، وكلمة المشركين هى السفلى :

وبعد أن ذكر جزاء المجاهدين أعقبه بجزاء الكافرين فقال :

(والذين كفروا فتعساً لهم وأضل أعمالهم) أى والذين كفروا بالله وجحدوا توحيده نخزياً لهم وشقاء ، وأبطل الله أعمالهم وجعلها على غير هدى واستقامة ، لأنها عملت للشيطان ، لالطاعة للرحمن .

ثم بين سبب ذلك الإضلال فقال :

(ذلك بأنهم كرهوا ما أنزل الله فأحبط أعمالهم) أى ذلك الذى فعلنا بهم من التعس وإضلال الأعمال ، من أجل أنهم كرهوا كتابنا الذى أنزلناه على نبينا محمد

صلى الله عليه وسلم فكذبوا به وقالوا هو سحر مبين ، فمن ثم أحبط أعمالهم التى عملوها فى الدنيا وأصلاهم سعيرا .

وقصارى ذلك — إن كل ماعملوه فى الدنيا من صالح الأعمال فهو باطل ، لعدم الإيمان الذى هو أساس قبول الأعمال .

أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ دَمَّرَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَلِلْكَافِرِينَ أَمْثَالُهَا (١٠) ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ مَوْلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَأَنَّ الْكَافِرِينَ لَا مَوْلَى لَهُمْ (١١) إِنَّ اللَّهَ يُدْخِلُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ ، وَالَّذِينَ كَفَرُوا يَتَمَتَّعُونَ وَيَأْكُلُونَ كَمَا تَأْكُلُ الْأَنْعَامُ وَالنَّارُ مَثْوًى لَهُمْ (١٢) وَكَأَيِّنْ مِنْ قَرْيَةٍ هِيَ أَشَدُّ قُوَّةً مِنْ قَرْيَتِكَ الَّتِي أَخْرَجَتْكَ أَهْلَكْنَاهُمْ فَلَا نَاصِرَ لَهُمْ (١٣) أَفَمَنْ كَانَ عَلَى بَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّهِ كَمَنْ زُيِّنَ لَهُ سُوءُ عَمَلِهِ وَاتَّبَعُوا أَهْوَاءَهُمْ (١٤) .

المعنى الجملى

بعد أن نعى سبحانه على الكافرين مغبّة أعمالهم ، وأن النار مثوى لهم — أردف هذا أمرهم بالنظر فى أحوال الأمم السالفة ورؤية آثارها ، لما للمشاهدات الحسية من آثار فى النفوس ، ونتائج لدى ذوى العقول ، إذا تدبروها واعتبروا بها .

الإيضاح

(أفلم يسيروا فى الأرض فينظروا كيف كان عاقبة الذين من قبلهم) أى أفلم يسر هؤلاء المكذّبون محمدا صلى الله عليه وسلم ، المنكرون ما أنزلنا عليه من

الـكتاب — فى الأرض فيروا نقمة الله التى أحلها بالأمم الغابرة ، والقرون الخالية ، حين كذبوا رسلهم كعاد وثمود ، ويتعظوا بذلك ، ويحذروا أن نفعل بهم كما فعلنا بمن قبلهم .

ثم ذكر مافعله بهم فقال :

(دمّرالله عليهم) يقال دمّره: أهلكه ، ودمّرعليه: أهلك مايختص به ، أى أهلك مايختص بهم من الأهل والولد والمال ، أفلا يعتبر هؤلاء بما حل بمن قبلهم فيعلموا أن ما حاق بهم من سوء المنقلب — لابد أن يحل بهم مثله على حسب ماوضعه سبحانه من السنن فى الأمم المـكذبة لرسلها ، ولن تجد لسنة الله تبديلا ، وهذا ماعناه سبحانه بقوله :

(وللكافرين أمثالها) أى ولهؤلاء الكافرين السائرين سيرتهم أمثال هـذه العاقبة التى ترون آثارها .

ثم بيّن السبب فى حلول أمثال هذه العاقبة بهم فقال :

(ذلك بأن الله مولى الذين آمنوا ، وأن الكافرين لامولى لهم) أى هذا الذى فعله بهم من التدمير والهلاك ، ونصر المؤمنين وإظهارهم عليهم بسبب أن الله ولىّ من آمن به وأطاع رسوله ، وأن الكافرين لاناصر لهم ، فيدفع ماحل بهم من العقوبة والعذاب .

ونفى المولى عنهم هنا لايخالف إثباته فى قوله : « ثُمَّ رُدُّوا إِلَى اللهِ مَوْلاَهُمُ الْحَقِّ » لأن المراد به هناك المالك لأمورهم ، المتصرف فى شئونهم .

قال قتادة : نزلت يوم أُحد والنبى صلى الله عليه وسلم فى الشِّعب ، إذ صاح المشركون : يوم بيوم ، لنا العزّى ولا عُزّى لـكم ، فقال النبى صلى الله عليه وسلم « قولوا الله مولانا ولا مولى لـكم » وقد تقدم هذا برواية أخرى .

و بعد أن بين حالى المؤمنين والكافرين فى الدنيا، بيّن حاليهم فى الآخرة فقال :

(إن الله يدخل الذين آمنوا وعملوا الصالحات جنات تجرى من تحتها الأنهار) أى إن الله ذا الجلال والكمال يدخل يوم القيامة من آمنوا به وصدقوا رسوله وعملوا صالح الأعمال — بساتين تجرى من تحت قصورها الأنهار كرامة لكم على إيمانهم بالله ورسوله واليوم الآخر .

(والذين كفروا يتمتعون و يأكلون كما تأكل الأنعام) أى والذين جحدوا توحيد الله وكذبوا رسوله صلى الله عليه وسلم يتمتعون فى هذه الدنيا بحطامها ورياشها وزينتها الفانية ، و يأكلون فيها غير مفكرين فى عواقبهم ومنتهى أمورهم ، ولا معتبرين بما نصب الله لخلقه فى الآفاق والأنفُس من الحجج المؤدية إلى معرفة توحيده وصدق رسوله ، فمثلهم مثل البهائم تأكل فى معالفها ومسارحها ، وهى غافلة عما هى بصدده من النحر والذبح ، فكذلك هؤلاء يأكلون و يتلذذون وهم ساهون لاهون عن عذاب السعير .

(والنار مثوى لهم) أى ونار جهنم مسكن ومأوى لهم يصيرون إليها بعد مماتهم .

والخلاصة — إن المؤمنين عرفوا أن نعيم الدنيا ظل زائل فتركوا الشهوات ، وتفرغوا للصالحات ، فكانت عاقبتهم النعيم المقيم فى مقام كريم ، و إن الكافرين غفلوا عن ذلك فرتعوا فى الدِّمَن كالبهائم حتى ساقهم الخذلان ، إلى مقرهم من دَرَك النيران ، أعاذنا الله منها .

و بعد أن ضرب لهم المثل بقوله : « أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ » ولم يعتبروا به وذكر لهم ماتقدم من الأدلة على وحدانيته — ضرب المثل لنبيّه تسلية له عما يلاقى من عنت قومه وجحودهم فقال :

(وكأين من قرية هى أشد قوة من قريتك التى أخرجتك أهلكناهم فلا ناصر لهم) أى وكثير من الأمم التى كان أهلها أشد بأسا وأكثر جمعا ، وأعدّ عديدا من

أهل مكة الذين أخرجوك — أهلكناهم بأنواع العذاب ولم يجدوا ناصرا ولا معينا يدفع عنهم بأسنا وعذابنا ، فاصبر كما صبر قبلك أولو العزم من الرسل ، ولا تبخع نفسك عليهم حسرات ، فالله مظهرك عليهم، ومهلكهم كما أهلك من قبلهم إن لم ينيبوا إلى ربهم ، ويثوبوا إلى رشدهم .

وغير خافٍ ما فى هذا من التهديد الشديد ، والوعيد الأكيد لأهل مكة .

أخرج عبد بن حميد وأبو يعلى وابن أبى حاتم وابن مردويه عن ابن عباس «أن النبى صلى الله عليه وسلم لما خرج من مكة إلى الغار التفت إلى مكة وقال: أنتِ أحبّ بلاد الله إلىّ ، وأنتِ أحب بلاد الله إلىّ. ولولا أن أهلك أخرجونى لم أخرج منكِ، وأعدى الأعداء من عدا على الله فى حَرَمه ، أو قتل غير قاتله ، أو قتل بذُحول (ثارات) الجاهلية ، فأنزل الله سبحانه على نبيّه (وكأين من قرية) » الآية .

ثم ذكر الفارق بين حالى المؤمنين والكافرين والسبب فى كون هؤلاء فى أعلى عليين وأولئك فى أسفل سافلين ، فقال :

(أفمن كان على بيِّنة من ربه كمن زين له سوء عمله واتبعوا أهواءهم؟) أى أفمن كان على بصيرة ويقين فى أمر الله ودينه بما أنزله فى كتابه من الهدى والعلم ، وبما فطره الله عليه من الفطرة السليمة ، فهو على علم بأن له ربًّا يجازيه على طاعته إياه بالجنة ، وعلى إساءته ومعصيته إياه بالنار — كمن حسّن له الشيطان قبيح عمله ، وأراه إياه جميلا فهو على العمل به مقيم ، وعلى السير على نهجه دائب ، واتبع هواه وجمحت به شهواته فطفق يعدو فى المعاصى ، ويخُبّ فيها ويضع ، غير ملتفت إلى واعظ أو زاجر ؟

والخلاصة — أيستوى الفريقان. من كان ثابتا على حجة بينة من عند ربه وهى كتابه الذى أنزله على رسوله وسائر الحجج التى أقامها فى الآفاق والأنفس . ومن زين له الشيطان سيىء أعماله من الشرك وسائر المعاصى كإخراجك من قريتك ،

واتباع هواه من غير أن يكون له شبهة يركن إليها تعاضد مايدعيه ، وتطمئن إليها نفسه فى الدفاع عما يدين به ؟ كلا هما لا يستويان .

ونحو الآية قوله : « أَفَمَنْ يَعْلَمُ أَنَّ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ الْحَقُّ كَمَنْ هُوَ أَعْمَى » وقوله : « لَا يَسْتَوِي أَصْحَابُ النَّارِ وَأَصْحَابُ الْجَنَّةِ ، أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمُ الْفَائِزُونَ » .

مَثَلُ الْجَنَّةِ الَّتِي وُعِدَ الْمُتَّقُونَ فِيهَا أَنْهَارٌ مِنْ مَاءٍ غَيْرِ آسِنٍ ، وَأَنْهَارٌ مِنْ لَبَنٍ لَمْ يَتَغَيَّرْ طَعْمُهُ ، وَأَنْهَارٌ مِنْ خَمْرٍ لَذَّةٍ لِلشَّارِبِينَ ، وَأَنْهَارٌ مِنْ عَسَلٍ مُصَفًّى ، وَلَهُمْ فِيهَا مِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ ، وَمَغْفِرَةٌ مِنْ رَبِّهِمْ كَمَنْ هُوَ خَالِدٌ فِي النَّارِ ، وَسُقُوا مَاءً حَمِيمًا فَقَطَّعَ أَمْعَاءَهُمْ (١٥) .

شرح المفردات

مثل الجنة : أى صفتها ، آسن : أى متغير الطعم والريح لطول مكثه ، وفعله أسَن (بالفتح من بابى ضرب ونصر ، وبالكسر من باب علم) لذة تأنيث لذّ ، وهو اللذيذ ، مصفى : أى لم يخالطه الشمع ولا فضلات النحل ولم يمت فيه بعض نحله كعسل الدنيا ، حميا : أى حارًّا ، والأمعاء : واحدها معى (بالفتح والكسر) وهو ما فى البطون من الحوايا .

المعنى الجملى

بعد أن بين سبحانه الفارق بين الفريقين فى الاهتداء والضلال — ذكر الفارق بينهما فى مرجعهما ومآلهما ، فذكر ما للأولين من النعيم المقيم واللذات التى لايدركها

الإحصاء ، وما للآخرين من العذاب اللازب فى النار وشرب الماء الحارّ الذى يقطع الأمعاء .

الإيضاح

(مثل الجنة التى وعد المتقون) أى وصف الجنة التى وعدها الله من اتقى عقابه فأدى فرائضه واجتنب نواهيه — ماستسمعونه بعد .

ثم فسر هذه الصفة بقوله :

(١) (فيها أنهار من ماء غير آسن) أى فيها أنهار جارية من مياه غير متغيرة الطعم والريح لطول مكثها وركودها .

(٢) (وأنهار من لبن لم يتغير طعمه) أى لم يحمض ولم يصر قارصا ولا حازرا كألبان الدنيا ، وتغير الريح لايفارق تغير الطعم .

(٣) (وأنهار من خمر لذة للشاربين) أى وفيها أنهار من خمر لذيذة لهم ، إذ لم تدنسها الأرجل ، ولم ترنّقها (تكدرها) الأيدى كخمر الدنيا ، وليس فيها كراهة طعم وريح ، ولا غائلة سكر وخُمار كخمور الدنيا ، فلا يتكرهها الشاربون .

(٤) (وأنهار من عسل مصفى) أى وفيها أنهار من عسل قد صفى من القذى وما يكون فى عسل أهل الدنيا قبل التصفية من الشمَع وفُضالات النحل وغيرها .

وبدئ بالماء لأنه لايستغنى عنه فى الدنيا ، ثم باللبن لأنه يجرى مجرى المطعوم لكثير من العرب فى غالب أوقاتهم ، ثم بالخمر لأنه إذا حصل الرىّ والشبَع تشوفت النفس لما يستلذ به ، ثم بالعسل لأن فيه الشفاء فى الدنيا مما يعرض من المشروب والمطعوم.

أخرج أحمد والترمذى وصححه وابن المنذر وابن مردويه والبيهقى عن معاوية ابن حيدة قال : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: « فى الجنة بحر اللبن ، وبحر الماء ، وبحر العسل ، وبحر الخمر ثم تشقق الأنهار منها بعد » .

(٥) (ولهم فيها من كل الثمرات) أى ولهم فيها أنواع من الثمار المختلفة الطعوم والروائح والأشكال .

(٦) (ومغفرة من ربهم) فهو يرضى عنهم بما أسلفوا من عمل ، ويتجاوز عن هفواتهم التى اقترفوها فى الدنيا .

وبعد أن ذكر ماوعد به المتقين من النعيم — ذكر ما أوعد به الكافرين من العذاب الأليم فقال :

(١) (كمن هو خالد فى النار) أى أم من هو خالد فى الجنة على حسب ماجرى به الوعد كمن هو خالد فى النار كما نطق به الكتاب فى قوله : « وَالنَّارُ مَثْوًى لَهُمْ » أى ليس هؤلاء كأولئك فليس من هو فى الدرجات العلى ، كمن هو فى الدركات السفلى .

(٢) (وسقوا ماء حميما فقطع أمعاءهم) أى وسقوا ماء حارا لايستساغ ، وإذا دنوا منه شوى وجوههم وقطّع أمعاءهم .

وَمِنْهُمْ مَنْ يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ حَتَّى إِذَا خَرَجُوا مِنْ عِنْدِكَ قَالُوا لِلَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ مَاذَا قَالَ آنِفًا ؟ أُولَئِكَ الَّذِينَ طَبَعَ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ وَاتَّبَعُوا أَهْوَاءَهُمْ (١٦) وَالَّذِينَ اهْتَدَوْا زَادَهُمْ هُدًى وَآتَاهُمْ تَقْوَاهُمْ (١٧) فَهَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا السَّاعَةَ أَنْ تَأْتِيَهُمْ بَغْتَةً فَقَدْ جَاءَ أَشْرَاطُهَا فَأَنَّى لَهُمْ إِذَا جَاءَتْهُمْ ذِكْرَاهُمْ ؟ (١٨) فَاعْلَمْ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَاسْتَغْفِرْ لِذَنْبِكَ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ ، وَاللَّهُ يَعْلَمُ مُتَقَلَّبَكُمْ وَمَثْوَاكُمْ (١٩) .

شرح المفردات

آنفاً : أى قبيل هذا الوقت، مأخوذ من أنْف الشيء لما تقدم منه ، وأصل ذلك الأنف بمعنى الجارحة ثم سمى به طرَف الشيء ومقدمه وأشرفه ، آتاهم : أى ألهمهم ، بغتة : أى فجأة ، والأشراط : العلامات ، واحدها شرط (بالسكون والفتح) ومنه أشراط الساعة ، قال أبو الأسود الدؤلى :

فإن كنتِ قد أزمعتِ بالصَّرْم بيننا فقــد جعلتْ أشراط أوله تبدو

فأنى لهم : أى كيف لهم ، ذكراهم : أى تذكرهم ، متقلبكم : أى تقلبكم لأشغالكم فى الدنيا ، ومثواكم : أى مأواكم فى الجنة أو النار .

المعنى الجملى

بعد أن ذكر حال المشركين وبين سوء مغبتهم — أردف هذا بيان أحوال المنافقين الذين كانوا يحضرون مجلس رسول الله صلى الله عليه وسلم فيسمعون كلامه ولا يعونه تهاونا واستهزاء به حتى إذا خرجوا من عنده قالوا للواعين من الصحابة : ماذا قال قبل افتراقنا وخروجنا من عنده؟ — وهؤلاء قد طبع الله على قلوبهم واتبعوا أهواءهم ، ومن ثم تشاغلوا عن سماع كلامه ، وأقبلوا على جمع حطام الدنيا ، ثم أعقبه بذكر حال من اهتدوا، وألهمهم ربهم مايتقون به النار ، ثم عنّف أولئك المكذبين وذكر أن عليهم أن يرعووا قبل أن تجىء الساعة التى بدت علاماتها بمبعث محمد صلى الله عليه وسلم والذكرى لاتنفع حينئذ . ثم أمر رسوله صلى الله عليه وسلم بالثبات على ماهو عليه من وحدانية الله وإصلاح نفسه بالاستغفار من ذنبه ، والدعاء للمؤمنين والمؤمنات ، والله هو العليم بتصرفكم فى الدنيا ومصيركم إلى الجنة أو النار فى الآخرة .

الإيضاح

(ومنهم من يستمع إليك حتى إذا خرجوا من عندك قالوا للذين أوتوا العلم ماذا قال آنفاً ؟) أى ومن الناس منافقون يستمعون فلا يعُون ماتقول ، ولا يفهمون ماتتلو عليهم من كتاب ربك ، تغافلا عما تدعو إليه من الإيمان حتى إذا خرجوا من عندك قالوا لمن حضر مجلسك من أهل العلم بكتاب الله: ماذا قال محمد قبل أن نفارق مجالسه؟.

وما مقصدهم من ذلك إلا السخرية والاستهزاء بما يقول ، وأنه مما لاينبغى أن يُؤْبه به ، أو يلقى لمثله سمع .

روى مقاتل أن النبى صلى الله عليه وسلم كان يخطب ويعيب المنافقين ، فإذا خرجوا من المسجد سألوا عبد الله بن مسعود ، استهزاء : ماذا قال محمد آنفاً ؟ قال ابن عباس : وقد سئلت فيمن سئل .

ثم بين سبب استهزائهم وتهاونهم بما سمعوا فقال :

(أولئك الذين طبع الله على قلوبهم واتبعوا أهواءهم) أى هؤلاء الذين هذه صفتهم — هم الذين ختم الله على قلوبهم ، فلا يهتدون للحق الذى بعث الله به رسوله صلى الله عليه وسلم ، واتبعوا شهواتهم وما دعتهم إليه أنفسهم ، فلا يرجعون إلى حجة ولا برهان .

ثم ذكر سبحانه أضداد هؤلاء بقوله :

(والذين اهتدوا زادهم هدًى وآتاهم تقواهم) أى والذين اهتدوا بالإيمان واستماع القرآن زادهم الله بصيرة وعلماً وشرح صدورهم ، وألهمهم رشدهم ، وأعانهم على تقواه .

ثم بيّن أنهم فى غفلة عن النظر والتأمل فى عاقبة أمرهم فقال :

(فهل ينظرون إلا الساعة أن تأتيهم بغتة فقد جاء أشراطها) أى إنه بعد أن قامت الأدلة على وحدانيـة الله وصدق نبوّة رسوله وأن البعث حق وأن الله يهلك

من كذب رسله ويحل بهم الوبال والنكال كما شاهدوا ذلك فيمن حولهم من الأمم التى أهلها الله لتكذيب رسلها ، ولم يبق منها إلا آثارها ، ولم يفدهم كل ذلك شيئا ولم يتعظوا ولم يؤمنوا — فماذا ينتظرون للعظة والاعتبار ؟ لا ينتظرون إلا أن تأتيهم الساعة بغتة إذ جاءت علامتها ، ولم يبق من الأمور الموجبة للتذكر والعظة للإيمان بالله سوى ذلك .

والخلاصة — إن البراهين قد نصبت ، والأدلة قد وضحت على وجوب الإيمان بالله ، وصدق رسوله ، والبعث والنشور ، وهم لم يؤمنوا — فلا يتوقع منهم إيمان بعدئذ إلا حين مجىء الساعة بغتة ، وها هى ذى أشراطها قد ظهرت ، ومقدماتها قد بدأت ، ولم يأبهوا بها ، ولا فكروا فى أمرها ، والمراد بيان أنهم بلغوا الغاية فى العناد ، والنهاية فى الاستكبار .

ثم أظهر خطأهم ، وحكم بأن رأيهم آفنٌ فى تأخيرهم التذكر إلى قيام الساعة ، ببيان أن التذكر لا يجدى نفعا حينئذ فقال :

(فأنى لهم إذا جاءتهم ذكراهم؟) أى فمن أين لهم التذكر إذا جاءتهم الساعة ؟ فإن الذكرى لا تنفع حينئذ ، ولا تقبل التوبة ، ولا ينفع الإيمان .

ونحو الآية قوله : « يَوْمَئِذٍ يَتَذَكَّرُ الْإِنْسَانُ وَأَنَّى لَهُ الذِّكْرَى » .

وبعد أن أبان أن الذكرى لا تنفع إذا انقضت هذه الدار التى جعلت للعمل — أمر رسوله بالثبات على ماهو عليه ، والاستغفار ، لأتباعه فقال :

(فاعلم أنه لا إله إلا الله واستغفر لذنبك وللمؤمنين والمؤمنات) أى إذا علمت سعادة المؤمنين وعذاب الكافرين ، فاستمسك بما أنت عليه من موجبات السعادة، واستكمل حظوظ نفسك بالاستغفار من ذنبك (وذنوب الأنبياء أن يتركوا ما هو الأولى بمنصبهم الجليل) وتوجه بالدعاء والاستغفار لأتباعك من المؤمنين والمؤمنات .

وفى الحديث الصحيح أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان يقول : « اللهم

اغفرلى خطيئتى وجهلى وإسرافى فى أمرى وما أنت أعلم به منى ، اللهم اغفرلى هزلى وجِدّى ، وخطئى وعمدى ، وكل ذلك عندى » .

وثبت أنه كان يقول فى آخر الصلاة : « اللهم اغفرلى ما قدمت وما أخرت ، وما أسررت وما أعلنت ، وما أسرفت وما أنت أعلم به منى ، أنت إلهى لا إله إلا أنت » .

وجاء أيضا أنه قال « أيها الناس توبوا إلى ربكم ، فإنى أستغفر الله وأتوب إليه فى اليوم أكثر من سبعين مرة » .

وعن أبى بكر الصديق رضى الله عنه عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه قال : « عليكم بلا إله إلا الله والاستغفار ، فأكثروا منهما ، فإن إبليس قال : إنما أهلكت الناس بالذنوب ، وأهلكونى بلا إله إلا الله والاستغفار ، فلما رأيت ذلك أهلكتهم بالأهواء فهم يحسبون أنهم مهتدون » .

وفى الأثر المروى « قال إبليس وعزتك وجلالك لاأزال أغويهم مادامت أرواحهم فى أجسادهم ، فقال الله عز وجل « وعزتى وجلالى لاأزال أغفر لهم ما استغفرونى »» .

ثم رغبهم سبحانه فى امتثال ما يأمرهم به ، ورهبهم عما ينهاهم عنه فقال :

(والله يعلم متقلبكم ومثواكم) أى والله يعلم تصرفكم فى نهاركم ومستقركم فى ليلكم ، فاتقوا الله واستغفروه ، فهو جدير بأن يُتقى ويُخشى ، وأن يُستغفر ويُسترحم .

ونحو الآية قوله : « وَهُوَ الَّذِى يَتَوَفَّاكُمْ بِاللَّيْلِ وَيَعْلَمُ مَا جَرَحْتُمْ بِالنَّهَارِ » وقوله : « وَمَا مِنْ دَابَّةٍ فِى الْأَرْضِ إِلَّا عَلَى اللهِ رِزْقُهَا وَيَعْلَمُ مُسْتَقَرَّهَا وَمُسْتَوْدَعَهَا كُلٌّ فِى كِتَابٍ مُبِينٍ » .

وَيَقُولُ الَّذِينَ آمَنُوا لَوْلَا نُزِّلَتْ سُورَةٌ، فَإِذَا أُنْزِلَتْ سُورَةٌ مُحْكَمَةٌ وَذُكِرَ فِيهَا الْقِتَالُ رَأَيْتَ الَّذِينَ فِى قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ يَنْظُرُونَ إِلَيْكَ نَظَرَ

الْمَغْشِيِّ عَلَيْهِ مِنَ الْمَوْتِ فَأَوْلَى لَهُمْ (٢٠) طَاعَةٌ وَقَوْلٌ مَعْرُوفٌ ، فَإِذَا عَزَمَ الْأَمْرُ فَلَوْ صَدَقُوا اللَّهَ لَكَانَ خَيْرًا لَهُمْ (٢١) فَهَلْ عَسَيْتُمْ إِنْ تَوَلَّيْتُمْ أَنْ تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ وَتُقَطِّعُوا أَرْحَامَكُمْ (٢٢) أُولَئِكَ الَّذِينَ لَعَنَهُمُ اللَّهُ فَأَصَمَّهُمْ وَأَعْمَى أَبْصَارَهُمْ (٢٣) .

شرح المفردات

لولا: كلمة تفيد الحثّ على حصول مابعدها ، أى هلا أنزلت سورة فى أمر الجهاد ، محكمة: أى بيّنة واضحة لااحتمال فيها لشئ آخر، مرض: أى ضعف ونفاق ، نظر المغشىّ عليه من الموت : أى كما ينظر المصروع الذى لايطرف بصره ، جبنًا منهم وهلعا ، أولى لهم : أى فويل لهم، وهو من الوَلْى بمعنى القرب، والمراد الدعاء عليهم بأن يليهم المكروه ويقرب منهم ، عزم الأمر: أى جَدّ أولو الأمر ، عسى كلمة تدل على توقع حصول مابعدها ، توليتم: أى توليتم أمور الناس . وتأمرتم عليهم .

المعنى الجملى

بعد أن ذكر عزّ اسمه حال المنافقين والكافرين والمؤمنين حين استماع آيات التوحيد والحشر والبعث وغيرها من الأمور التى أوجب الدين علينا اعتقادها بقوله فيما سلف « وَمِنْهُمْ مَنْ يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ » وقوله « وَالَّذِينَ اهْتَدَوْا زَادَهُمْ هُدًى » — أردف هذا فذكر حالهم فى الآيات العملية كآيات الجهاد والصلاة والزكاة ونحوها ، فأبان أن المؤمنين كانوا ينتظرون مجيئها ويرجون نزولها ، وإذا تأخرت كانوا يقولون : هلا أمرنا بشىء من ذلك ، لينالوا مايقربهم من ربهم ويحصلوا على رضوانه ، والزلفى إليه ، وأن المنافقين كانوا إذا نزل شىء من تلك التكاليف شق عليهم ونظروا نظرة المصروع الذى يشخص بصره خوفا وهلعا . ثم ذكر نتيجة لما سلف ، وفذلكة

لما تقدم، فأعقب هذا بأن الله طرد المنافقين وأبعدهم من الخير، ومن قبل هذا أصمهم فلا يسمعون الكلام المستبين ، وأعمى أبصارهم فلا يسيرون على الصراط المستقيم ، أما المؤمنون فقد رضى الله عنهم وأرضاهم ، ونالوا محبته ، ودخلوا جنته ، فضلا منه ورحمة ، والله ذو الفضل العظيم .

الإيضاح

(ويقول الذين آمنوا لولا نزلت سورة ، فإذا أنزلت سورة محكمة وذكر فيها القتال رأيت الذين فى قلوبهم مرض ينظرون إليك نظر المغشىّ عليه من الموت) أى إن المؤمنين المخلصين فى إيمانهم يشتاقون للوحى، ونزول آيات الجهاد حرصا على ثوابه ويقولون : هلا أنزلت سورة تأمرنا به ، فإذا أنزلت سورة واضحة الدلالة فى الأمر به فرحوا بها ، وشق ذلك على المنافقين ، وشخصت أبصارهم هلعا وجبنا من لقاء العدو ونظروا مغتاظين بتحديد وتحديق كمن يشخص بصره حين الموت .

ونحو الآية قوله « أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ قِيلَ لَهُمْ كُفُّوا أَيْدِيَكُمْ وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ ، فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقِتَالُ إِذَا فَرِيقٌ مِنْهُمْ يَخْشَوْنَ النَّاسَ كَخَشْيَةِ اللهِ أَوْ أَشَدَّ خَشْيَةً ، وَقَالُوا رَبَّنَا لِمَ كَتَبْتَ عَلَيْنَا الْقِتَالَ ؟ لَوْلَا أَخَّرْتَنَا إِلَى أَجَلٍ قَرِيبٍ » .

ثم هددهم وتوعدهم فقال :

(وأولى لهم) أى فالموت أولى لمثل هؤلاء المنافقين ، إذ حياتهم ليست فى طاعة الله ، فالموت خير منها ، وقد يكون المعنى على التهديد والوعيد والدعاء عليهم بالهلاك ، فكأنه قيل : أهلكهم الله هلاكا أقرب لهم من كل شر وهلاك ، فهو نحو قولهم فى الدعاء « بُعْدًا له وسُحْقًا » .

قال الأصمعي معناه : قاربه ما يهلكه أى نزل به ، وأنشد :

فعادَى بين هادِيَتَين منها وأولى أن يزيد على الثلاث

أى قارب أن يزيد .

(طاعة وقول معروف) أى طاعة لله وقول معروف أمثل لهم وأحسن مما هم فيه من الهلع والجزع والجبن من لقاء العدو ، فمتاع الحياة الدنيا متاع قليل وظل زائل والآخرة خير لمن اتقى .

(فإذا عزم الأمر فلو صدقوا الله لكان خيرا لهم) أى فإذا حضر القتال كرهوه وتخلفوا عنه خوفا وفرَقًا ، ولو صدقوا فى إيمانهم واتباعهم للرسول ، وأخلصوا النية فى القتال لكان خيرا لهم عند ربهم ، إذ ينالون الثواب والزلفى عند ربهم ويعطيهم ما تقرّ به أعينهم ويدخلهم جنات النعيم .

ثم خاطب أولئك المنافقين خطاب توبيخ وتأنيب فقال :

(فهل عسيتم إن توليتم أن تفسدوا فى الأرض وتقطعوا أرحامكم) أى لعلكم لما عهد فيكم من الحرص على الدنيا وزخرفها « إذ قد أمرتم بالجهاد الذى هو الوسيلة إلى الثواب فكرهتموه ، وظهر عليكم ماظهر من الخوف والهلع والتشبث بالبقاء فى هذه الحياة والتكالب على زينتها » إن أنتم توليتم أمور الناس وصرتم عليهم أمراء أن تفسدوا فى الأرض بالبغى وسفك الدماء ، وتقطعوا أرحامكم فتعودوا إلى تباغض الجاهلية من إغارة بعضكم على بعض ونهب الأموال وسفك الدماء .

والخلاصة — إنه لاعجب بعد أن صدر منكم ماصدر من كراهة الدفاع عن حوزة الإسلام — أن تعيدوا أحوال الجاهلية جزَعة إذا صرتم أمراء الناس وولاتهم.

وبعد أن ذكر هناتهم بين سببها فقال :

(أولئك الذين لعنهم الله فأصمهم وأعمى أبصارهم) أى فهؤلاء هم الذين أبعدهم الله من رحمته ، فأصمهم عن الانتفاع بما سمعوا ، وأعمى أبصارهم عن الاستفادة

مما شاهدوا من الآيات المنصوبة فى الأنفس والآفاق ، فلم يكن سماعهم سماع إدراك ، ولا إبصارهم إبصار اعتبار .

عن أبى هريرة قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « إن الله تعالى خلق الخلق حتى إذا فرغ منهم قامت الرحم فأخذت بحقو الرحمن فقال مَهْ ، قالت هـذا مقام العائذ بك من القطيعة ، قال نعم ؛ أما ترضَيْن أن أصل من وصلكِ وأقطع من قطعكِ ، قالت بلى ، قال : فذلكِ لكِ ، ثم قال رسول الله صلى الله عليه وسلم اقرءوا إن شئتم (فَهَلْ عَسَيْتُمْ) الآية» . أخرجه البخارى ومسلم وغيرهما ، وقد ورد أحاديث كثيرة فى صلة الرحم .

أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ أَمْ عَلَى قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا (٢٤) إِنَّ الَّذِينَ ارْتَدُّوا عَلَى أَدْبَارِهِمْ مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ الْهُدَى ، الشَّيْطَانُ سَوَّلَ لَهُمْ وَأَمْلَى لَهُمْ (٢٥) ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا لِلَّذِينَ كَرِهُوا مَا نَزَّلَ اللَّهُ سَنُطِيعُكُمْ فِي بَعْضِ الْأَمْرِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ إِسْرَارَهُمْ (٢٦) فَكَيْفَ إِذَا تَوَفَّتْهُمُ الْمَلَائِكَةُ يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ وَأَدْبَارَهُمْ (٢٧) ذَلِكَ بِأَنَّهُمُ اتَّبَعُوا مَا أَسْخَطَ اللَّهَ وَكَرِهُوا رِضْوَانَهُ فَأَحْبَطَ أَعْمَالَهُمْ (٢٨) أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ أَنْ لَنْ يُخْرِجَ اللَّهُ أَضْغَانَهُمْ (٢٩) وَلَوْ نَشَاءُ لَأَرَيْنَاكَهُمْ فَلَعَرَفْتَهُمْ بِسِيمَاهُمْ وَلَتَعْرِفَنَّهُمْ فِي لَحْنِ الْقَوْلِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ أَعْمَالَكُمْ (٣٠) وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ حَتَّى نَعْلَمَ الْمُجَاهِدِينَ مِنْكُمْ وَالصَّابِرِينَ وَنَبْلُوَ أَخْبَارَكُمْ (٣١) .

شرح المفردات

يتدبرون القرآن : أى يتصفحون مافيه من المواعظ والزواجر حتى يقلعوا عن الوقوع فى الموبقات ، ارتدوا على أدبارهم : أى رجعوا إلى ما كانوا عليه من الكفر، سوّل لهم : أى سهل لهم وزيّن ، وأملى لهم : أى مدّ لهم فى الأمانى والآمال ، يضربون وجوههم وأدبارهم : أى يتوفونهم وهم على أهول الأحوال وأفظعها ، والأضغان : واحدها ضغن، وهو الحقد الشديد ، وتضاغن القوم واضطغنوا إذا أبطنوا الأحقاد ، قال :

قل لابن هندٍ ما أردتَ بمنْطِقٍ ساء الصديق وشيّد الأضغانا ؟

لأريناكهم : أى لعرّفناكهم ، والسيمى : العلامة ، ولحن القول : أسلوبه بإمالته عن وجهه من التصريح إلى التعريض والتورية ، ولنبلونّكم : أى لنختبرنّكم .

المعنى الجملى

بعد أن ذكر أن أولئك المنافقين أبعدهم الله عن الخير فأصمهم فلم ينتفعوا بما سمعوا ، وأعمى أبصارهم فلم يستفيدوا بما أبصروا — بين أن حالهم دائرة بين أمرين : إما أنهم لايتدبرون القرآن إذا وصل إلى قلوبهم ، أو أنهم يتدبرون ولكن لاتدخل معانيه فى قلوبهم لكونها مقفلة ؛ ثم ذكر أنهم رجعوا إلى الكفر بعد أن تبين لهم الهدى بالدلائل الواضحة ، والمعجزات الباهرة ، وقد زين لهم الشيطان ذلك وخدعهم بباطل الأمانى ، ثم بين سبب ارتدادهم وهو قولهم لبنى قُرَيظة والنَّضِير من اليهود : سنطيعكم فى بعض أحوالكم وهو ماحكى عنهم فى قوله : « أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ نَافَقُوا يَقُولُونَ لِإِخْوَانِهِمُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَئِنْ أُخْرِجْتُمْ لَنَخْرُجَنَّ مَعَكُمْ وَلَا نُطِيعُ فِيكُمْ أَحَدًا أَبَدًا وَإِنْ قُوتِلْتُمْ لَنَنْصُرَنَّكُمْ » والله يعلم ما يصدر عنهم من كل قبيح .

ثم أردف هذا بذكر مايصادفونه من الأهوال إذا جاءتهم الملائكة لقبض أرواحهم بسبب اتباعهم أهواءهم وعمل مايغضب ربّهم ، ومن ثم أحبط أعمالهم ، وهل يعتقد هؤلاء المنافقون أن الله لا يكشف أمرهم لعباده المؤمنين؟ بلى إنه سيوضح ذلك لذوى البصائر ، ولو نشاء لأريناك أشخاصهم فعرفتهم عيانا ، ولكن لم نفعل ذلك، ستراً منا على عبادنا وحملا للأمور على ظاهر السلامة ، وردًّا للسرائر إلى عالمها ، وإنك لتعرفنّهم فيما يبدو من كلامهم الدالّ على مقاصدهم بمغامز يضعونها أثناء حديثهم ، وقد كان يفهمها رسول الله صلى الله عليه وسلم ويفهم مراميها فلا تخفى عليه .

ثم ذكر أنه يبتلى عباده بالجهاد وغيره ليعلم الصادق فى إيمانه ، الصابر على مشاق التكاليف من غيره ، ويختبر أعمالهم حسنها وسيئها فيجازيهم بما قدموا « فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ . وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ » .

الإيضاح

(أفلا يتدبرون القرآن أم على قلوب أقفالها ؟) أى أفلا يتدبر هؤلاء المنافقون مواعظ الله التى وعظ بها فى آى كتابه ، ويتفكرون فى حججه التى بيّنها فى تنزيله فيعلموا خطأ ماهم عليه مقيمون ، أم هم قد أقفل الله على قلوبهم فلا يعقلون ما أنزل فى كتابه من العبر والمواعظ ؟ .

والخلاصة — إنهم بين أمرين كلاهما شر ، وكلاهما فيه الدمار والمصير إلى النار ، فإما أنهم يعقلون ولا يتدبرون ، أو أنهم سلبوا العقول فهم لايعون شيئا .

ولما أخبر بإقفال قلوبهم بيّن منشأ ذلك فقال :

(إن الذين ارتدوا على أدبارهم من بعد ماتبين لهم الهدى الشيطان سوّل لهم وأملى لهم) أى إن الذين رجعوا القهقرى على أعقابهم كفاراً من بعد ماتبين لهم الهدى

وقصد السبيل ، فعرفوا واضح الحجج ثم آثروا الضلال على الهدى عنادا لأمر الله ــ الشيطان زين لهم ذلك وخدعهم بالآمال ، وحسّن لهم مافى الدنيا من لذة يتمتعون بها إلى حين ثم يعودون كما كانوا مؤمنين ، إلى نحو ذلك من وساوسه التى لاتدخل تحت الحصر ، ولا يبلغها العدّ .

ثم ذكر كيف إنهم ضلوا فقال :

(ذلك بأنهم قالوا للذين كرهوا مانزل الله سنطيعكم فى بعض الأمر والله يعلم إسرارهم) أى ذلك الضلال من قِبَل أنهم مالئوا اليهود من بنى قريظة والنضير وناصحوهم سرا على المؤمنين كما هو شأن المنافقين فى كل زمان . والله يعلم مايسرون وما يخفون وهو مطلع عليهم وعالم بهم .

ولا يخفى ما فى ذلك من الوعيد وشديد التهديد

ونحو الآية قوله : « وَاللهُ يَكْتُبُ مَايُبَيِّتُونَ » .

ثم ذكر أن هذه الحيل إن أجدت فى حياتهم فماذا هم فاعلون حين وفاتهم فقال:

(فكيف إذا توفتهم الملائكة يضربون وجوههم وأدبارهم) أى فكيف يفعلون إذا جاءتهم ملائكة الموت لقبض أرواحهم على أقبح الوجوه وأفظعها ، وقد مثل ذلك بحال يخافونها فى الدنيا ، ويجبنون عن القتال من أجلها ، وهو الضرب على الوجوه والأدبار ، إذ فى يوم الوفاة لانصرة لهم ولا مفرّ ، فكيف يحترزون من الأذى ، ويبتعدون من العذاب .

ثم بين سبب التوفى على تلك الحال الشنيعة فقال :

(ذلك بأنهم اتبعوا ما أسخط الله وكرهوا رضوانه فأحبط أعمالهم) أى ذلك الهول الذى يرونه من أجل أنهم انهمكوا فى المعاصى وزُينت لهم الشهوات ، وكرهوا مايرضى الله من الإيمان به والعمل على طاعته والإخلاص له فى السر والعلن ، فأحبط ماعملوه من البر والخير كالصدقات والأخذ بيد الضعيف ومساعدة البائس الفقير

وإغاثة الملهوف إلى نحو أولئك ، إذ هم فعلوه وهم مشركون فلم تكن لله ولا بأمره ، بل بأمر الشيطان للفخر وحسن الأحدوثة بين الناس .

ثم بالغ فى توبيخ المنافقين وإظهار خباياهم ، وإعلان نواياهم فقال :

(أم حسب الذين فى قلوبهم مرض أن لن يخرج الله أضغانهم) أى أم يعتقد أولئك المنافقون الذين فى قلوبهم حقد وعداوة للمؤمنين أن الله لا يكشف أستارهم ويبرز أحقادهم ، بلى سيبرزها للرسول صلى الله عليه وسلم وللمؤمنين فلا تبقى مستورة، وقد أنزل الله فى فضائحهم وما يبطنون من الأفعال سورة براءة ، ولذا تسمى الفاضحة كقوله فيهم : « وَلَا تُصَلِّ عَلَى أَحَدٍ مِنْهُمْ مَاتَ أَبَدًا وَلَا تَقُمْ عَلَى قَبْرِهِ » وقوله : « قُلْ لَنْ تَخْرُجُوا مَعِيَ أَبَدًا وَلَنْ تُقَاتِلُوا مَعِيَ عَدُوًّا » .

ثم أكد ما فهم من سالف الكلام وأنه سيظهرها فقال :

(ولو نشاء لأريناكهم فلعرفتهم بسيماهم) أى ولو نشاء أيها الرسول لعرّفناك أشخاصهم ، فعرفتهم عيانا بعلامات هى غالبة عليهم ، ولكنه لم يفعل ذلك فى جميع المنافقين للستر على خلقه ، وردًّا للسرائر إلى عالمها ، وحرصا على ألا يؤذى ذوى قرباهم من المخلصين .

(ولتعرفنهم فى لحن القول) أى ولتعرفنهم فيما يداورونه من القول فيعدلون عن التصريح بمقاصدهم إلى التعريض والإشارة ، وإياه عنى القائل فى مدح محبوبته فقال :

منطق صائب وتلحن أحيا		نا وخير الحديث ما كان لحنا

يريد أنها تتكلم بشىء وتريد غيره وتعرّض فى حديثها فتزيله عن جهته ، لفطنتها وذكائها .

وقد كانوا يخاطبون الرسول صلى الله عليه وسلم بألفاظ ظاهرها الحسن وهم يعنون بها القبيح . قال الكلبى : فلم يتكلم بعد نزولها عند النبى صلى الله عليه وسلم منافق

إلا عرفه ، وقال أنس : فلم يخف منافق بعد هذه الآية على رسول الله صلى الله عليه وسلم ، عرّفه الله ذلك بوحى أو علامة عرفها بتعريف الله إياه .

وفى الحديث : « ما أسرّ أحد سريرة إلا كساه الله جلبابها ، إن خيراً فخير ، وإن شراً فشر » .

وروى أن أمير المؤمنين عثمان بن عفان قال : ما أسر أحد سريرة إلا أبداها الله على صفحات وجهه وفلتات لسانه .

وقد ثبت فى الحديث تعيين جماعة من المنافقين ، فقد روى أحمد عن عقبة ابن عامر قال : « خطبَنا رسول الله صلى الله عليه وسلم خطبة فحمد الله وأثنى عليه ثم قال : إن فيكم منافقين فمن سميتُ فليقم ، ثم قال : قم يا فلان ، قم يا فلان ، قم يافلان حتى سمى ستة وثلاثين رجلا ، ثم قال : إن فيكم منافقين فاتقوا الله ، قال فمرّ عمر رضى الله عنه برجل ممن سمى مقنَّعٍ قد كان يعرفه ، فقال مالك ؟ فحدثه بما قال رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقال بُعْدًا لك سائر الدهر » .

ثم وعد سبحانه وأوعد و بشر وأنذر فقال :

(والله يعلم أعمالكم) فيجازيكم بما قدمتم من خير أو شر ، إذ لايضيع عمل عامل عدلاً منه ورحمة .

(ولنبلونكم حتى نعلم المجاهدين منكم والصابرين ونبلو أخباركم) أى ولنختبرنكم بالأمر بالجهاد وسائر التكاليف الشاقة حتى يتميز المجاهد الصابر من غيره ، ويُعرَف ذو البصيرة فى دينه من ذى الشك والحيْرة فيه ، والمؤمن من المنافق ، ونبلو أخباركم فنعرف الصادق منكم فى إيمانه من الكاذب .

قال إبراهيم بن الأشعث : كان الفُضَيل بن عياض إذا قرأ هذه الآية بكى وقال : اللهم لاتبتلنا فإنك إذا بلوتنا فضحتنا وهتكت أستارنا .

إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللهِ وَشَاقُّوا الرَّسُولَ مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ الْهُدَى لَنْ يَضُرُّوا اللهَ شَيْئًا وَسَيُحْبِطُ أَعْمَالَهُمْ (٣٢) يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَلَا تُبْطِلُوا أَعْمَالَكُمْ (٣٣) إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللهِ ثُمَّ مَاتُوا وَهُمْ كُفَّارٌ فَلَنْ يَغْفِرَ اللهُ لَهُمْ (٣٤) فَلَا تَهِنُوا وَتَدْعُوا إِلَى السَّلْمِ وَأَنْتُمُ الْأَعْلَوْنَ وَاللهُ مَعَكُمْ وَلَنْ يَتِرَكُمْ أَعْمَالَكُمْ (٣٥) .

شرح المفردات

شاقو الرسول: أى عادوه وخالفوه ، وأصله صاروا فى شِقٍّ غير شقه ، فلا تهنوا: أى فلا تضعفوا عن القتال ، من الوهن وهوالضعف، وقد وهن الإنسان ووهنه غيره ، وتدعوا إلى السلم : أى تدعوا الكفار إلى الصلح خوفا و إظهارا للعجز ، الأعلون : أى الغالبون ، والله معكم : أى ناصركم، لن يتركم أعمالكم : أى لن ينقصكموها ؛ من وترت الرجل : إذا قتلت له قتيلا من ولد أو أخ أو حميم أو سلبت ماله وذهبت به ، فشبه إضاعة عمل العامل وتعطيل ثوابه بوتر الواتر .

المعنى الجملى

بعد أن ذكر أن المنافقين ستفضح أسرارهم ، وأنهم سيلقون شديد الأهوال حين وفاتهم — أردف ذلك بذكر حال جماعة من أهل الكتاب وهم بنو قُرَيْظة والنضير كفروا بالله وصدوا الناس عن سبيل الله وعادَوا الرسول بعد أن شاهدوا نعته فى التوراة ، وما ظهر على يديه من المعجزات ، فهؤلاء لن يضروا الله شيئا بكفرهم ، بل يضرون أنفسهم وسيحبط الله مكايدهم التى نصبوها لإبطال دينه ، ثم ذكر

قصص بنى سعد وقد أسلموا وجاءوا إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم وقالوا : قد آثرناك وجئناك بنفوسنا وأهلينا ، مَنًّا بذلك عليه ، فنهاهم عن ذلك و بين لهم أن هذا مما يبطل أعمالهم ، ثم أعقب هذا ببيان أن من كفروا وصدوا عن السبيل القويم ثم ماتوا وهم على هذه الحال فلن يغفر الله لهم ، ثم أرشد إلى أن عمل الكافرين الذى له صورة الحسنات محبط وأن ذنبهم غير مغفور ، و بعدئذ أردف هذا بأن الله خاذلهم فى الدنيا والآخرة فلا تبالوا بهم ولا تظهروا ضعفا أمامهم ، فإن الله ناصركم ولن يضيع أعمالكم .

الإيضاح

(إن الذين كفروا وصدوا عن سبيل الله وشاقوا الرسول من بعد ماتبين لهم الهدى لن يضروا الله شيئا وسيحبط أعمالهم) أى إن الذين جحدوا توحيد الله وصدوا الناس عن دينه الذى بعث به رسوله ، وخالفوا هذا الرسول وحاربوه وآذوه من بعد أن استبان لهم بالأدلة الواضحة ، والبراهين الساطعة أنه مرسل من عند ربه ــ لن يضروا الله شيئا ، لأن الله بالغ أمره وناصر رسوله ، ومظهره على من عاداه وخالفه ، وسيبطل مكايدهم التى نصبوها ، لإبطال دينه ومشاقة رسوله ، ولا يصلون بها إلى ما كانوا يبغون له من الغوائل ، وستكون ثمرتها إما قتلهم أو جلاءهم عن أوطانهم .

والمراد بصد الناس عن سبيل الله ، منعهم إياهم عن الإسلام بشتى الوسائل ، وعن متابعة الرسول صلى الله عليه وسلم والانضواء تحت لوائه .

ثم أمر سبحانه عباده المؤمنين بطاعته وطاعة رسوله صلى الله عليه وسلم فقال :

(يأيها الذين آمنوا أطيعوا الله وأطيعوا الرسول) أى يأيها الذين صدقوا بوحدانية الله وقدرته وسائر صفات كماله ، وصدقوا رسوله فيما جاء على لسانه من الشرائع ــ أطيعوا الله وأطيعوا الرسول فى اتباع أوامرهما والانتهاء عن نواهيهما .

ثم نهاهم عن أن يبطلوا أعمالهم كما أبطلت الكفار أعمالهم فقال :

(ولا تبطلوا أعمالكم) أى لاتبطلوا حسناتكم بالمعاصى قاله الحسن ، وقال الزهرى بالكبائر . وقال مقاتل بالمنّ والأذى ، وقال عطاء بالنفاق والشرك ؛ والأولى أن يراد به النهى عن كل سبب من الأسباب التى تكون سببا فى إبطال الأعمال كائنا ما كان بلا تخصيص بنوع معين .

وعن أبى العالية قال: كان أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم يرون أنه لايضر مع لاإله إلا الله ذنب ، كما لاينفع مع الشرك عمل حتى نزلت هذه الآية ، فخافوا أن يبطل الذنب العمل .

وعن ابن عمر رضى الله عنهما قال : كنا معشرَ أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم نرى أنه ليس شىء من الحسنات إلا مقبولا حتى نزلت : (أطيعوا الله وأطيعوا الرسول ولا تبطلوا أعمالكم) فقلنا : ماهذا الذى يبطل أعمالنا ؟ فقلنا الكبائر الموجبات والفواحش ، فكنا إذ رأينا من أصاب شيئا منها ، قلنا قد هلك حتى نزل « إِنَّ اللّهَ لاَيَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَادُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاء » فكففنا عن القول فى ذلك ، وكنا إذا رأينا أحدا أصاب منها شيئا خفنا عليه ، وإن لم يصب منها رجونا له .

وأخرج عبد بن حميد عن قتادة أنه قال فى الآية : من استطاع منكم ألا يبطل عملا صالحا بعمل سوء فيفعل ولا قوة إلا بالله تعالى .

ثم بين سبحانه أنه لايغفر للمصرّين على الكفر والصدّ عن سبيل الله فقال :

(إن الذين كفروا وصدوا عن سبيل الله ثم ماتوا وهم كفار فلن يغفر الله لهم) أى إن الذين جحدوا توحيد الله وصدوا من أراد الإيمان بالله ورسوله عن ذلك ، وحالوا بينهم وبين ما أرادوه ، ثم ماتوا وهم على كفرهم — فلن يعفو الله سبحانه عما صنعوا ، بل يعاقبهم ويفضحهم به على رءوس الأشهاد

وقيد سبحانه عدم المغفرة بالموت على الكفر ، لأن باب التوبة وطريق المغفرة لايغلقان على من كان حيا .

ثم ذكر سبحانه أن لاحرمة للكافر فى الدنيا والآخرة ، فأمر بقتالهم وأرشد إلى أن النصر حليف المؤمنين فقال :

(فلا تهنوا وتدعوا إلى السلم وأنتم الأعلون والله معكم ولن يتركم أعمالكم) أى فلا تضعفوا أيها المؤمنون عن جهاد المشركين وتجبنوا عن قتالهم ، وتدعوهم إلى الصلح والمسالمة خوراً و إظهاراً للعجز ، وأنتم العالون عليهم والله معكم بالنصر لكم عليهم ، ولا يظلمكم أجور أعمالكم فينقصكم ثوابها .

إِنَّمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ ، وَإِنْ تُؤْمِنُوا وَتَتَّقُوا يُؤْتِكُمْ أُجُورَكُمْ وَلَا يَسْأَلْكُمْ أَمْوَالَكُمْ (٣٦) إِنْ يَسْأَلْكُمُوهَا فَيُحْفِكُمْ تَبْخَلُوا وَيُخْرِجْ أَضْغَانَكُمْ (٣٧) هَاأَنْتُمْ هَؤُلَاءِ تُدْعَوْنَ لِتُنْفِقُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ ، فَمِنْكُمْ مَنْ يَبْخَلُ وَمَنْ يَبْخَلْ فَإِنَّمَا يَبْخَلُ عَنْ نَفْسِهِ ، وَاللَّهُ الْغَنِيُّ وَأَنْتُمُ الْفُقَرَاءُ ، وَإِنْ تَتَوَلَّوْا يَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُونُوا أَمْثَالَكُمْ (٣٨) .

شرح المفردات

كل ما اشتغلت به مما ليس فيه ضرر فى الحال ولا منفعة فى المآل ولم يمنعك عن مهامّ أمورك فهو لعب ، فإن شغلك عنها فهو لهو ، ومن ثم يقال آلات الملاهى ، لأنها مَشْغَلة عن غيرها ، ويقال لما دون ذلك لعب كاللعب بالشِّطرنج والنَّرْد والحمام ، فيحفكم : أى فيجهدكم بطلبها جميعها ، والإلحاف والإحفاء بلوغ الغاية فى كل شىء ؛ يقال أحفاه فى المسألة : إذا لم يترك شيئا من الإلحاح ، أضغانكم : أى أحقادكم .

المعنى الجملى

بعد أن أمر المؤمنين بترك المعاصى لأنها محبطة لثواب الأعمال الصالحة ، وأمرهم بالتشمير عن ساعد الجد للجهاد ومقاتلة الأعداء نصرةً لدينه ، ووعدهم بأن الله ناصرهم وهم الأعلون ، فلا ينبغى لهم أن يطلبوا المهادنة من العدو خوَرا وجبنا خوفا على الحياة ولذاتها — أكد هذا المعنى فأبان أنه لاينبغى لكم أيها المؤمنون الحرص على الدنيا، فإنها ظل زائل وعَرَض غير باق ، وما هى إلا لذات مؤقتة لاتلبث أن تزول ، وهى مشغَلة عن صالح الأعمال فلا يليق بكم أن تعضّوا عليها بالنواجذ ، بل اعملوا لما يرضى ربكم يؤتكم أجوركم وهو لايسألكم من أموالكم إلا القليل النزر الذى فيه صلاح المجتمع للمعونة على القيام بالمرافق العامة ، دنيويةً كانت أو دينية ، وهو عليم بأنكم أشحة على أموالكم ، فلو طلبها لبخلتم بها وظهرت أحقادكم على طالبيها ، والله قد طلب إليكم الإنفاق فى سبيله والقيام بما تحتاج إليه الدعوة ، فإن بخلتم فضرر ذلك عائد إليكم ، والله غنى عن معونتكم ، و إن أعرضتم عن الإيمان والتقوى يأت الله بخلق غيركم يقيمون دينه و ينصرون الدعوة .

الإيضاح

(إنما الحياة الدنيا لعب ولهو) يقول سبحانه حاضًّا عباده المؤمنين على جهاد أعدائه والنفقة فى سبيله و بذل مهجتهم فى قتال أهل الكفر به : قاتلوا أيها المؤمنون أعداء الله وأعداءكم من أهل الكفر ، ولا تدعُكم الرغبة فى الحياة إلى ترك قتالهم ، فإنما الحياة الدنيا لعب ولهو لايلبث أن يضمحل ويذهب إلا ما كان منها من عمل فى سبيل الله وطلب رضاه .

ثم رغبهم فى العمل للآخرة فقال :

(و إن تؤمنوا وتتقوا يؤتكم أجوركم ولا يسألكم أموالكم) أى و إن تؤمنوا

ربكم وتتقوه حق تقاته فتؤدوا فرائضه وتجتنبوا نواهيه - يؤتكم ثواب أعمالكم ويعوضكم عنها ماهو خير لكم يوم فقركم وحاجتكم إلى أعمالكم ، وهو لايأمركم بإخراجها جميعها فى الزكاة وسائر وجوه الطاعات ، بل يأمركم بإخراج القليل منها وهو ربع العشر للزكاة مواساة لإخوانكم الفقراء ، ونفعُ ذلك عائد إليكم .

ثم بين شح الإنسان على ماله وشدة حرصه عليه فقال :

(إن يسألكموها فيحفكم تبخلوا ويخرج أضغانكم) أى إن يسألكم ربكم أموالكم فيجهدكم بالمسألة ويلحف عليكم بطلبها - تبخلوا بها وتمنعوها إياه ضنا منكم بها ، لكنه علم ذلك منكم فلم يسألكموها فيخرج ذلك السؤال أحقادكم لمزيد حبكم للمال .

قال قتادة : قد علم الله أن فى سؤال المال خروج الأضغان للإسلام من حيث محبة المال بالجبلّة والطبيعة ، ومن نوزع فى حبيبه ظهرت طويته التى كان يُسِرّها .

والخلاصة - قد علم الله شح الإنسان على المال فلم يطلب منه إلا النزر اليسير فى الصدقات ، وبذل المال فى المرافق العامة لإصلاح شئون المجتمع الإسلامى كسدّ الثغور وبناء القناطر والجسور .

ثم أكد ماسلف وقرره بقوله :

(هأنتم هؤلاء تدعون لتنفقوا فى سبيل الله) أى هأنتم أيها المؤمنون تُدْعَوْن إلى النفقة فى جهاد أعداء الله ونصرة دينه .

(فمنكم من يبخل ومن يبخل فإنما يبخل عن نفسه والله الغنىّ وأنتم الفقراء) أى فمنكم من يبخل عن النفقة فى هذا السبيل ، ومن يبخل فإنما ضرر ذلك عائد إلى نفسه ، لأنه ينقصها أجرها من الثواب ، ويبعدها من رضا الله والقرب منه فى جنات النعيم ، واللهُ لاحاجة إليه فى أموالكم ولا نفقاتكم فهو الغنى عن خلقه ، وخلقُه فقراء إليه ، وإنما حضكم على النفقة فى سبيله لتنالوا بذلك الأجر والثواب .

(وإن تتولوا يستبدل قوما غيركم ثم لايكونوا أمثالكم) أى وإن تعرضوا

عن طاعة الله واتباع شرائعه وترتدوا راجعين عنها يهلككم ثم يجىء بقوم آخرين غيركم يصدقون بها ويعملون بالشرائع التى أنزلها على رسوله ، ويقومون بذلك كله على مايؤمرون به ، والمراد بهم على ماصح فى الحديث أهلُ فارس .

أخرج عبد الرزاق وعبد بن حميد وابن جرير وابن أبى حاتم والبيهقى والترمذى عن أبى هريرة قال : « تلا رسول الله صلى الله عليه وسلم هذه الآية(وَإِنْ تَتَوَلَّوْا)الخ فقالوا يا رسول الله من هؤلاء الذين إن تولّينا استبدلوا بنا ، ثم لا يكونون أمثالنا ؟ فضرب رسول الله صلى الله عليه وسلم على منكِب سلمان ، ثم قال هذا وقومه ، والذى نفسى بيده لو أن هذا الدين تعلق بالثريا لتناوله رجال من فارس » .

وقد طعن بعض رواة الحديث فيه وجرّحوا بعض رواته ، قال ابن كثير وقد تكلم فيه بعض الأئمة رحمة الله عليهم .

قال الكلبى : شرط فى الاستبدال تولّيهم لكنهم لم يتولوا فلم يستبدل سبحانه قوما غيرهم بهم .

وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله ، ونصر دينه بأتباعه المؤمنين ، وجعلهم للعمل بنشره دائبين .

اشتملت هذه السورة الكريمة على ثلاثة مقاصد

(١) وصف الكافرين والمؤمنين من أول السورة إلى قوله : « كَذَٰلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ لِلنَّاسِ أَمْثَالَهُمْ » .

(٢) جزاء الفريقين فى الدنيا والآخرة من خذلان ونصر ونار وجنة من قوله : « فَإِذَا لَقِيتُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا فَضَرْبَ الرِّقَابِ — إلى قوله : وَاللَّهُ يَعْلَمُ مُتَقَلَّبَكُمْ وَمَثْوَاكُمْ » .

(٣) الوعد والتهديد للمنافقين والمرتدين من قوله : « وَيَقُولُ الَّذِينَ آمَنُوا لَوْلَا نُزِّلَتْ سُورَةٌ » إلى آخر السورة .

ســـورة الفتح

هى مدنية ، وعدة آيها تسع وعشرون ، نزلت بعد سورة الجمعة .

ووجه مناسبتها لما قبلها :

(١) إن الفتح المراد به النصر مرتب على القتال .

(٢) إن فى كل منهما ذكراً للمؤمنين المخلصين والمنافقين والمشركين .

(٣) إن فى السورة السالفة أمراً بالاستغفار ، وفى هذه ذكر وقوع المغفرة .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُبِينًا (١) لِيَغْفِرَ لَكَ اللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ وَيُتِمَّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكَ وَيَهْدِيَكَ صِرَاطًا مُسْتَقِيمًا (٢) وَيَنْصُرَكَ اللَّهُ نَصْرًا عَزِيزًا (٣) .

شرح المفردات

أصل الفتح : إزالة الأغلاق ، وفتح البلد : دخله عنوة أو صلحا ، والمراد بالفتح هنا صلح الحديبية (والحديبية بئر) على المشهور ، وهو المروى عن ابن عباس وأنس والشعبى والزهرى ، وسمى هذا فتحا؛ لأنه كان سببا لفتح مكة ، قال الزهرى: لم يكن فتح أعظم من صلح الحديبية ، اختلط المشركون بالمسلمين وسمعوا كلامهم فتمكن الإسلام من قلوبهم ، وأسلم فى ثلاث سنين خلق كثير كثر بهم سواد الإسلام ، فما مضت تلك السنون إلا والمسلمون قد جاءوا إلى مكة فى عشرة آلاف ففتحوها .

والخلاصة — إنه كان من نتائج هذا الصلح الأمور الآتية :

(١) تمّ فى هــذا الصلح مايسمونه فى العصر الحديث (جسّ النبض) لمعرفة قوة العدوّ ومقدار كفايته وإلى أى حد هى .

(٢) معرفة صادق الإيمان من المنافقين كما علم ذلك من المخلفين فيما يأتى .

(٣) إن اختلاط المسلمين بالمشركين حبب الإســلام إلى قلوب كثير منهم فدخلوا فى دين الله أفواجا .

مبينا : أى بيّناً ظاهر الأمر مكشوف الحال .

المعنى الجملى

نزلت هــذه السورة الــكريمة حين منصرَفه صلى الله عليه وسلم من الحديبية فى ذى القَعْدة من سنة ست من الهجرة ، لما صدَّه المشركون عن الوصول إلى المسجد الحرام وحالوا بينه وبين قضــاء عمرته ، ثم مالوا إلى المصالحة والمهادنة ، وأن يرجع عامه هذا ثم يأتى من قابل ، فأجابهم إلى ذلك على تكرّه من جماعة من الصحابة كعمر بن الخطاب رضى الله عنه ، فلما نحر هديه حيث أُحْصِر ورجع أنزل الله تعالى هذه الســورة فيما كان من أمره وأمرهم ، وجعل هذا الصلح فتحا لما فيه من المصلحة ، ولمــا آل إليه أمره : فقد روى عن ابن مسعود رضى الله عنه أنه قال : إنكم تعدون الفتح فتح مكة ، ونحن نعدّ الفتح صلح الحديبية . وروى البخارى « أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان يسير فى بعض أسفاره وعمر بن الخطاب كان يسير معه ليلاً ، فسأله عمر عن شىء فلم يجبه ، ثم سأله فلم يجبه ، ثم سأله فلم يجبه ، فقال عمر : ثكلتك أمك يا عمر ، كررت على رسول الله صلى الله عليه وســلم ثلاث مرات ، كل ذلك لايجيبك ، قال عمر : فحركت بعيرى حتى تقدمت أمام الناس وخشيت أن ينزل فىّ قرآن ، فما لبثت أن سمعت صارخا يصرخ بى ، فقلت لقد خشيت أن يكون نزل فىّ قرآن ، فجئت رسول الله صلى الله عليه وسلم فسلمت عليه فقال : لقد أنزلت علىّ سورة هى أحب إلىّ مما طلعت عليه الشمس ، ثم قرأ «إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُبِينًا» .

وفى صحيح مسلم عن قتادة أن أنس بن مالك حدثهم قال: لما نزلت « إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُبِينًا — إلى قوله فَوْزًا عَظِيماً » مرجعه من الحديبية وهم يخالطهم الحزن والكآبة وقد نحروا الهدى بالحديبية ، قال النبى صلى الله عليه وسلم : لقد أنزلت علىّ آية هى أحب إلىّ من الدنيا جميعها » .

هذا ، ولما كان لكل عامل ثمرة يجنيها من عمله وغاية يبتغيها منه — كان للنبوّة نهاية مطلوبة فى هذه الحياة وثمرة تتبع هذه النهاية ، فنهاية أمر النبوة أن تلتئم الأمور ويجتمع شملها ، وتكمل نظمها التى تبنى عليها الحياة الهنية حتى يعيش العالم فى طمأنينة وهدوء . ولن يتم ذلك إلا بعد بث الدعوة والجهاد العلمى والعملى بقتال الأعداء وخضد شوكتهم ، ومتى تمّ هذا وأنقذ المستضعفون ودخل الناس فى دين الله أفواجا كرها ثم طوعا انتظم أمر النبوة ، وأدى الرسول واجبه واستوجب أن يجنى ثمرة أعماله ، وهى :

(١) مغفرة مافرط من ذنبه مما يعدّ ذنبا بالنظر إلى مقامه الشريف .

(٢) تمام النعمة باجتماع الملك والنبوة بعد أن كانت له النبوة وحدها .

(٣) الهداية إلى الصراط المستقيم فى تبليغ الرسالة ، وإقامة مراسم الرياسة .

(٤) المنعة والعزة ونفاذ الكلمة ورهبة الجانب وحمى الذمار .

فهذا الفتح كان كفيلا بهذه الشئون الأربعة ، فكأنه سبحانه يقول لرسوله : لقد بلغتَ الرسالة ، ونصبْتَ فى العمل ، وجاهدت بلسانك وسيفك ، وجمعت الرجال والكُراع والسلاح ، ولطفت وأغلظت ، وأخلصت فى عملك ، وفعلت فى وجيز الزمن مالم ينله مثلك فى طويله ، حتى تمّ ماند بناك له فتجنى ثمار عملك ، ولتقرّ عينا بما آل إليه أمرك فى الدنيا والآخرة .

الإيضاح

(إنا فتحنا لك فتحا مبينا) أى إنا فتحنا لك فتحا ظاهرا لايختلج فيه شك بذلك الصلح الذى تم على يديك فى الحديبية ، ولم يمض إلا القليل من الزمن حتى

دخل الناس فى دين الله أفواجا ، وكان هو السُّلّم الذى رَقيت فيه إلى فتح مكة ، وتسابق العرب إلى الدخول فى الدين زرافات ووُحْدانا .

(ليغفر لك الله ماتقدم من ذنبك وما تأخر) أى ليغفر لك ربك جميع مافرط منك من الهفوات مما يصح أن يسمى ذنبا بالنظر إلى مقامك الشريف ، وإن كان لايسمى ذنبا بالنظر إلى سواك ، ومن ثم قيل : حسنات الأبرار سيئات المقربين .

والمراد غفران الذنوب التى قبل الرسالة والتى بعدها ، قاله مجاهد وسفيان الثورى وابن جرير والواحدى وغيرهم .

أخرج البخارى ومسلم وغيرهما عن المغيرة بن شعبة قال : « كان النبى صلى الله عليه وسلم يصلى حتى ترم قدماه ، فقيل له : أليس قد غفر لك الله ماتقدم من ذنبك وما تأخر ، قال : أفلا أكون عبداً شكوراً ؟ » .

قال صاحب الكشاف : فإن قلت كيف جعل فتح مكة علة للمغفرة — قلت لم يجعله علة للمغفرة ، ولكنه جعله علة لاجتماع ماعدّد من الأمور الأربعة ، وهى المغفرة وإتمام النعمة وهداية الصراط المستقيم والنصر العزيز ، كأنه قيل: يسرنا لك فتح مكة ونصرناك على عدوك ، لنجمع لك بين عز الدارين ، وأغراض الآجل والعاجل اه .

(ويتم نعمته عليك) بإعلاء شأن دينك ، وانتشاره فى البلاد ، ورفع ذكرك فى الدنيا والآخرة .

(ويهديك صراطا مستقيما) أى ويرشدك طريقا من الدين لااعوجاج فيه ، يستقيم بك إلى رضا ربك .

(وينصرك الله نصراً عزيزاً) أى وينصرك على من ناوأك من أعدائك نصراً ذا عزّ بالغ ، لايدفعه دافع ، لما يؤيدك به من بأس ، وينيلك من ظفر .

هُوَ الَّذِى أَنْزَلَ السَّكِينَةَ فِى قُلُوبِ الْمُؤْمِنِينَ لِيَزْدَادُوا إِيمَانًا مَعَ إِيمَانِهِمْ وَلِلَّهِ جُنُودُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيماً حَكِيماً (٤) لِيُدْخِلَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِى مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَيُكَفِّرَ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَكَانَ ذَلِكَ عِنْدَ اللَّهِ فَوْزًا عَظِيماً (٥) وَيُعَذِّبَ الْمُنَافِقِينَ وَالْمُنَافِقَاتِ وَالْمُشْرِكِينَ وَالْمُشْرِكَاتِ الظَّانِّينَ بِاللَّهِ ظَنَّ السَّوْءِ ، عَلَيْهِمْ دَائِرَةُ السَّوْءِ وَغَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَلَعَنَهُمْ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَهَنَّمَ وَسَاءَتْ مَصِيرًا (٦) وَلِلَّهِ جُنُودُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا حَكِيماً (٧).

شرح المفردات

أنزل السكينة : أى خلقها وأوجدها ، قال الراغب : إنزال الله تعالى نعمته على عبد : إعطاؤه إياها ، إما بإنزال الشىء نفسه كإنزال القرآن ، أو بإنزال أسبابه بالهداية إليه كإنزال الحديد ونحوه اهـ . والسكينة : الطمأنينة والثبات من السكون ، إيمانا مع إيمانهم : أى يقينا مع يقينهم ، جنود السموات والأرض : أى الأسباب السماوية والأرضية ، ويكفر عنهم سيئاتهم: أى يغطيها ولا يظهرها ، والسوء : (بالضم والفتح) : المساءة ، وظن السوء : أى ظن الأمر السوء فيقولون فى أنفسهم : لا ينصر الله رسوله والمؤمنين ، عليهم دائرة السوء : الدائرة فى الأصل الحادثة التى تحيط بمن وقعت عليه ، وكثر استعمالها فى المكروه ، والسوء : العذاب والهزيمة والشر (وهو بالضم والفتح لغتان) وقال سيبويه : السوء هنا الفساد ، أى عليهم ما يظنونه ويتربصونه بالمؤمنين لا يتخطاهم . لعنهم : أى طردهم طرداً نزلوا به إلى الحضيض ، عزيزاً : أى يغلب ولا يُغلب .

المعنى الجملى

بعد أن أخبر سبحانه بأنه سينصر رسله — بيّن سبيل النصر بأنه رزقهم ثبات قلب ليزدادوا يقينا إلى يقينهم ، ثم أخبر بأن من سننه أن يسلط بعض عباده على بعض ، وهو العليم بالمصالح واستعداد النفوس ، وقد وعد المؤمنين جنات تجرى من تحتها الأنهار ، وأوعد عباده الكافرين والمنافقين الذين كانوا يتربصون الدوائر بالمؤمنين — بالعذاب الأليم ، وغضب عليهم وطردهم من رحمته .

روى أحمد عن أنس بن مالك رضى الله عنه قال : نزلت على النبى صلى الله عليه وسلم « لِيَغْفِرَ لَكَ اللهُ مَاتَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ » مرجعه من الحديبية ، فقال النبى صلى الله عليه وسلم « لقد أنزلت علىّ آية أحب إلىّ مما على وجه الأرض » ثم قرأها عليهم ، فقالوا هنيئا مريئا يارسول الله ، لقد بيّن لك ماذا يفعل بك ، فماذا يفعل بنا ؟ فنزلت عليه « لِيُدْخِلَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِى مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ — حتى بلغ — فَوْزًا عَظِيمًا » وأخرجه الشيخان من رواية قتادة .

الإيضاح

(هو الذى أنزل السكينة فى قلوب المؤمنين ليزدادوا إيمانا مع إيمانهم) أى هو الذى أنزل فى قلوب المؤمنين طمأنينة وثبات أقدام عند اللقاء ومقاتلة الأعداء (وهو المسمى فى العصر الحديث الروح المعنوية فى الجيوش) ليزدادوا يقينا فى دينهم إلى يقينهم برسوخ عقيدتهم واطمئنان نفوسهم بعد أن دهمهم من الحوادث مامن شأنه أن يزعج ذوى الأحلام ، ويزلزل العقائد بصدّ الكفار لهم عن المسجد الحرام ورجوعهم دون بلوغ مقصدهم ، ولكن لم يرجع أحد منهم عن الإيمان بعد أن هاج الناس وزلزلوا زلزالا شديدا حتى إن عمر بن الخطاب لم يكن راضيا عن هذا الصلح

وقال : ألسنا على الحق وهم على الباطل ؟ وكان للصديق من القدم الثابتة ورسوخ الإيمان مادل على أنه لايجارى ولا يبارى .

(ولله جنود السموات والأرض) فهوالذى يدبرأمرالعالم ويسلط بعض جنده على بعض فيجعل جماعة، يجاهدون لإعلاء كلمة الحق ، ويجعل آخرين يقاتلون فى سبيل الشيطان، ولو شاء لأرسل عليهم جندا من السماء فأباد خضراءهم ، لكنه سبحانه شرع الجهاد والقتال لما فى ذلك من مصلحة هو عليم بها وحكمة قد تغيب عنا ، وهذا ماعناه بقوله:

(وكان الله عليما حكيما) فهو لايعزب عنه مثقال ذرة فى السموات ولا فى الأرض

(ليدخل المؤمنين والمؤمنات جنات تجرى من تحتها الأنهار خالدين فيها ويكفر عنهم سيئاتهم وكان ذلك عند الله فوزا عظيما) أى وإنما دبر ذلك ليعرف المؤمنون نعمة الله ويشكروها فيدخلوا الجنة ما كثين فيها أبدا ، وليكفر عنهم سيئات أعمالهم بالحسنات التى يعملونها ، شكراً لربهم على ما أنعم به عليهم ، وكان ذلك ظفرا لهم بما كانوا يرجون ويسعون له ، ونجاة مما كانوا يحذرونه من العذاب الأليم ، وهذا منتهى مايرون من منفعة مجلوبة ، ومضرة مدفوعة .

(ويعذب المنافقين والمنافقات والمشركين والمشركات الظانين بالله ظن السوء) أى وليعذب هؤلاء فى الدنيا بإيصال الهمّ والغم إليهم بسبب علو كلمة المسلمين ، وبما يشاهدونه من ظهور الإسلام وقهر المخالفين ، وبتسليط النبي صلى الله عليه وسلم عليهم قتلا وأسرا واسترقاقا ، وفى الآخرة بعذاب جهنم .

وهم قد كانوا يظنون أن النبى صلى الله عليه وسلم سيُغْلب ، وأن كلمة الكفر ستعلو كلمة الإسلام ، ومما ظنوه ماحكاه الله بقوله : « بَلْ ظَنَنْتُمْ أَنْ لَنْ يَنْقَلِبَ الرَّسُولُ وَالْمُؤْمِنُونَ إِلَى أَهْلِيهِمْ أَبَدًا » .

وإنما قدم المنافقين على المشركين ، لأنهم كانوا أشد ضرراً على المؤمنين من الكفار الجاهرين ، لأن المؤمن كان يتوقى المجاهر ويخالط المنافق لظنه إيمانه ،

وكان يفشى سره إليه ، وفى هـذا دلالة على أنهم أشد منهم عذابا وأحق منهم بما أوعدهم الله به

والخلاصة — إن الفريقين ظنوا أن الله لا ينصر رسوله ولا المؤمنين على الكافرين.

وقد دعا سبحانه عليهم بأن ينزل بهم ما كانوا يظنونه بالمؤمنين من الدوائر وأحداث الزمان فقال :

(عليهم دائرة السوء) أى عليهم تدور الدوائر ، وسيحيق بهم ما كانوا يتربصونه بالمؤمنين من قتل وسبى وأسر لا يتخطاهم .

ثم بين ما يستحقونه من الغضب واللعنة فقال :

(وغضب الله عليهم ولعنهم وأعدّ لهم جهنم وساءت مصيراً) أى ونالهم غضب من الله وأبعدهم فأقصاهم من رحمته ، وأعدّ لهم جهنم يصلونها يوم القيامة ، وساءت منزلا يصير إليه هؤلاء المنافقون والمنافقات والمشركون والمشركات .

(ولله جنود السموات والأرض) من الملائكة والإنس والجن والصيحة والرجفة والحجارة والزلازل والخسف والغرق ونحو ذلك — أنصاراً على أعدائه إن أمرهم بإهلاكهم أهلكوهم وسارعوا مطيعين لذلك .

وفائدة إعادة هذه الجملة — بيان أن لله جنوداً للرحمة وجنوداً للعذاب ، فذكرهم أوّلا بيانا لإنزالهم للرحمة ، وأنهم يدخلون الجنة مكرمين معظمين ، وذكرهم ثانيا بيانا لإنزال العذاب على الكافرين فى نار جهنم كما قال : « عَلَيْهَا مَلَائِكَةٌ غِلَاظٌ شِدَادٌ لَا يَعْصُونَ اللهَ مَا أَمَرَهُمْ » .

روى أنه لما جرى صلح الحديبية قال ابن أبىّ : أيظن محمد أنه إذا صالح أهل مكة أو فتحها لا يبقى له عدوّ ، فأين فارس والروم ـ فبيّن سبحانه أن جنود السموات والأرض أكثر من فارس والروم .

(وكان الله عزيزا حكيما) أى وكان الله غالبا فلا يرد بأسه ، حكيما فيما دبره لخلقه .

خلاصة ماسلف

إنه قد ترتب على هذا الفتح أمور أربعة للنبي صلى الله عليه وسلم :

(١) مغفرة الذنوب .

(٢) اجتماع الملك والنبوّة .

(٣) الهداية إلى الصراط المستقيم .

(٤) العزة والمنعة .

وهكذا فاز المؤمنون بأمور أربعة :

(١) الطمأنينة والوقار .

(٢) ازدياد الإيمان .

(٣) دخول الجنات .

(٤) تكفير السيئات .

وجازى الكفار بأمور أربعة :

(١) العذاب . (٢) الغضب .

(٣) اللعنة . (٤) دخول جهنم .

إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَاهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا (٨) لِتُؤْمِنُوا بِاللهِ وَرَسُولِهِ وَتُعَزِّرُوهُ وَتُوَقِّرُوهُ وَتُسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلاً (٩) إِنَّ الَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ اللهَ ، يَدُ اللهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ ، فَمَنْ نَكَثَ فَإِنَّمَا يَنْكُثُ عَلَى نَفْسِهِ ، وَمَنْ أَوْفَى بِمَا عَاهَدَ عَلَيْهُ اللهَ فَسَيُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيماً (١٠) .

شرح المفردات

شاهداً : أى على أمتك لقوله تعالى : « وَيَكُونَ الرَّسُولُ شَهِيدًا عَلَيْكُمْ » ومبشراً : أى بالثواب على الطاعة ، ونذيراً : أى بالعذاب على المعصية ، وتعزروه : أى تنصروه ، وتوقروه : أى تعظموه ، بكرة : أى أول النهار ، وأصيلا : أى آخر النهار ، والمراد جميع النهار ، إذ من سنن العرب أن يذكروا طرفى الشىء ويريدوا جميعه ؛ كما يقال شرقا وغربا لجميع الدنيا ، يبايعونك : أى يوم الحديبية إذ بايعوه على الموت فى نصرته والذبّ عنه كما روى عن سلمة بن الأكوع وغيره ، أو على ألا يفروا من قريش كما روى عن ابن عمر وجابر ، إنما يبايعون الله ، لأن المقصود من بيعة الرسول وطاعته طاعة الله وامتثال أوامره ، يد الله فوق أيديهم : أى نصرته إياهم أعلى وأقوى من نصرتهم إياه ؛ كما يقال اليد لفلان : أى الغلبة والنصرة له ، نكث : أى نقض ، يقال أوفى بالعهد ووفى به : إذا أتمه ، وقرأ الجمهور (عليه) بكسر الهاء ، وضمها حفص لأنها هاء هو وهى مضمومة فاستصحب ذلك كما فى له وضربه .

المعنى الجملى

بعد أن أتم الكلام على مالكلٍّ من النبى صلى الله عليه وسلم والمؤمنين من الثمرات التى ترتبت على عمله — أعقبه بما يعمهما معا ، فذكر أنه أرسل رسوله شاهداً على أمته ، ومبشرا لها بالثواب ، ومنذرا إياها بالعقاب ، ثم أبان أن فائدة هذا الإرسال هو الإيمان بالله وتعظيمه وتسبيحه غدوة وعشيا ونصرة دينه . ثم ذكر بيعة الحديبية (قرية صغيرة على أقل من مرحلة من مكة ، سميت باسم بئر هناك) وأن الذين بايعوا هذه البيعة إنما بايعوا الله ونصروا دينه ، وأن من نقض منهم العهد فوبال ذلك عائد إليه ولا يضرنّ إلا نفسه ، ومن أوفى بهذا العهد فسينال الأجر العظيم ، والثواب الجزيل .

بيعة الرضوان — بيعة الشجرة

سبب هذه البيعة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم دعا خِراش بن أمية الخزاعى حين نزل الحديبية ، فبعثه إلى قريش بمكة ليبلغ أشرافهم عنه ماجاء له ، فعقروا جمل رسول الله صلى الله عليه وسلم وأرادوا قتله ، فمنعه الأحابيش (واحدهم أحبوش ، وهو الفوج من قبائل شتى) فخلوا سبيله حتى أتى رسول الله صلى الله عليه وسلم فأخبره ، فدعا رسول الله صلى الله عليه وسلم عمر بن الخطاب رضى الله عنه ليبعثه ، فقال إنى أخافهم على نفسى لما أعرف من عداوتى إياهم وما بمكة عَدَوِىٌّ (قبيلته بنو عدى) ولكنى أدلك على رجل هو أعز بها منى وأحب إليهم — عثمان بن عفان ، فبعثه إلى أبى سفيان وأشراف قريش يخبرهم أنه لم يأت لحرب ، وإنما جاء زائرا لهذا البيت معظما لحرمته ، فلقيه أبان بن سعيد بن العاص حين دخل مكة فجعله فى جواره حتى فرغ من رسالته لعظماء قريش ، ثم احتبسوه عندهم ، فشاع بين المسلمين أن عثمان قد قُتل ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : لا نبرح حتى نناجز القوم ، ودعا الناس إلى البيعة فكانت بيعة الرضوان تحت الشجرة ، وبايعه القوم على ألا يفرّوا أبدا إلا جدّ بن قيس الأنصارى ، فأرعب ذلك المشركين وأرسلوا داعين إلى الموادعة والصلح ، وكان قد أتى رسولَ الله أن الذى بلغه من أمر عثمان كذب ، فتمّ الصلح ومشى بعضهم إلى بعض على أن يحج رسول الله صلى الله عليه وسلم فى العام القابل ويدخل مكة .

روى البخارى من حديث قتادة قلت لسعيد بن المسيِّب : كم كان الذين شهدوا بيعة الرضوان ؟ قال خمس عشرة مائة ، والمشهور الذى رواه غير واحد أنهم كانوا أربع عشرة مائة .

الإيضاح

(إنا أرسلناك شاهداً ومبشراً ونذيراً . لتؤمنوا بالله ورسوله وتعزروه وتوقروه وتسبحوه بكرة وأصيلا) أى إنا أرسلناك أيها الرسول شاهداً على أمتك بما أجابوك فيما دعوتهم إليه مما أرسلتك به إليهم ، مبشراً لهم بالجنة إن أجابوك إلى مادعوتهم إليه من الدين القيم ، ونذيرا لهم عذاب الله إن تولوا وأعرضوا عما جئتهم به من عنده، فآمنوا بالله ورسوله وانصروا دينه وعظموه وسبحوه فى الغدوّ والعشى .

(إن الذين يبايعونك إنما يبايعون الله) أصل البيعة العقد الذى يعقده الإنسان على نفسه من بذل الطاعة للإمام والوفاء بالعهد الذى التزمه له ، والمراد بها هنا بيعة الرضوان بالحديبية ، وقد بايعه جماعة من الصحابة على ألا يفروا ، منهم مَعْقِل ابن يسار ، أى إن الذين يبايعونك بالحديبية من أصحابك على ألا يفروا عند لقاء العدو ، ولا يولوهم الأدبار ، إنما يبايعون الله ببيعتهم إياك ، وقد ضمن لهم الجنة بوفائهم له بذلك .

ثم أكد ماسلف بقوله :

(يد الله فوق أيديهم) أى نعمة الله عليهم بالهداية فوق ماصنعوا من البيعة كما قال تعالى : « يَمُنُّونَ عَلَيْكَ أَنْ أَسْلَمُوا قُلْ لاَ تَمُنُّوا عَلَيَّ إِسْلاَمَكُمْ بَلِ اللهُ يَمُنُّ عَلَيْكُمْ أَنْ هَدَاكُمْ لِلْإِيمَانِ » .

(فمن نكث فإنما ينكث على نفسه) أى فمن نقض العهد الذى عقده مع النبى صلى الله عليه وسلم فإن ضرر ذلك راجع إليه ولا يضرّ إلا نفسه .

(ومن أوفى بما عاهد عليه الله فسيؤتيه أجرا عظيما) أى ومن وفَّى بعهد البيعة فله الأجر والثواب فى الآخرة ، وسيدخله جنات يجد فيها ما لا عين رأت ، ولا أذن سمعت ، ولا خطر على قلب بشر .

سَيَقُولُ لَكَ الْمُخَلَّفُونَ مِنَ الْأَعْرَابِ شَغَلَتْنَا أَمْوَالُنَا وَأَهْلُونَا فَاسْتَغْفِرْ لَنَا ، يَقُولُونَ بِأَلْسِنَتِهِمْ مَا لَيْسَ فِي قُلُوبِهِمْ ، قُلْ فَمَنْ يَمْلِكُ لَكُمْ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا إِنْ أَرَادَ بِكُمْ ضَرًّا أَوْ أَرَادَ بِكُمْ نَفْعًا ، بَلْ كَانَ اللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا (١١) بَلْ ظَنَنْتُمْ أَنْ لَنْ يَنْقَلِبَ الرَّسُولُ وَالْمُؤْمِنُونَ إِلَى أَهْلِيهِمْ أَبَدًا وَزُيِّنَ ذَلِكَ فِي قُلُوبِكُمْ، وَظَنَنْتُمْ ظَنَّ السَّوْءِ وَكُنْتُمْ قَوْمًا بُورًا (١٢) وَمَنْ لَمْ يُؤْمِنْ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ فَإِنَّا أَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ سَعِيرًا (١٣) وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ يَغْفِرُ لِمَنْ يَشَاءُ وَيُعَذِّبُ مَنْ يَشَاءُ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيماً (١٤) .

شرح المفردات

المخلفون : واحدهم مخلَّف ، وهو المتروك فى المكان خلف الخارجين منه ، يقولون بألسنتهم ماليس فى قلوبهم: أى إن كلامهم من طرف اللسان غير مطابق لما فى القلب فهو كذب صراح ، والملك: إمساك بقوة وضبط ؛ تقول ملكت الشىء إذا دخل تحت ضبطك دخولا تاما ، ومنه لاأملك رأس بعيرى : إذا لم تستطع إمساكه إمساكا تاما ، والمراد بالضر : مايضر من هلاك الأهل والمال وضياعهما ، و بالنفع: ماينفع من حفظ المال والأهل ، ينقلب : أى يرجع ، إلى أهليهم : أى عشائرهم وذوى قرباهم ، بوراً : أى هالكين لفساد عقائدكم وسوء نياتكم . سعيراً : أى ناراً مسعورة موقدة ملتهبة .

المعنى الجملى

بعد أن ذكر سبحانه حال المنافقين فيما سلف و بين أن الله غضب عليهم ولعنهم وأعدّ لهم عذاب السعير — أردف ذلك بذكر قبائل من العرب جُهَيْنة ومُزَيْنة

وغِفار وأشجع والدِّيل وأسلم — تخلفوا عن رسول الله صلى الله عليه وسلم لما استنفرهم عام الحديبية حين أراد السير إلى مكة معتمرا ، وساق معه الهدى ليُعلم أنه لايريد حربا ، واعتلّوا بأن أموالهم وأهليهم قد شغلتهم، لكنهم فى حقيقة أمرهم كانوا ضعاف الإيمان خائفين من مقاتلة قريش وثقيف وكِنانة والقبائل المجاورة لمكة وهم الأحابيش ، وقالوا : كيف نذهب إلى قوم قد غزوه فى عُقْر داره بالمدينة وقتلوا أصحابه فنقاتلهم ؟ وقالوا : لن يرجع محمد ولا أصحابه من هذا السفر ، ففضحهم الله فى هذه الآية وأخبر بأنه أعدّ لهؤلاء وأمثالهم نارا موقدة تطّلع على الأفئدة ، وأعدّ للمؤمنين جنات تجرى من تحتها الأنهار خالدين فيها أبدا ، وهو ذو مغفرة لمن أقلع من ذنبه ، وأناب إلى ربه .

الإيضاح

(سيقول لك المخلفون من الأعراب شغلتنا أموالنا وأهلونا فاستغفر لنا) أى أيها الرسول سيقول لك الذين تخلفوا عن صحبتك والخروج معك فى سفرك حين سرت إلى مكة معتمراً زائراً بيت الله الحرام وعاقبتهم على التخلف : شغلنا عن الخروج معك معالجة أموالنا و إصلاح معايشنا وأهلونا ، إذ لم يكن لنا من يقوم بتدبير شئونهم وقضاء حاجهم ، فاطلب لنا المغفرة من ربك ، إذ لم يكن تخلفنا عن عصيان لك ، ولا مخالفة لأمرك .

فرد الله عليهم وكذبهم بقوله :

(يقولون بألسنتهم ماليس فى قلوبهم) أى إنهم لم يكونوا صادقين فى اعتذارهم بأن الامتناع كان لهذا السبب ، لأنهم إنما تخلفوا اعتقادا منهم أن النبى صلى الله عليه وسلم والمؤمنين يُغلبون بدليل قوله بعدُ : « بَلْ ظَنَنْتُمْ أَنْ لَنْ يَنْقَلِبَ الرَّسُولُ وَالْمُؤْمِنُونَ إِلَى أَهْلِيهِمْ أَبَدًا » .

ثم أمر رسوله أن يرد عليهم حين اعتذروا بتلك الأباطيل فقال :

(قل فمن يملك لكم من الله شيئا إن أراد بكم ضرا أو أراد بكم نفعا ؟) أى قل لهم: إنكم بعملكم هذا تحترسون من الضرّ وتتركون أمر الله ورسوله وتقعدون طلبا للسلامة ، ولكن لو أراد الله بكم ضرا لاينفعكم قعودكم شيئا ، أو أراد بكم نفعا فلارادّ له ، إذ من ذا الذى يمنع من قضائه ؟ .

وهذا ردّ عليهم حين ظنوا أن التخلف عن رسول الله صلى الله عليه وسلم يدفع عنهم الضر ويجلب لهم النفع ..

ثم أبان لهم أنه عليم بجميع نواياهم وأن ما أظهروه من العذر هو غير ما أبطنوه من الشك والنفاق فقال :

(بل كان الله بما تعملون خبيراً) فيعلم أن تخلفكم لم يكن لما أظهرتم من المعاذير، بل كان شكا ونفاقا كما فصل ذلك بقوله :

(بل ظننتم أن لن ينقلب الرسول والمؤمنون إلى أهليهم أبدا وزين ذلك فى قلوبكم وظننتم ظن السوء وكنتم قوما بوراً) أى إن تخلفكم لم يكن لما أبديتم من الأسباب ، بل إنكم اعتقدتم أن الرسول والمؤمنين سيُقتلون وتستأصل شأفتهم فلا يرجعون إلى أهليهم أبدا ، وزين لكم الشيطان ذلك الظن حتى قعدتم عن صحبته وظننتم أن الله لن ينصر محمدا وصحبه المؤمنين على أعدائهم ، بل سيُغلبون ويُقتلون ، وبلغ الأمر بكم أن قلتم : إن محمدا وأصحابه أَكَلَةُ رأس (قليلو العدد) فأين يذهبون ؟ وقد صرتم بما قلتم قوما هلكى لاتصلحون لشىء من الخير ، مُستوجبين سخط الله وشديد عقابه .

ثم أخبر سبحانه عما أعدّه للكافرين به فقال :

(ومن لم يؤمن بالله ورسوله فإنا أعتدنا للكافرين سعيراً) أى ومن لم يصدق بما أخبر الله به ويقرّ بصدق ما جاء به رسوله من الحق من عنده ، فإنا أعتدنا له سعيراً من النار تستعر عليه فى جهنم إذا وردها يوم القيامة لكفره بربه .

ثم بين قدرته على ذلك وأنه يفعل مايشاء لارادّ لحكمه ، ولا معقب لقضائه فقال :

(ولله ملك السموات والأرض يغفر لمن يشاء ويعذب من يشاء) أى والله السلطان والتصرف فى السموات والأرض ، فلا يقدر أحد أن يدفعه عما أراد بكم من تعذيب على نفاقكم إن أصررتم عليه ، أو منعه من العفو عنكم إن أنتم تبتم من نفاقكم وكفركم .

وهذا حسْم لأطماعهم فى استغفاره صلى الله عليه وسلم لهم وهم على هذه الحال .

ثم أطمعهم فى مغفرته وعفوه إن تابوا وأنابوا إليه فقال :

(وكان الله غفورا رحيما) أى وكان الله كثير المغفرة والرحمة ، يختص من يشاء بمغفرته ورحمته دون من عداهم من الكافرين فهم بمعزل عن ذلك .

وفى الآية حثّ لهؤلاء المتخلفين عن رسول الله صلى الله عليه وسلم على التوبة والمراجعة إلى أمر الله فى طاعة رسوله صلى الله عليه وسلم وطلب المبادرة بها ، فإن الله يغفر للتائبين ويرحمهم إذا أنابوا إليه ، وأخلصوا العمل له .

سَيَقُولُ الْمُخَلَّفُونَ إِذَا انْطَلَقْتُمْ إِلَى مَغَانِمَ لِتَأْخُذُوهَا ذَرُونَا نَتَّبِعْكُمْ ، يُرِيدُونَ أَنْ يُبَدِّلُوا كَلَامَ اللهِ قُلْ لَنْ تَتَّبِعُونَا ، كَذَلِكُمْ قَالَ اللهُ مِنْ قَبْلُ فَسَيَقُولُونَ بَلْ تَحْسُدُونَنَا ، بَلْ كَانُوا لَا يَفْقَهُونَ إِلَّا قَلِيلاً (١٥) .

شرح المفردات

المراد بالمغانم : مغانم خيبر ، فإنه عليه الصلاة والسلام رجع من الحديبية فى ذى الحجة من سنة خمس وأقام بالمدينة بقيتها وأوائل المحرم ، ثم غزا خيبر بمن شهد الحديبية

ففتحها وغنم أموالا كثيرة خصهم بها والمراد بتبديل كلام الله الشركة فى المغانم دون أن ينصروا دين الله ويعلوا كلمته ، يفقهون : أى يفهمون والمراد بالفهم القليل فهمهم لأمور الدنيا دون أمور الدين .

المعنى الجملى

بعد أن ذكر سبحانه اعتذارهم عن التخلف فيما سلف بأنه إنما كان لمعالجة معايشهم وصلاح أموالهم ، وما كان له من سبب آخر يقعدهم عن نصرته — أعقب ذلك بما يكذبهم فى هذه المعذرة ، فإنهم قد طلبوا السير مع النبى صلى الله عليه وسلم فى وقعة خيبر لما يتوقعونه من مغانم يأخذونها ، ولو كانت التعلّة السالفة حقا ماطلبوا السير معه بحال .

ثم أخبر بأن الله سبحانه رفض طلبهم الذهاب مع رسول الله إلى خيبر ، فقالوا إن ذلك حسد من المؤمنين لهم أن ينالوا شيئا من الغنيمة ، فرد الله عليهم ما قالوا ، وأبان أنهم قوم ماديون لايسعون إلا للدنيا ، ولا يفهمون مايعلى شأن الدين ويرفع قدره .

الإيضاح

(سيقول المخلفون إذا انطلقتم إلى مغانم لتأخذوها ذرونا نتبعكم) أى سيقول لك الذين تخلفوا عنك فى عمرة الحديبية واعتلوا بشغلهم بأموالهم وأهليهم : دعونا نتبعكم ونسر معكم إلى غزو خيبر ، حين توقعوا ماسيكون فيها من مغانم . وفى هذا وعد للمبايعين الموافقين بالغنيمة ، والمتخلفين المخالفين بالحرمان .

(يريدون أن يبدلوا كلام الله) فإنه تعالى وعد أهل الحديبية بمغانم خيبر وحدهم لايشاركهم فيها غيرهم من الأعراب ، فقد جاء فى صحيح الأخبار « إن الله وعد

أهل الحديبية أن يعوّضهم من مغانم مكة مغانم خيبر إذا قفلوا موادعين لا يصيبون شيئا .

ثم أمر رسوله أن يقول لهم إقناطاً وتيئيساً من الذهاب معه إلى خيبر .

(قل لن تتبعونا) أى لاتأذن لهم فى الخروج معك معاقبة لهم من جنس ذنبهم فإن امتناعهم عن الخروج إلى الحديبية ماحصل إلا لأنهم كانوا يتوقعون المَغْرَم وهو جلاء العدو ومصاولته ، ولا يتوقعون المغنم ، فلما انعكست الآية فى خيبر طلبوا ذلك فعاقبهم الله بطردهم من المغانم .

ثم أكد هذا المنع بقوله :

(كذلكم قال الله من قبل) أى هكذا قال الله لنا من قبل مرجعنا من الحديبية إليكم : إن غنيمة خيبر لمن شهد الحديبية معنا ، ولستم ممن شهدها ، فليس لكم أن تتبعونا لأن غنيمتها لغيركم .

ثم أخبر بأنهم سيردّون عليك مقالك السابق «كَذَٰلِكُمْ قَالَ اللَّهُ مِنْ قَبْلُ» فقال:

(فسيقولون بل تحسدوننا) أى إن الله ما قال ذلك من قبل ، بل أنتم تحسدوننا أن نصيب معكم مغنما ، ومن ثم منعتمونا .

فردّ عليهم اتهام رسوله وصحبه بالحسد فقال :

(بل كانوا لايفقهون إلا قليلا) أى ما الأمر كما يقول هؤلاء المنافقون من الأعراب : من أنكم تمنعونهم عن اتباعكم حسداً منكم لهم على أن يصيبوا معكم من العدو مغنما ، بل إنما كان لأنهم لايفقهون من أمر الدين إلا قليلا ، ولو فقهوا ماقالوا ذلك لرسوله وللمؤمنين ، بعد أن أخبرهم بأن الله منعهم غنائم خيبر .

وفى هذا إشارة إلى أن ردّهم حكم الله ، وإثبات الحسد لرسوله والمؤمنين — ناشئ من الجهل وقلة التدبر .

قُلْ لِلْمُخَلَّفِينَ مِنَ الْأَعْرَابِ سَتُدْعَوْنَ إِلَى قَوْمٍ أُولِي بَأْسٍ شَدِيدٍ تُقَاتِلُونَهُمْ أَوْ يُسْلِمُونَ، فَإِنْ تُطِيعُوا يُؤْتِكُمُ اللَّهُ أَجْرًا حَسَنًا، وَإِنْ تَتَوَلَّوْا كَمَا تَوَلَّيْتُمْ مِنْ قَبْلُ يُعَذِّبْكُمْ عَذَابًا أَلِيمًا (١٦) لَيْسَ عَلَى الْأَعْمَى حَرَجٌ وَلَا عَلَى الْأَعْرَجِ حَرَجٌ وَلَا عَلَى الْمَرِيضِ حَرَجٌ، وَمَنْ يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ يُدْخِلْهُ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ، وَمَنْ يَتَوَلَّ يُعَذِّبْهُ عَذَابًا أَلِيمًا (١٧).

شرح المفردات

قال الزهرى ومقاتل وجماعة: المراد بالقوم أولى البأس الشديد بنو حنيفة أصحاب مسيلمة الكذاب، وقال قتادة: هم هوازن وغطفان، وقال ابن عباس ومجاهد: هم أهل فارس، وقال الحسن: هم فارس والروم، قال ابن جرير: إنه لم يقم دليل من نقل ولا من عقل على تعيين هؤلاء القوم، فلندع الأمر على إجماله دون حاجة إلى التعيين، والبأس: النجدة وشدة المراس فى القتال، والحرج: الإثم والذنب.

المعنى الجملى

بعد أن رفض سبحانه إشراك المتخلفين فى قتال خيبر عقابًا لهم على تقاعدهم عن نصرة الله ورسوله فى الحديبية — أردف ذلك ببيان أن باب القتال لا يزال مفتوحا أمامكم، فإن شئتم أن تبرهنوا على مالكم من بلاء فى ميدان القتال فاستعدوا فستندبون إلى مواجهة قوم أولى بأس ونجدة، فإما أن يسلموا وإما أن تبارزوهم حتى تبيدوا خضراءهم، ولا تبقوا منهم ديّارا ولا نافخ نار، فإن أجبتم داعى الله أثابكم على مافعلتم جزيل الأجر، وإن نكصتم على أعقابكم كما فعلتم من قبل فستجزون

العذاب الأليم ، ثم ذكر الأعذار المبيحة للتخلف عن الجهاد ، ومنها ماهو لازم كالعمى والعرج ، ومنها ماهو عارض يطرأ ويزول كالمرض ، ثم أعقب ذلك بالترغيب فى الجهاد والوعيد بالعذاب الأليم من مذلة فى الدنيا ، ونار موقدة فى الآخرة لمن نكل عنه وأقبل على الدنيا ، وترك مايقرّبه من ربه .

الإيضاح

(قل للمخلفين من الأعراب ستدعون إلى قوم أولى بأس شديد تقاتلونهم أو يسلمون) أى قل لهؤلاء المخلفين الذين تقدم ذكرهم — إنكم ستندبون إلى قتال قوم من أولى البأس والنجدة ، فعليكم أن تخيروهم بين أمرين : إما السيف ، وإما الإسلام . وهذا حكم عام فى مشركى العرب والمرتدين يجب اتباعه .

ثم وعدهم إذا أجابوا بقوله :

(فإن تطيعوا يؤتكم الله أجرا حسنا) أى فإن تستجيبوا وتنفروا للجهاد وتؤدوا ماطُلب منكم أداؤه — يؤتكم ربكم الأجر الحسن والثواب الجزيل ، فتنالوا المغانم فى الدنيا ، وتدخلوا الجنة فى الآخرة .

كما أوعد من نكص على عقبه بقوله :

(وإن تتولوا كما توليتم من قبل يعذبكم عذابا أليما) أى وإن تعصوا ربكم فتدبروا عن طاعته ، وتخالفوا أمره فتتركوا قتال أولى النجدة والبأس إذا دعيتم إلى قتالهم ، كما عصيتموه فى أمره إياكم بالمسير مع رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى مكة يعذبكم العذاب الأليم بالمذلة فى الدنيا والنار فى الآخرة .

ثم ذكر الأعذار المبيحة للتخلف عن القتال فقال :

(ليس على الأعمى حرج ، ولا على الأعرج حرج ، ولا على المريض حرج) أى لا إثم على ذوى الأعذار إذا تخلفوا عن الجهاد وشهود الحرب مع المؤمنين إذا هم لقوا عدوهم للعلل التى بهم ، والأسباب التى تمنعهم من شهودها كالعمى والعرج والمرض .

روى أنه لما نزل قوله « وَإِنْ تَتَوَلَّوْا كَمَا تَوَلَّيْتُمْ » الآية . قال أهل الزمانة : كيف بنا يا رسول الله ؟ فأنزل الله : « لَيْسَ عَلَى الْأَعْمَى حَرَجٌ » الآية .

وقال مقاتل : عذر الله أهل الزمانة الذين تخلفوا عن المسير إلى الحديبية بهذه الآية .

ثم رغب سبحانه فى الجهاد وطاعة الله ورسوله ، وأوعد على تركه بقوله :

(ومن يطع الله ورسوله يدخله جنات تجرى من تحتها الأنهار، ومن يتولّ يعذبه عذابا أليما) أى ومن يطع الله ورسوله فيجيب الداعى إلى حرب أعدائه أهل الشرك دفاعا عن دينه و إعلاء لكلمته — يدخله يوم القيامة جنات تجرى من تحتها الأنهار ، ومن يعص الله ورسوله فيتخلف عن القتال إذا دعى إليه — يعذبه عذابا موجعا فى نار جهنم :

لَقَدْ رَضِىَ اللهُ عَنِ الْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ الشَّجَرَةِ فَعَلِمَ مَافِى قُلُوبِهِمْ فَأَنْزَلَ السَّكِينَةَ عَلَيْهِمْ وَأَثَابَهُمْ فَتْحًا قَرِيبًا (١٨) وَمَغَانِمَ كَثِيرَةً يَأْخُذُونَهَا. وَكَانَ اللهُ عَزِيزًا حَكِيماً (١٩) .

شرح المفردات

الرضا : مايقابل السخط ، يقال رضى عنه ورضى به ورضيته ، والمراد بالمؤمنين أهل الحديبية ، ورضاه عنهم لمبايعتهم رسوله صلى الله عليه وسلم ، والشجرة : سَمُرة (شجرة طلح — وهى المعروفة الآن بالسنط) بايع المؤمنون تحت ظلها رسول الله صلى الله عليه وسلم ، مافى قلوبهم : أى من الصدق والإخلاص فى المبايعة ، والسكينة: الطمأنينة والأمن وسكون النفس ، فتحاً قريباً : هو فتح خيبر عقب انصرافهم من

الحديبية كما علمت ، مغانم كثيرة : هى مغانم خيبر وكانت خيبر أرضا ذات عقار وأموال قسمها رسول الله صلى الله عليه وسلم بين المقاتلة فأعطى الفارس سهمين والراجل سهما ، عزيزاً : أى غالبا ، حكيما : أى يفعل على مقتضى الحكمة فى تدبير خلقه .

المعنى الجملى

بعد أن بيّن حال المخلّفين فيما سلف — عاد إلى بيان حال المبايعين الذين ذكرهم فيما تقدم بقوله : « إِنَّ الَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ اللَّهَ » فأبان رضاه عنه لأجل تلك البيعة ، لما علم من صدق إيمانهم ، وإخلاصهم فى بيعتهم ، وأنزل عليهم طمأنينة ورباطة جأش وجازاهم بمغانم كثيرة أخذوها من خيبر بعد عودتهم من الحديبية ، وكان الله عزيزاً : أى غالبا على أمره ، موجداً أفعاله وأقواله على مقتضى الحكمة .

عن سلمة بن الأكوع قال: « بينما نحن قائلون ، إذ نادى منادى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، أيها الناس : البيعةَ البيعةَ ، نزل روح القدس ، فثُرنا إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو تحت شجرة سمرة فبايعناه ، فذلك قوله تعالى : « لَقَدْ رَضِيَ اللَّهُ عَنِ الْمُؤْمِنِينَ » الآية . فبايع لعثمان بإحدى يديه على الأخرى ، فقال الناس : هنيئا لابن عفان ، يطوف بالبيت ونحن هنا ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم لو مكث كذا وكذا سنة ماطاف حتى أطوف » أخرجه ابن جرير وابن أبى حاتم وابن مردويه .

وأخرج البخارى عن سلمة أيضا قال : « بايعت رسول الله صلى الله عليه وسلم تحت الشجرة ، قيل على أى شىء كنتم تبايعون يومئذ ؟ قال : على الموت » .

وعن جابر أن النبي صلى الله عليه وسلم قال : « لايدخل النار أحد ممن بايع تحت الشجرة » . أخرجه أحمد ومسلم وأبوداود والترمذى .

الإيضاح

(لقد رضى الله عن المؤمنين إذ يبايعونك تحت الشجرة) أخبر سبحانه عن رضاه عن المؤمنين الذين بايعوا تحت الشجرة بيعة الرضوان ، وقد عرفت أنهم كانوا أربع عشرة مائة ، كما عرفت أسباب هذه البيعة .

ولما أراد أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يعلموا هذه الشجرة بعد ذلك كثر اختلافهم فيها ، فلما اشتبهت عليهم وصار كل واحد يشير إلى شجرة غير التى يشير إليها الآخر، قال عمر: سيروا ذهبت الشجرة ، وقال ابن عمر : مااجتمع منا اثنان على الشجرة التى بايعنا تحتها ، وكانت رحمة من الله .

وعن نافع قال: بلغ عمرَ أن ناسا يأتون الشجرة التى بويع تحتها فأمر بها فقطعت أخرجه ابن أبى شيبة فى المصنَّف .

(فعلم مافى قلوبهم فأنزل السكينة عليهم وأثابهم فتحا قريبا) أى فعلم مافى قلوبهم من الصدق والسمع والطاعة ، فأنزل عليهم الطمأنينة وسكون النفس ورباطة الجأش وأعطاهم جزاء ماوهبوه من الطاعة — فتح خيبر عقب انصرافهم من الحديبية كما علمت .

(ومغانم كثيرة يأخذونها) أى وعوّضهم فى العاجل مما رجوا الظفر به من غنائم أهل مكة بقتالهم — فتح خيبر فأخذوا أموال يهودها وعقارهم وكان كثيرا ، وخصهم بأهل بيعة الرضوان لايشركهم فيه سواهم .

(وكان الله عزيزا حكيما) وكان الله ذا عزة فى انتقامه ممن انتقم من أعدائه ، حكيما فى تدبير أمور خلقه وتصريفه إياهم فيما شاء من قضائه .

وَعَدَكُمُ اللهُ مَغَانِمَ كَثِيرَةً تَأْخُذُونَهَا فَعَجَّلَ لَكُمْ هٰذِهِ وَكَفَّ أَيْدِيَ النَّاسِ عَنْكُمْ وَلِتَكُونَ آيَةً لِلْمُؤْمِنِينَ وَيَهْدِيَكُمْ صِرَاطًا مُسْتَقِيمًا (٢٠) وَأُخْرَى لَمْ تَقْدِرُوا عَلَيْهَا قَدْ أَحَاطَ اللهُ بِهَا، وَكَانَ اللهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرًا (٢١) وَلَوْ قَاتَلَكُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوَلَّوُا الْأَدْبَارَ ثُمَّ لَا يَجِدُونَ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا (٢٢) سُنَّةَ اللهِ الَّتِي قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلُ وَلَنْ تَجِدَ لِسُنَّةِ اللهِ تَبْدِيلًا (٢٣) وَهُوَ الَّذِي كَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنْكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ عَنْهُمْ بِبَطْنِ مَكَّةَ مِنْ بَعْدِ أَنْ أَظْفَرَكُمْ عَلَيْهِمْ، وَكَانَ اللهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرًا (٢٤) .

شرح المفردات

المغانم الكثيرة: ماوُعد به المؤمنون إلى يوم القيامة، فعجل لكم هذه : أى مغانم خيبر، أيدى الناس: أى أيدى اليهود عن المدينة بعد خروج الرسول منها إلى الحديبية ، آية : أى أمارة للمؤمنين يعرفون بها : (١) صدق الرسول صلى الله عليه وسلم . (٢) حياطة الله لرسوله وللمؤمنين وحراسته لهم فى مشهدهم ومغيبهم . (٣) معرفة المؤمنين الذين سيأتون بعدُ أن كلاءته تعالى ستعمهم أيضا ماداموا على الجادّة ، الصراط المستقيم : هو الثقة بفضل الله والتوكل عليه فيما تأتون وما تذرون ، وأخرى : أى مغانم أخرى هى مغانم فارس والروم ، أحاط الله بها : أى أعدها لكم وهى تحت قبضته يُظهر عليها من أراد ، لولّوا الأدبار : أى لانهزموا ، والولىّ : الحارس الحامى ، والنصير : المعين والمساعد ، سنة الله : أى سنّ سبحانه غلبة أنبيائه سنة قديمة فيمن مضى من الأمم كما قال : « لَأَغْلِبَنَّ أَنَا وَرُسُلِي » أيديهم عنكم : أى أيدى كفار

مكة ، وأيديكم عنهم ببطن مكة ، يعنى بالحديبية ، أظفركم عليهم : أى أعلى كلمته وجعلكم ذوى غلبة عليهم ، فإن عكرمة بن أبى جهل خرج فى خمسمائة إلى الحديبية فبعث رسول الله صلى الله عليه وسلم خالد بن الوليد على جند فهزمهم حتى أدخلهم حيطان مكة ثم عاد .

المعنى الجملى

بعد أن وعدهم فيما سلف بمغانم خيبر — أردف ذلك ببيان أن ما آتاهم من الفتح والمغانم ليس هو الثواب وحده ، بل الجزاء أمامهم ، وإنما عجل لهم هذه لتكون علامة على صدق رسوله صلى الله عليه وسلم وحياطته له ، وحراسته للمؤمنين وليثبّتكم على الإسلام ، وليزيدكم بصيرة ، وسيؤتيكم مغانم أخرى من فارس والروم وغيرهما ما كنتم تقدرون عليها لولا الإسلام ، فقد كانت بلاد العرب شبه مستعمرات لهذه الدول فأقدرهم الله عليها بعز الإسلام .

ثم ذكر أنه لو قاتلكم أهل مكة ولم يصالحوكم لانهزموا ولم يجدوا وليًّا ولا نصيرا يدافع عنهم ، وتلك هى سنة الله من غلبة المؤمنين ، وخذلان الكافرين ، ثم امتنّ على عباده المؤمنين بأنه كفّ أيدى المشركين عنهم ، فلم يصل إليهم منهم سوء ، وكف أيدى المؤمنين عن المشركين فلم يقاتلوهم عند المسجد الحرام ، فصان كلاّ من الفريقين عن الآخر ، وأوجد صلحا فيه خيرة للمؤمنين ، وعافية لهم فى الدنيا والآخرة .

الإيضاح

(وعدكم الله مغانم كثيرة تأخذونها ، فعجل لكم هذه وكفّ أيدى الناس عنكم ، ولتكون آية للمؤمنين ، ويهديكم صراطا مستقيما) أى وعدكم الله مغانم كثيرة من غنائم أهل الشرك إلى يوم القيامة ، ولكن عجل لكم مغانم خيبر ، وكف أيدى

اليهود عن المدينة بعد خروج النبي صلى الله عليه وسلم إلى الحديبية وخيبر قاله قتادة واختاره ابن جرير الطبرى ، لتشكروه ولتكون أمارة للمؤمنين يعلمون بها أن الله حافظهم وناصرهم على أعدائهم على قلة عدوهم ، وليهديكم صراطا مستقيما بانقيادكم لأمره ، وموافقتكم رسولَه صلى الله عليه وسلم ، ويزيدكم يقينا بصلح الحديبية وفتح خيبر .

روى إياس بن سلمة قال : حدثنى أبى قال : « خرجنا إلى خيبر مع رسول الله صلى الله عليه وسلم فجعل عمى عامرٌ يرتجز بالقوم ثم قال :

تاللهِ لولا اللهُ ما اهتدينْا		ولا تصدَّقْنا ولا صلّينا
ونحن عن فضلك ما استغنينا		فثبِّت الأقدامَ إن لاقَينْا
وأنزلَنْ سكينةً علينا

فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : من هذا ؟ قال : أنا عامر ، قال : غفرلك ربك (وما استغفر لأحد إلا استشهد) قال : فنادى عمر بن الخطاب وهو على جمل له ، يانبى الله لوأمتعتنا بعامر ، فلما قدمنا خيبر خرج قائدهم مَرْحَبٌ يخطِر بسيفه ويقول :

قد علمت خَيْبَر أنى مرحبٌ		شاكى السلاح بطل مُجرَّب
إذا الحرب أقبلتْ تلتهب

فبرز له عامر بن عثمان فقال :

قد علمت خيبر أنى عامر		شاكى السلاح بطل مغامر

فاختلفا ضربتين ، فوقع سيف مرحب فى تُرْس عامر ، فرجع سيف عامر على نفسه ، فقطع أكحله (الأكحل : عرق فى اليد) فكانت فيها نفسه ، قال فأتيت النبى صلى الله عليه وسلم وأنا أبكى فقلت يارسول الله بطل عمل عامر . فقال من قال ذلك؟ قلت ناس من أصحابك ، قال من قال ذلك ؟ بل له أجره مرتين ، ثم أرسلنى إلى

علىّ وهو أرمد وقال لأعطينّ الراية رجلا يحب الله ورسوله ، ويحبه الله ورسوله ، فأتيت عليًّا فجئت به أقوده وهو أرمد حتى أتيت به رسول الله صلى الله عليه وسلم فتفل فى عينيه فبرئ وأعطاه الراية فخرج مرحب وقال :

أنا الذى سمتنى أمى مرحب شاكى السلاح بطل مجرّب

فقال علىّ كرم الله وجهه :

أنا الذى سمتنى أمى حيدره كليث غابات كريه المَنْظَرَهْ

أكيلكم بالسيف كيل السَّنْدَرَه[1]

قال : فضرب رأس مرحب فقتله ، ثم كان الفتح على يديه .

(وأخرى لم تقدروا عليها قد أحاط الله بها) أى ووعدكم الله فتح بلاد أخرى لم تقدروا عليها ، قد حفظها لكم حتى تفتحوها ، ومنعها من غيركم حتى تأخذوها كفارس والروم ، فقد أقدركم عليهم بعز الإسلام وقد كنتم قبل ذلك مستضعفين أمامهم لاتستطيعون دفعهم عن أنفسكم .

(وكان الله على كل شىء قديرا) أى وكان الله على كل مايشاء من الأشياء ذا قدرة لايتعذر عليه شىء .

(ولو قاتلكم الذين كفروا لولّوا الأدبار ثم لايجدون وليّا ولا نصيرا) يقول سبحانه مبشرا عباده المؤمنين بأنه لو ناجزهم المشركون لنصرهم عليهم ولانهزم جيش الكفر فارًّا مُدْبِراً لايجد وليًّا يتولى رعايته ويكلؤه ويحرسه ، ولا نصيراً يساعده ، لأنه محارب لله ولرسوله ولحزبه المؤمنين .

(سنة الله التى قد خلت من قبل ولن تجد لسنة الله تبديلا) أى هذه هى سنة الله فى خلقه . ماتقابل الكفر والإيمان فى موطن فَيْصَل إلا نصر الله المؤمنين على

---

(١) السندرة : مكيال واسع ، وكيلهم بها قتلهم قتلا واسعا ذريعا .

الكافرين ، ورفع الحق ووضع الباطل كما نصر يوم بدر أولياءه المؤمنين على قلة عَددهم وعُددهم ، وكثرة المشركين وكثرة عُددهم .

(وهو الذى كفّ أيديهم عنكم وأيديكم عنهم ببطن مكة بعد أن أظفركم عليهم) أى إن الله كف أيدى المشركين الذين كانوا خرجوا على عسكر رسول الله صلى الله عليه وسلم بالحديبية يلتمسون عِزّتهم ليصيبوا منهم ، فبعث رسول الله سريّة فأتى بهم أسرى ، ثم خلّى سبيلهم ولم يقتلهم منةً منه وفضلا .

روى أحمد وابن أبى شيبة وعبد بن حُمَيد ومسلم وأبو داود والنسائى فى آخرين عن أنس قال : « لما كان يوم الحديبية هبط على رسول الله صلى الله عليه وسلم وأصحابه ثمانون رجلا من أهل مكة فى السلاح من جَبَل التنعيم (التنعيم : موضع بين مكة وسَرِف) فدعا عليهم فأخذوا فعفا عنهم فنزلت هـذه الآية : (وَهُوَ الَّذِى كَفَّ أَيْدِيَهُمْ) » الخ .

وروى أحمد عن عبد الله بن مُغَفَّل المزنى رضى الله عنهما قال: « كنا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم فى أصل الشجرة التى قال الله فى القرآن ، وكان يقع من أغصان تلك الشجرة على ظهر رسول الله صلى الله عليه وسلم، وكان على بن أبى طالب وسهيل ابن عمرو بين يديه، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم لعلىّ رضى الله عنه — اكتب بسم الله الرحمن الرحيم ، فأخذ سهيل بيده وقال : مانعرف الرحمن الرحيم ، اكتب فى قضيتنا مانعرف . قال اكتب باسمك اللهم — وكتب : هذا ما صالح عليه محمد رسول الله أهل مكة ، فأمسك سهيل بن عمرو بيده وقال : لقد ظلمناك إن كنت رسوله . اكتب فى قضيتنا مانعرف ، فقال اكتب هذا ماصالح عليه محمد بن عبد الله فبينا نحن كذلك إذ خرج علينا ثلاثون شابًّا عليهم السلاح فثاروا فى وجوهنا ، فدعا عليهم رسول الله صلى الله عليه وسلم فأخذ الله بأبصارهم فقمنا إليهم فأخذناهم ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: هل جئتم فى عهـد أحد ؟ وهل جعل لكم أحد أمانا ؟

فقالوا لا ، فخلّى سبيلهم فأنزل الله تعالى : (وهو الذى كف أيديهم عنكم وأيديكم عنهم ببطن مكة من بعد أن أظفركم عليهم) » الآية .

(وكان الله بما تعملون بصيرا) أى وكان الله بأعمالكم وأعمالهم بصيرا لايخفى عليه شىء منها ، وهو مجازيكم ومجازيهم بها .

هُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوكُمْ عَنِ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَالْهَدْىَ مَعْكُوفاً أَنْ يَبْلُغَ مَحِلَّهُ ، وَلَوْلاَ رِجَالٌ مُؤْمِنُونَ وَنِسَاءٌ مُؤْمِنَاتٌ لَمْ تَعْلَمُوهُمْ أَنْ تَطَئُوهُمْ فَتُصِيبَكُمْ مِنْهُمْ مَعَرَّةٌ بِغَيْرِ عِلْمٍ . لِيُدْخِلَ اللَّهُ فِى رَحْمَتِهِ مَنْ يَشَاءُ لَوْ تَزَيَّلُوا لَعَذَّبْنَا الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ عَذَاباً أَلِيماً (٢٥) إِذْ جَعَلَ الَّذِينَ كَفَرُوا فِى قُلُوبِهِمُ الْحَمِيَّةَ حَمِيَّةَ الْجَاهِلِيَّةِ فَأَنْزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَى رَسُولِهِ وَعَلَى الْمُؤْمِنِينَ وَأَلْزَمَهُمْ كَلِمَةَ التَّقْوَى وَكَانُوا أَحَقَّ بِهَا وَأَهْلَهَا وَكَانَ اللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيماً (٢٦) .

شرح المفردات

الهدى : مايقدّم قربانا لله حين أداء مناسك الحج أو العمرة ، معكوفا : أى محبوسا ؛ يقال عكفت الرجل عن حاجته : إذا حبسته عنها ، محله : أى المكان الذى يسوغ فيه نحره وهو منى ، والوطء : الدوس، والمراد به الإهلاك، وفى الحديث « اللهم اشدد وطأتك على مضر» ، والمعرة : المكروه والمشقة، من عرّه إذا عراه ودهاه بما يكره والتزيل : التفرق والتميز ، والحميّة : الأنفة ، يقال حميتُ من كذا حميّة إذا أنفت منه وداخلك منه عار ، والمراد بها ثوران القوة الغضبية ، وحمية الجاهلية : حمية فى غير

موضعها لا يؤيدها دليل ولا برهان ، وكلمة التقوى هى : لا إله إلا الله ، وأهلها : أى المستأهلين لها .

المعنى الجملى

بعد أن أبان فيما سلف أن الله كف أيدى المؤمنين عن الكافرين ، وكف أيدى الكافرين عن المؤمنين — عيّن هنا مكان الكف وهو البيت الحرام الذى صدوا المؤمنين عنه ومنعوا الهدْى معكوفا أن يبلغ محله ، والسبب الذى لأجله كفوهم هو كفرهم بالله ، ثم أخبرهم بأنه لولا أن يقتلوا رجالا مؤمنين ونساء مؤمنات لاعلم لهم بهم فيلزمهم العار والإثم — لأذن لهم فى دخول مكة ، ولقد كان الكف ومنع التعذيب عن أهل مكة ليُدخل الله فى دين الإسلام من يشاء منهم بعد الصلح وقبل دخولها ، وليمنعنّ الأذى عن المؤمنين منهم ، ولو تفرقوا وتميز بعضهم من بعض لعذبنا الذين كفروا منهم عذابا أليما بالقتل والسبى حين جعلوا فى قلوبهم أنفة الجاهلية التى تمنع من الإذعان للحق ، ولكن أنزل الله الثبات والوقار على رسوله وعلى المؤمنين فامتنعوا أن يبطشوا بهم ، وألزمهم الوفاء بالعهد وكانوا أحق بذلك من غيرهم إذ اختارهم الله لدينه وصحبة نبيِّه .

روى أنه لما همّ رسول الله صلى الله عليه وسلم بقتالهم بعثوا سهيل بن عمرو وحويطب بن عبد العُزّى ومِكرز بن حفص ليسألوه أن يرجع فى عامه على أن تُخْلى قريش مكة من العام القابل ثلاثة أيام فأجابهم وكتبوا بينهم كتابا، فقال عليه الصلاة والسلام لعلىّ رضى الله عنه: اكتب بسم الله الرحمن الرحيم، فقالوا: لا نعرف هذا : اكتب باسمك الله ، ثم قال عليه السلام : اكتب هذا ماصالح عليه رسول الله أهل مكة ، فقالوا لو كنا نعلم أنك رسول الله ماصددناك عن البيت وما قاتلناك ، اكتب هذا ماصالح عليه محمد بن عبد الله أهل مكة ، فقال صلى الله عليه وسلم اكتب ما تريدون ،

بهم المؤمنون أن يأبوا ذلك وأن يبطشوا بهم ، فأنزل الله السكينة عليهم فتوقروا واحتملوا كل هذا ، وقد تقدم ذلك برواية أخرى .

الإيضاح

(هم الذين كفروا وصدوكم عن المسجد الحرام والهدْى معكوفا أن يبلغ محله) أى هم الذين جحدوا توحيد الله وصدوكم أيها المؤمنون بالله عن دخول المسجد الحرام وصدوا الهدى محبوسا أن يبلغ مَحِل نحره وهو الحرم عنادا منهم و بغيا ، وكان رسول الله ساق معه حين خرج إلى مكة فى سفرته تلك سبعين بدنة .

(ولولا رجال مؤمنون ونساء مؤمنات لم تعلموهم أن تطئوهم فتصيبكم منهم معرة بغير علم) أى ولولا هؤلاء الذين يكتمون إيمانهم خيفة على أنفسهم - بين أظهرهم - لسلّطنا كم عليهم فقتلتموهم وأبدتم خضراءهم ، ولكن بين أفنائهم من المؤمنين والمؤمنات من لاتعرفونهم حين القتل ، ولو قتلتموهم للحقتكم المعرة والمشقة ، بما يلزمكم فى قتلهم من كفارة وعيب .

والخلاصة — إنه لولا وجود مؤمنين مختلطين بالمشركين غير متميزين منهم — لوقع ما كان جزاءهم لصدهم وكفرهم ، ولو حصل ذلك لزمكم العيب ؛ إذ يقول المشركون إن المسلمين قتلوا أهل دينهم .

(ليدخل الله فى رحمته من يشاء) أى وقد حال بينكم و بين قتالهم لدخول مكة . إخراج المؤمنين من بين أظهرهم ، وليدخل فى دينه من يشاء منهم قبل أن تدخلوها .

عن أبى جمعة جنيد بن سبع قال : « قاتلت رسول الله صلى الله عليه وسلم أول النهار كافرا وقاتلت معه آخر النهار مسلما ، وفينا نزلت : ولولا رجال الخ . وكنا تسعة نفر سبعة رجال وامرأتين » ، وفى رواية ابن أبى حاتم « كنا ثلاثة رجال وتسع نسوة » أخرجه الطبرانى وأبو يعلى وابن مردويه .

(لو تزيلوا لعذبنا الذين كفروا منهم عذابا أليما) أى لو تميز الكفار من المؤمنين الذين بين أظهرهم لسلّطنا كم عليهم فقتلتموهم قتلا ذريعا .

ولما بين شرط استحقاقهم للعذاب بيّن وقته فقال :

(إذ جعل الذين كفروا فى قلوبهم الحميّة حمية الجاهلية فأنزل الله سكينته على رسوله وعلى المؤمنين وألزمهم كلة التقوى وكانوا أحق بها وأهلها) أى لعذبناهم حين جعلوا فى قلوبهم أنفة الجاهلية ، فامتنع سهيل بن عمرو أن يكتب فى كتاب الصلح الذى بين رسول الله والمشركين (بسم الله الرحمن الرحيم) وأن يكتب فيه (محمد رسول الله) وامتنع هو وقومه أن يدخل رسول الله صلى الله عليه وسلم عامه هذا المسجد الحرام ، فأنزل الله الصبر والطمأنينة على رسوله ففهم عن الله مراده وجرى على ما يرضيه ، وأنزله على المؤمنين فألزمهم أمره وقبلوه ، وحماهم من همزات الشياطين وألزمهم كلة التوحيد والإخلاص لله فى العمل ، وكانوا أحق بها ، وكانوا أهلها ، إذ هم أهل الخير والصلاح .

(وكان الله بكل شىء عليما) سواء أكان من المؤمنين أم من الكفار فيجازى كلا بما عمل .

لَقَدْ صَدَقَ اللَّهُ رَسُولَهُ الرُّؤْيَا بِالْحَقِّ لَتَدْخُلُنَّ الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ إِنْ شَاءَ اللَّهُ آمِنِينَ مُحَلِّقِينَ رُءُوسَكُمْ وَمُقَصِّرِينَ لَا تَخَافُونَ فَعَلِمَ مَا لَمْ تَعْلَمُوا فَجَعَلَ مِنْ دُونِ ذَلِكَ فَتْحًا قَرِيبًا (٢٧) هُوَ الَّذِى أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَى وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَكَفَى بِاللَّهِ شَهِيدًا (٢٨) .

شرح المفردات

الرؤيا : هى رؤيا منام وحُلْم ، وصدق الله رسوله الرؤيا : أى صدقه فى رؤياه ولم يكذبه ، محلقين رءوسكم ومقصرين : أى يحلق بعضكم ويقصّر بعض آخر بإزالة بعض الشعر ، ليظهره على الدين كله : أى ليعليه على سائر الأديان : حقّها وباطلها ، وأصل الإظهار : جعل الشىء باديا ظاهرا للرائى ثم شاع استعماله فى الإعلاء .

المعنى الجملى

رأى عليه الصلاة والسلام فى المنام وهو بالمدينة قبل أن يخرج إلى الحديبية أنه يدخل المسجد الحرام هو وأصحابه ، آمنين منهم من يحلق ومنهم من يقصر ، فأخبر بذلك أصحابه ففرحوا وحسبوا أنهم داخلون مكة عامهم هذا ، فلما انصرفوا ولم يدخلوا شق ذلك عليهم ، وقال المنافقون : أين رؤياه التى رآها ؟ فأنزل الله هذه الآية ودخلوا فى العام المقبل .

ومما روى « أن عمر بن الخطاب قال : أتيت النبى صلى الله عليه وسلم فقلتُ : ألستَ نبى الله حقا ؟ قال بلى ، قلت فلِمَ نعطَى الدنية فى ديننا إذن؟ قال إنى رسول الله ولست أعصيه وهو ناصرى ، قلتُ : أولست كنت تحدثنا أنا سنأتى البيت ونطوف به؟ قال فأتيت أبا بكر فقلت يا أبا بكر : أليس هذا نبى الله حقا ؟ قال بلى ، قلت ألسنا على الحق ، وعدونا على الباطل ؟ قال بلى . قلت فلم نعطَى الدنية فى ديننا ؟ قال : أيها الرجل إنه رسول الله وليس يعصى ربه وهو ناصره ، فاستَمْسِكْ بغرْزِه (سر على نهجه) فوالله إنه لعلى الحق ، قلت : أليس كان يحدثنا أنه سيأتى البيت ويطوف به ؟ قال بلى . قال فأخبرك أنه آتيه العام ؟ قلتُ لا ، قال فإنك تأتيه وتطوف به » .

الإيضاح

(لقد صدق الله رسوله الرؤيا بالحق لتدخلنّ المسجد الحرام إن شاء الله آمنين محلقين رءوسكم ومقصرين لاتخافون، فعلم مالم تعلموا فجعل من دون ذلك فتحا قريبا) أى لقد صدق الله رسوله محمدا صلى الله عليه وسلم رؤياه التى أراها إياه أنه يدخل هو وأصحابه البيت الحرام آمنين لايخافون أهل الشرك، محلِّقاً بعضهم ومقصّرا بعضهم الآخر، فعلم جل ثناؤه مالم تعلموا، وذلك هو علمه تعالى بما بمكة من الرجال والنساء المؤمنين الذين لم يعلمهم المؤمنون، ولو دخلوها هذا العام لوطئوهم بالخيل والرَّجْلِ فأصابتهم منهم معرة بغير علم، فردهم الله عن مكة من أجل ذلك، فجعل من دون دخولهم المسجد فتحا قريبا هو صلح الحديبية وفتح خيبر، لتستروح إليه قلوب المؤمنين إلى أن يتيسر اليوم الموعود.

ثم أكد صدق الرسول فى الرؤيا بقوله:

(هو الذى أرسل رسوله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله) أى هو الذى أرسل رسوله بالهدى ودين الإسلام، ليبطل به الملل كلها بنسخ سائر الديانات، وإظهار فساد العقائد الزائفات، حتى لا يكون دين سواه.

ولما كان هذا وعدا لابد من تحققه أعقبه بقوله:

(وكفى بالله شهيدا) على أن ما وعده من إظهار دينه على جميع الأديان كائن لامحالة.

وفى هـذا تسلية له عما وقع من سهيل بن عمرو، إذ لم يرض بكتابة «محمد رسول الله» وقال ما قال.

مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللَّهِ وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ تَرَاهُمْ رُكَّعًا سُجَّدًا يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِنَ اللَّهِ وَرِضْوَانًا سِيمَاهُمْ فِي وُجُوهِهِمْ مِنْ أَثَرِ

السُّجُودِ ذَلِكَ مَثَلُهُمْ فِي التَّوْرَاةِ وَمَثَلُهُمْ فِي الْإِنْجِيلِ كَزَرْعٍ أَخْرَجَ شَطْأَهُ فَآزَرَهُ فَاسْتَغْلَظَ فَاسْتَوَى عَلَى سُوقِهِ يُعْجِبُ الزُّرَّاعَ لِيَغِيظَ بِهِمُ الْكُفَّارَ وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ مِنْهُمْ مَغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا (٢٩) .

شرح المفردات

أشداء : واحدهم شديد ، رحماء : واحدهم رحيم ، فضلا : أى ثوابا ، والسيماء والسيمياء من السومة (بالضم) وهى العلامة كما قال :

غلام رماه الله بالحسن يافعا   له سيمياء لاتشق على البصر

مثلهم : أى وصفهم العجيب الجارى مجرى الأمثال فى الغرابة ، والشطء : فروخ الزرع ، وهو ماخرج منه، وتفرع فى شاطئيه : أى جانبيه وجمعه أشطاء ، وشطأ الزرع وأشطأ: إذا أخرج فراخه، وهو فى الحنطة والشعير والنخل وغيرها ، وآزره : أعانه وقوّاه وأصله من المؤازرة وهى المعاونة ، واستوى على سوقه : أى استقام على قصبه وأصوله، والسوق ، واحدها ساق .

المعنى الجملى

بعد أن ذكر أنه أرسل رسوله بالهدى ودين الإسلام ، ليعلى شأنه على سائر الأديان — أردف هـذا ببيان حال الرسول والمرسل إليهم ، فوصفهم بأوصاف كلها مدائح لهم ، وذكرى لمن بعدهم ، وبها سادوا الأمم وامتلكوا الدول وقبضوا على ناصية العالم أجمع ، وهى :

(١) إنهم غلاظ على من خالف دينهم وناوأهم العداء ، رحماء فيما بينهم .
(٢) إنهم جعلوا الصلاة والإخلاص لله ديدنهم فى أكثر أوقاتهم .
(٣) إنهم يرجون بعملهم الثواب من ربهم والزلفى إليه ورضاه عنهم .

(٤) إنهم لهم سيمى يعرفون بها ، فلهم نور فى وجوههم ، وخشوع وخضوع يعرفه أولو الفطن :

(٥) إن الإنجيل ضرب بشأنهم المثل فقال : سيخرج قوم ينبتون نبات الزرع ، يأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر .

ذاك أنهم فى بدء الإسلام كانوا قليلى العدد ثم كثروا واستحكموا وترقى أمرهم يوما فيوما حتى أعجب الناس بهم ، فإن النبى صلى الله عليه وسلم قام وحده ثم قوّاه الله بمن معه كما يقوى الطاقة الأولى من الزرع ما يحتفّ بها مما يتولد منها .

الإيضاح

(محمد رسول الله) أى إن محمدا صلى الله عليه وسلم رسول الله بلاشك ولا ريب مهما أنكر المنكرون ، وامترى الجاحدون .

(والذين معه أشداء على الكفار رحماء بينهم) أى إن صحابته الذين معه غليظة قلوبهم على الكفار ، رقيقة قلوب بعضهم على بعض ، لينة أنفسهم لهم ، هينة عليهم .

ونحو الآية قوله : « فَسَوْفَ يَأْتِي اللهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ ، أَذِلَّةٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى الْكَافِرِينَ » وقوله : « يَأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا قَاتِلُوا الَّذِينَ يَلُونَكُمْ مِنَ الْكُفَّارِ وَلْيَجِدُوا فِيكُمْ غِلْظَةً » وفى الحديث « مثل المؤمنين فى توادّهم وتراحمهم كمثل الجسد الواحد إذا اشتكى منه عضو تداعى سائر الأعضاء بالحمّى والسهر » وقوله صلى الله عليه وسلم « المؤمن للمؤمن كالبنيان يشد بعضه بعضا، وشبك بين أصابعه » وعلى هذا جاء قوله :

حليم إذا ما الحلم زين أهله ... على أنه عند العدو مهيب

(تراهم ركعا سجدا يبتغون فضلا من ربهم ورضوانا) أى تراهم دائبين على الصلاة مخلصين لله محتسبين فيها الأجر وجزيل الثواب عنده طالبين رضاه عنهم « وَرِضْوَانٌ مِنَ اللهِ أَكْبَرُ » .

(سيماهم فى وجوههم من أثر السجود) أى لهم سمت حسن وخشوع وخضوع يظهر أثره فى الوجوه ، ومن ثم قيل : إن للحسنة نوراً فى القلب ، وضياء فى الوجه وسعة فى الرزق ومحبة فى قلوب الناس . وقال عثمان بن عفان رضى الله عنه : ما أسرّ أحد سريرة إلا أبداها الله تعالى على صفحات وجهه ، وفلتات لسانه .

والخلاصة — إن كل مايفعله المرء أو يتصوره يظهر على صفحات الوجه ، فالمؤمن إذا كانت سريرته صحيحة مع الله أصلح الله عز وجل ظاهره للناس .

روى عن عمر أنه قال : من أصلح سريرته أصلح الله علانيته ، وعن أبى سعيد رضى الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : «لو أن أحدكم يعمل فى صخرة صماء ليس لها باب ولا كوّة لخرج عمله للناس كائنا ما كان » .

ثم أخبر سبحانه أنه نوّه بفضلهم فى الكتب المنزلة والأخبار المتداولة فقال :

(ذلك مثلهم فى التوراة) أى هذه الصفة التى وصفت لكم من صفات أتباع محمد صلى الله عليه وسلم هى صفتهم فى التوراة .

(ومثلهم فى الإنجيل كزرع أخرج شطأه فآزره فاستغلظ فاستوى على سوقه يعجب الزراع) أى إن أصحاب محمد صلى الله عليه وسلم يكونون قليلين ثم يزدادون ويكثرون ويستغلظون كزرع أخرج فراخه التى تتفرع على جانبيه كما يشاهد فى الحنطة والشعير وغيرهما ، فيقوى ويتحول من الدقة إلى الغلظ ، ويستقيم على أصوله ، فيعجب به الزراع لقوته وكثافته وغلظه وحسن منظره .

والخلاصة — إن هذا مثل ضربه الله لبدء الإسلام وترقيه فى الزيادة إلى أن قوى واستحكم وأعجب الناس .

روى أنس بن مالك أن النبى صلى الله عليه وسلم قال : « أرحم أمتى أبو بكر ، وأشدهم فى أمر الله عمر ، وأصدقهم حياء عثمان ، وأقضاهم علىّ ، وأفرضهم زيد ، وأقرؤهم أبىّ ، وأعلمهم بالحلال والحرام معاذ بن جبل ، ولكل أمة أمين ، وأمين هذه الأمة أبو عبيدة بن الجرّاح » .

ثم بين أنه إنما جعلهم كذلك .

(ليغيظ بهم الكفار) أى إنه تعالى نمّاهم وأكثر عددهم ليغيظ بهم الكفار ، إذ يعتقدون أن الله متمّ بهم نوره ولو أبى الجاحدون .

[تنبيه] هذه أوصاف الأمة الإسلامية أيام عزها ، فانظر الآن وتأمل فى تخاذلها وجهلها حتى أصبحت مثلا فى الخمول والجهل ، وأصبحت زرعا هشيما تذروه الرياح ، فكيف يجتمع عصفه وتبته ؟

ولعل الله يبدل الحال غير الحال ويخضر الزرع بعد ذبوله ، وتعود الأمة سيرتها الأولى مهيبة مرعية الجانب مخشية القوة .

(وعد الله الذين آمنوا وعملوا الصالحات منهم مغفرة وأجرا عظيما) أى وعد سبحانه هؤلاء الذين آمنوا بمحمد صلى الله عليه وسلم أن يغفر ذنوبهم ويجزل أجرهم بإدخالهم جنات النعيم ، ووعدُ الله حق وصدق لا يخلف ولا يبدل .

وكل من اقتفى أثر الصحابة فهو فى حكمهم ، ولهم السبق والفضل والكمال الذى لا يلحقهم فيه أحد .

روى مسلم فى صحيحه عن أبى هريرة رضى الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « لا تسبوا أصحابى ، فوالذى نفسى بيده لو أن أحدكم أنفق مثل أحد ذهباً ما أدرك مُدّ أحدهم ولا نصيفه » رضي الله عنهم وأرضاهم .

[خاتمة] هذه السورة آخر القسم الأول من القرآن الكريم وهو المطول ، وسيأتى القسم الثانى ، وهو المفصل .

خلاصة مقاصد هذه السورة

(١) بشارة النبى صلى الله عليه وسلم بالفتح وإعزاز دين الله .

(٢) وعد المؤمنين ووعيد الكافرين والمنافقين .

(٣) ذم المخلّفين من عرب أسلم وجهينة ومُزينة وغفار .

(٤) رضوان الله على المؤمنين الذين بايعوا رسول الله صلى الله عليه وسلم تحت الشجرة ، ووعده إياهم بالنصر فى الدنيا ، وبالجنة فى الآخرة .

(٥) البشرى بتحقق رؤيا رسول الله صلى الله عليه وسلم أنهم يدخلون المسجد الحرام آمنين وقد تمّ لهم ذلك فى العام المقبل .

(٦) وصف النبى صلى الله عليه وسلم والذين آمنوا معه بالرحمة والشدة .

(٧) وعد الله للذين آمنوا وعملوا الصالحات بالمغفرة والأجر العظيم .

سورة الحجرات

هى مدنية ، عدة آيها ثمانى عشرة ، نزلت بعد سورة المجادلة .

ومناسبتها لما قبلها من وجوه :

(١) ذكر فى هذه قتال البغاة ، وفى تلك قتال الكفار .

(٢) إن السابقة ختمت بالذين آمنوا ، وافتتحت هذه بهم .

(٣) إن كلا منهما تضمن تشريفا وتكريما للرسول صلى الله عليه وسلم ولا سيما فى مطلعيهما .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تُقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَيِ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ (١) يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَرْفَعُوا أَصْوَاتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ النَّبِيِّ وَلَا تَجْهَرُوا لَهُ بِالْقَوْلِ كَجَهْرِ بَعْضِكُمْ لِبَعْضٍ أَنْ تَحْبَطَ أَعْمَالُكُمْ وَأَنْتُمْ لَا تَشْعُرُونَ (٢) إِنَّ الَّذِينَ يَغُضُّونَ أَصْوَاتَهُمْ عِنْدَ رَسُولِ اللَّهِ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ امْتَحَنَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ لِلتَّقْوَىٰ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ عَظِيمٌ (٣) .

شرح المفردات

لا تقدموا : أى لا تتقدموا ، من قولهم مقدمة الجيش لمن تقدم منهم ، قال أبو عبيدة : العرب تقول : لا تقدم بين يدى الإمام وبين يدى الأب : أى لا تعجل بالأمر دونه ، وقيل إن المراد لا تقولوا بخلاف الكتاب والسنة، ورجح هذا ، لا ترفعوا أصواتكم فوق صوت النبى : أى إذا كلمتموه ونطق ونطقتم فلا تبلغوا بأصواتكم وراء

الحد الذى يبلغه بصوته . يغضون أصواتهم : أى يخفضونها ويلينونها ، امتحن الله قلوبهم : أى طهرها ونقاها كما يمتحن الصائغ الذهب بالإذابة والتنقية من كل غشّ .

المعنى الجملى

ذكرت سورة الفتح بعد سورة القتال لأن الأولى كالمقدمة والثانية كالنتيجة وذكرت هذه بعد الفتح ، لأن الأمة إذا جاهدت ثم فتح عليها والنبى صلى الله عليه وسلم بينهم ، واستتبّ الأمر، وجب أن توضع القواعد التى تكون بين النبى صلى الله عليه وسلم وأصحابه ، وكيف يعاملونه ؟ والآداب التى يجب أن يكونوا عليها ، فهم قد وصفوا فى الأمثال المضروبة فى التوراة والإنجيل بالتراحم فيما بينهم والركوع والسجود والعظم والقوة — وهنا ذكر كيف يعاملون الرسول صلى الله عليه وسلم وكيف يعامل بعضهم بعضا ؟ فطالب إليهم ألا يقطعوا أمراً دون أن يحكم الله ورسوله به ، ولا يرفعوا أصواتهم فوق صوت النبى صلى الله عليه وسلم ولا يجهروا له بالقول كما يجهر بعضهم لبعض لما فى ذلك من الاستخفاف الذى قد يؤدى إلى الكفر المحبط للأعمال .

الإيضاح

أدب الله المؤمنين إذا قابلوا الرسول بأدبين : أحدهما فعل ، وثانيهما قول . وأشار إلى أولها بقوله :

(١) (يأيها الذين آمنوا لاتقدموا بين يدى الله ورسوله واتقوا الله إن الله سميع عليم) أى يأيها المؤمنون لاتعجلوا بقضاء أمر قبل أن يقضى الله ورسوله لكم فيه ، إذ ربما تقضون بغير قضائهما ، وراقبوا الله أن تقولوا مالم يأذن لكم الله ورسوله به ، إن الله سميع لما تقولون ، عليم بما تريدون بقولكم إذا قلتم ، لايخفى عليه شىء من ضمائر صدوركم .

وبنحو هذا أجاب معاذ بن جبل رضى الله عنه رسول الله صلى الله عليه وسلم حين بعثه إلى اليمن قال له « بم تحكم ؟ قال بكتاب الله تعالى ، قال صلى الله عليه وسلم فإن لم تجد ، قال بسنة رسوله ، قال صلى الله عليه وسلم فإن لم تجد ، قال أجتهد رأيى،

فضرب فى صدره وقال : الحمد لله الذى وفق رسول رسوله لما يرضى رسوله »
رواه أحمد وأبو داود والترمذى . ضعيف بجميع طرقه : انظر السلسلة الضعيفة للألباني ج ٢

فتراه قد أخر رأيه واجتهاده إلى مابعد الكتاب والسنة ، ولو قدمه لكان من المتقدمين بين يدى الله ورسوله .

والخلاصة — إنه طلب إليهم أن ينقادوا لأوامر الله ونواهيه ، ولا يعجلوا بقول أو فعل قبل أن يقول الرسول أو أن يفعل، فلا يذبحوا يوم عيد الأضحى قبل أن يذبح، ولا يصوم أحد يوم الشك وقد نهى عنه .

وأشار إلى ثانيهما بقوله :

(٢) (يأيها الذين آمنوا لاترفعوا أصواتكم فوق صوت النبى) أى إذا نطق ونطقتم فلا ترفعوا أصواتكم فوق صوته ، ولا تبلغوا بها وراء الحد الذى يبلغه ، لأن ذلك يدل على قلة الاحتشام ، وترك الاحترام .

روى البخارى بسنده عن ابن أبى مُلَيْكة « أن عبد الله بن الزبير رضى الله عنه أخبره أنه قدم ركب من تميم على النبي صلى الله عليه وسلم ، فقال أبو بكر رضى الله عنه: أمِّر القَعْقاع بن مَعْبد ، وقال عمر : بل أمر الأقرع بن حابس ، فقال أبو بكر رضى الله عنه : ما أردتَ إلا خلافى ، فقال عمر رضى الله عنه : ما أردتُ خلافك ، فتماريا حتى ارتفعت أصواتهما فنزلت : (يأيها الذين آمنوا لاترفعوا أصواتكم) الآية . فكان أبو بكر بعدها لايكلم رسول الله صلى الله عليه وسلم إلا كأخى السرار ، وما حدّث عمر النبى صلى الله عليه وسلم بعد ذلك فسمع كلامه حتى يستفهمه مما يخفض صوته» .

(ولا تجهروا له بالقول كجهر بعضكم لبعض أن تحبط أعمالكم وأنتم لاتشعرون) أى وإذا كلمتموه وهو صامت فإياكم أن تبلغوا به الجهر الذى يدور بينكم ، أو أن تقولوا يا محمد ، يا أحمد ، بل خاطبوه بالنبوة مع الإجلال والتعظيم ، خشية أن يؤدى ذلك إلى الاستخفاف بالمخاطب فتكفروا من حيث لاتشعرون .

ولما نزلت هذه الآية تخلف ثابت بن قيس عن مجلس رسول الله صلى الله عليه وسلم فدعاه إليه صلى الله عليه وسلم ، فقال يا رسول الله : لقد أنزلت هذه الآية و إنى رجل جهير الصوت ، فأخاف أن يكون عملى قد حبط ، فقال عليه الصلاة والسلام : لستَ هناك ، إنك تعيش بخير وتموت بخير ، و إنك فى أهل الجنة ، فقال : رضيت ببشرى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، لا أرفع صوتى على رسول الله صلى الله عليه وسلم أبدا ، فأنزل الله :

(إن الذين يغضون أصواتهم عند رسول الله أولئك الذين امتحن الله قلوبهم للتقوى لهم مغفرة وأجرعظيم) أى إن الذين ضرب الله قلوبهم بأنواع المحن والتكاليف الشاقة حتى طهرت وصفت بما كابدت من الصبر على المشاقّ ، لهم مغفرة لذنوبهم ، وأجر عظيم لغضهم أصواتهم ولسائر طاعاتهم .

روى أحمد فى الزهد عن مجاهد قال : كُتِب إلى عمر ، يا أمير المؤمنين رجل لايشتهى المعصية ولايعمل بها أفضل، أم رجل يشتهى المعصية ولايعمل بها ؟ فكتب عمر رضى الله عنه ، إن الذين يشتهون المعصية ولا يعملون بها (أولئك الذين امتحن الله قلوبهم للتقوى لهم مغفرة وأجر عظيم) .

إِنَّ الَّذِينَ يُنَادُونَكَ مِنْ وَرَاءِ الْحُجُرَاتِ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ (٤) وَلَوْ أَنَّهُمْ صَبَرُوا حَتَّى تَخْرُجَ إِلَيْهِمْ لَكَانَ خَيْرًا لَهُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ (٥) .

شرح المفردات

من وراء الحجرات : أى من خارجها سواء كان من خلفها أو من قدامها ، إذ أنها من المواراة وهى الاستتار ، فما استتر عنك فهو وراء خلفا كان أو قداما ، فإذا رأيته

لا يكون وراءك . ويرى بعض أهل اللغة أن وراء من الأضداد فتطلق تارة على ما أمامك ، وأخرى على ماخلفك ، والحجرات (بضم الجيم وفتحها وتسكينها) واحدها حجرة : وهى القطعة من الأرض المحجورة ؛ أى الممنوعة عن الدخول فيها بحائط ونحوه ، والمراد بها حجرات نسائه عليه الصلاة والسلام ، وكانت تسعة لكل منهن حجرة من جريد النخل على أبوابها المسوح من شعر أسود ، وكانت غير مرتفعة يتناول سقفها باليد ، وقد أدخلت فى عهد الوليد بن عبد الملك بأمره فى مسجد رسول الله صلى الله عليه وسلم فبكى الناس لذلك .

وقال سعيد بن المسيِّب يومئذ : لوددت أنهم تركوها على حالها لينشأ ناس من أهل المدينة ويقدم القادم من أهل الآفاق فيرى ما اكتفى به رسول الله صلى الله عليه وسلم فى حياته ، فيكون ذلك مما يزهد الناس فى التفاخر والتكاثر فيها .

المعنى الجملى

ذم الله تبارك وتعالى الذين ينادون رسول الله صلى الله عليه وسلم من وراء الحجرات وهو فى بيوت نسائه كما يفعل أجلاف الأعراب ، ثم أرشدهم إلى مافيه الخير والمصلحة لهم فى دينهم ودنياهم ، وهو أن ينتظروا حتى يخرج إليهم .

روى ابن جرير بسنده عن زيد بن أرقم رضى الله عنه قال : « اجتمع ناس من العرب فقالوا انطلقوا بنا إلى هـذا الرجل ، فإن يك نبيا فنحن أسعد الناس به ، وإن يك ملكا نعش بجناحه ، قال : فأتيت رسول الله صلى الله عليه وسلم فأخبرته بما قالوا ، فجاءوا إلى حجرة النبى صلى الله عليه وسلم فجعلوا ينادونه وهو فى حجرته يا محمد يا محمد ، فأنزل الله تعالى : (إن الذين ينادونك من وراء الحجرات أكثرهم لايعقلون) قال : فأخذ رسول الله صلى الله عليه وسلم بأذنى فمدها وجعل يقول : لقد صدق الله تعالى قولك يازيد . لقد صدق الله قولك يازيد » .

وقال قتادة : نزلت فى وفد تميم وكانوا سبعين رجلا منهم الزِّبْرِقان بن بدر وعُطارد بن حاجب وقيس بن عاصم وعمرو بن الأهتم ، جاءوا إلى النبى صلى الله عليه وسلم للمفاخرة ، فنادَوْا على الباب : اخرج إلينا يا محمد ، فإن مدحنا لزين ، وإن ذمنا لشيْن ، فخرج إليهم رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو يقول : إنما ذلكم الله الذى مدحه زين وذمه شين ، فقالوا : نحن ناس من تميم جئنا بشاعرنا وخطيبنا نشاعرك ونفاخرك ، فقال رسول الله : ما بالشعر بعثت ، ولا بالفَخَار أُمِرْت ، ولكن هاتوا فقام شاب منهم فذكر فضله وفضل قومه ، فقال صلى الله عليه وسلم لثابت بن قيس ابن شماس وكان خطيب النبى صلى الله عليه وسلم ، قم فأجبه فأجابه ، وقام الزِّبرقان ابن بدر فقال :

نحن الكرامُ فلا حىٌّ يعادلنا ... منا الملوك وفينا تُنْصَب البِيَعُ

إلى أن قال :

فلا ترانا إلى حىّ نفاخرهم ... إلا استقادوا فكانوا الرأس يُقْتَطَعُ

فمن يفاخرُنا فى ذاك تعرفه ... فيرجع القوم والأخبارُ تُسْتَمع

فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم لحسان بن ثابت أجبه فقال :

إن الذوائب من فِهْر وإخوتهم ... قد بيّنوا سـنة للناس تُتَّبَعُ

يرضى بها كل من كانت سريرتُه ... تقوى الإله وكل الخير يَصْطنِعُ

قومٌ إذا حاربوا ضرّوا عدوّهم ... أو حاولوا النفع فى أشياعهم نفعوا

سجيّةٌ تلك منهمْ غير محدثة ... إنَّ الخلائق فاعلمْ شرُّها البِدَعُ

فى قصيدة طويلة ، فلما فرغ حسان من قوله ، قال الأقرع بن حابس : وأبى إن هذا الرجل لمؤتّى له ، لخطيبه أخطب من خطيبنا ، ولشاعره أشعر من شاعرنا ، ولأصواتهم أعلى من أصواتنا ، ثم دنا من رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال : أشهد

أن لا إله إلا الله وأنك رسول الله ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : مايضرك ما كان من قبل هذا ، ثم جوّزهم رسول الله فأحسن جوائزهم .

الإيضاح

(إن الذين ينادونك من وراء الحجرات أكثرهم لايعقلون) أى إن الذين ينادونك من وراء حجرات نسائك أكثرهم جهال بما يجب لك من الإجلال والتعظيم.

والمراد بالحجرات موضع خلوته ومقيله مع بعض نسائه .

(ولو أنهم صبروا حتى تخرج إليهم لكان خيراً لهم) أى ولو أن هؤلاء الذين ينادونك من وراء الحجرات صبروا ولم ينادوك حتى تخرج إليهم لكان خيراً لهم عند الله ، لأنه قد أمرهم بتوقيرك وتعظيمك .

(والله غفور رحيم) أى والله ذو عفو عمن ناداك من وراء الحجاب إن هو تاب من معصيته بندائك كذلك ، وراجع أمر الله فى ذلك وفى غيره ، رحيم به أن يعاقبه على ذنبه ذلك من بعد توبته منه .

والخلاصة — إن الله سبحانه هجّن الصياح برسول الله صلى الله عليه وسلم فى حال خلوته من وراء الجدُر كما يصاح بأهون الناس قدراً ، لينبه إلى فظاعة ماجسروا عليه ، لأن من رفع الله قدره عن أن يجهر له بالقول كان صنيع مثل هؤلاء معه من المنكر الذى بلغ من التفاحش مبلغا لايقدر قدره .

يَـٰأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنْ جَاءَكُمْ فَاسِقٌ بِنَبَإٍ فَتَبَيَّنُوا أَنْ تُصِيبُوا قَوْمًا بِجَهَالَةٍ فَتُصْبِحُوا عَلَى مَافَعَلْتُمْ نَادِمِينَ (٦) وَاعْلَمُوا أَنَّ فِيكُمْ رَسُولَ اللهِ لَوْ يُطِيعُكُمْ فِى كَثِيرٍ مِنَ الْأَمْرِ لَعَنِتُّمْ وَلَـٰكِنَّ اللهَ حَبَّبَ إِلَيْكُمُ

الْإِيمَانَ وَزَيَّنَهُ فِي قُلُوبِكُمْ وَكَرَّهَ إِلَيْكُمُ الْكُفْرَ وَالْفُسُوقَ وَالْعِصْيَانَ أُولَئِكَ هُمُ الرَّاشِدُونَ (٧) فَضْلًا مِنَ اللَّهِ وَنِعْمَةً وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ (٨).

شرح المفردات

الفاسق : هو الخارج عن حدود الدين من قولهم : فسق الرطب إذا خرج من قشره ، والتبين : طلب البيان ، والنبأ : الخبر ، قال الراغب : ولا يقال للخبر نبأ إلا إذا كان ذا فائدة عظيمة به يحصل علم أو غلبة ظن ، بجهالة : أى جاهلين حالهم فتصبحوا : أى فتصيروا ، نادمين : أى مغتمّين غما لازما متمنين أنه لم يقع؛ فإن الندم الغم على وقوع شىء مع تمنى عدم وقوعه ، لَعَنِتُّمْ : أى لوقعتم فى الجهد والهلاك ، والكفر: تغطية نعم الله تعالى بالجحود لها ، الفسوق : الخروج عن الحد كما علمت ، والعصيان : عدم الانقياد. من قولهم :عصت النواة: أى صلبت واشتدت ، والرشاد : إصابة الحق واتباع الطريق السوىّ .

المعنى الجملى

هذا أدب أدّب الله به عباده المؤمنين — أنه إذا جاءهم الفاسق المجاهر بترك شعائر الدين بأىّ خبر ، لا يصدقونه بادى ذى بدء حتى يتثبتوا ، ويتطلبوا انكشاف الحقيقة ولا يعتمدوا على قوله ، فإن من لا يبالى بالفسق لا يبالى بالكذب الذى هو من فصيلته — كراهة أن يصيبوا بأذى قوما هم جاهلون حالهم ، فتندموا على مافرط منكم وتمنوا أنه لو لم يكن قد وقع .

روى عن ابن عباس « أن الآية نزلت فى الوليد بن عقبة بن أبى معيط ، وكان قد بعثه رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى بنى المصطلق ليأخذ الصدقات ، فلما أتاهم الخبر فرحوا به وخرجوا يستقبلونه ، فلما حُدِّث بذلك الوليد حسب أنهم جاءوا لقتاله ،

فرجع قبل أن يدركوه وأخبر رسول الله صلى الله عليه وسلم أنهم منعوا الزكاة ، فغضب رسول الله صلى الله عليه وسلم غضبا شديدا ، و بينما هو يحدث نفسه أن يغزوهم إذ أتاه الوفد فقالوا يارسول الله : إنا حُدِّثنا أن رسولك رجع من نصف الطريق ، و إنا خشينا أنه إنما رده كتاب جاء منك لغضب غضبته علينا ، و إنا نعوذ بالله من غضبه وغضب رسوله ، فأنزل الله عذرهم فى الكتاب فقال : (يأيها الذين آمنوا إن جاءكم فاسق بنبإ) الآية» . أخرجه أحمد وابن أبى حاتم والطبرانى وابن مردويه ، وقال ابن كثير : وهذا من أحسن ماروى فى سبب نزول الآية .

وقال الرازى : هذه الرواية ضعيفة لأن إطلاق لفظ الفاسق على الوليد بعيد ، لأنه توهم وظن فأخطأ ، والمخطئ لا يسمى فاسقا ، كيف والفاسق فى أكثر المواضع يراد به من خرج من رِبْقة الإيمان لقوله: « إِنَّ اللهَ لاَ يَهْدِى الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ » اهـ .

ثم بين أن صحبه كانوا يريدون أن يتبع رأيهم فى الحوادث ، ولو فعل ذلك لوقعوا فى العنت والهلاك ، ولكن الله حبب إلى بعضهم الإيمان وزينه فى قلوبهم وكرّه إليهم الكفر والفسوق والعصيان ، وهؤلاء أهل الرشاد والسالكون الطريق السوىّ .

الإيضاح

(يأيها الذين آمنوا إن جاءكم فاسق بنبإ فتبينوا أن تصيبوا قوما بجهالة فتصبحوا على مافعلتم نادمين) أى يأيها المؤمنون إن جاءكم الفاسق بأى نبإ فتوقفوا فيه وتطلّبوا بيان الأمر وانكشاف الحقيقة ، ولا تعتمدوا على قول الفاسق ، فإن من لا يبالى بالفسق فهو أجدر ألا يبالى بالكذب ولا يتحاماه — خشية إصابتكم بالأذى قوما أنتم جاهلون حالهم ، فتندموا على مافرط منكم وتمنوا أن لو لم تكونوا فعلتم ذلك .

ثم وعظهم سبحانه بعظة هم أحرى الناس باتباعها فقال :

(واعلموا أن فيكم رسول الله) أى واعلموا أن بين أظهركم رسول الله فعظموه

ووقروه وتأدبوا معه وانقادوا لأمره ، فإنه أعلم بمصالحكم وأشفق عليكم منكم ، ورأيه فيكم أتمّ من رأيكم لأنفسكم كما قال تعالى: « النَّبِيُّ أَوْلَى بِالْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنْفُسِهِمْ ».

ثم بين أن رأيه أنفع لهم وأجدر بالرعاية فقال :

(لو يطيعكم فى كثير من الأمر لعنتم) أى لو سارع إلى ما أردتم قبل وضوح الأمر ، وأجاب ما أشرتم به عليه من الآراء لوقعتم فى الجهد والإثم ، ولكنه لايطيعكم فى غالب ماتريدون قبل وضوح وجهه له ، ولا يسارع إلى العمل بما يبلغه قبل النظر فيه .

عن أبى سعيد الخدرى أنه قرأ هذه الآية وقال : هذا نبيكم يوحى إليه وخيار أئمتكم لو أطاعهم فى كثير من الأمر لعنتوا ، فكيف بكم اليوم ، أخرجه الترمذى .

ثم استدرك على ماسلف لبيان عذر بعضهم فقال :

(ولكن الله حبب إليكم الإيمان وزينه فى قلوبكم وكرّه إليكم الكفر والفسوق والعصيان) أى ولكنّ جمعا منكم براء مما أنتم عليه من تصديق الكاذب وتزيين الإيقاع بالبرىء وإرادة أن يتبع الحق أهواءهم ، لأن الله تعالى جعل الإيمان أحب الأشياء إليهم ، فلا يقع منهم إلا مايوافقه ويقتضيه من الأمور الصالحة وترك التسرع فى الأخبار ، وكرّه إليهم هذه الأمور الثلاثة : الكفر والفسوق والعصيان .

والخلاصة — إن الإيمان الكامل إقرار باللسان ، وتصديق بالجنان وعمل بالأركان ؛ فكراهة الكفر فى مقابلة محبة الإيمان وتزيينه فى القلوب هو التصديق بالجنان ، والفسوق وهو الكذب فى مقابلة الإقرار باللسان ، والعصيان فى مقابلة العمل بالأركان .

(أولئك هم الراشدون) أى هؤلاء الذين هذه صفاتهم هم السالكون طريق السعادة ولم يميلوا عن الاستقامة .

(فضلا من الله ونعمة) أى هذا العطاء الذى منحكموه تفضل منه عليكم وإنعام من لدنه .

(والله عليم حكيم) أى والله عليم بمن يستحق الهداية ، ومن يستحق الغواية ، حكيم فى تدبير شئون خلقه وصرفهم فيما شاء من قضائه .

والخلاصة — إن رسول الله بين أظهركم وهو أعلم بمصالحكم ، لو أطاعكم فى جميع ماتختارونه لأدّى ذلك إلى عنتكم ووقوعكم فى مهاوى الردى ، ولكنّ بعضا منكم حبّب إليهم الإيمان فى قلوبهم ، وكرّه إليهم الكفر والفسوق والعصيان ، وأولئك هم الذين أصابوا الحق وسلكوا سبيل الرشاد .

وَإِنْ طَائِفَتَانِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ اقْتَتَلُوا فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا فَإِنْ بَغَتْ إِحْدَاهُمَا عَلَى الْأُخْرَى فَقَاتِلُوا الَّتِي تَبْغِي حَتَّى تَفِيءَ إِلَى أَمْرِ اللَّهِ فَإِنْ فَاءَتْ فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا بِالْعَدْلِ وَأَقْسِطُوا إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ (٩) إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ فَأَصْلِحُوا بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ (١٠)

شرح المفردات

الطائفة : الجماعة أقل من الفرقة بدليل قوله : « فَلَوْلَا نَفَرَ مِنْ كُلِّ فِرْقَةٍ مِنْهُمْ طَائِفَةٌ » فأصلحوا بينهما : أى فكفوها عن القتال بالنصيحة أو التهديد والزجر والتعذيب ، بغت : أى تعدّت وجارت ، تفىء : أى ترجع ، وأمر الله : هو الصلح ، لأنه مأمور به فى قوله : « وَأَصْلِحُوا ذَاتَ بَيْنِكُمْ » فأصلحوا بينهما بالعدل : أى بإزالة آثار القتال بضمان المتلفات بحيث يكون الحكم عادلا حتى لايؤدى النزاع إلى الاقتتال مرة أخرى ، وأقسطوا:أى واعدلوا فى كل شأن من شئونكم وأصل الإقساط : إزالة القَسْط (بالفتح) وهو الجور، والقاسط : الجائر كما قال : « وَأَمَّا الْقَاسِطُونَ فَكَانُوا لِجَهَنَّمَ حَطَبًا » والإخوة فى النسب، والإخوان فى الصداقة، واحدهم

أخ ، وقد جعلت الأخوّة فى الدين كالأخوّة فى النسب وكأن الإسلام أب لهم قال قائلهم :

أبى الإسلامُ لا أبَ لى سواهُ إذا افتخروا بقَيْسٍ أو تميم

المعنى الجملى

بعد أن حذر سبحانه المؤمنين من النبأ الصادر من الفاسق — بين هنا ماربما ترتب على خبره من النزاع بين فئتين وقد يئول الأمر إلى الاقتتال ، فطَلب من المؤمنين أن يزيلوا ماتنتج من كلامه ، وأن يصلحوا بينهما ، فإن بغت إحداهما على الأخرى فقاتلوا التى تبغى حتى ترجع إلى الصلح بدفعها عن الظلم مباشرة إن أمكن ، أو باستعداء الحاكم عليها ، و إن كان الباغى هو الحاكم فالواجب على المسلمين دفعه بالنصيحة فما فوقها بشرط ألا تثير فتنة أشدّ من الأولى .

ثم تمم الإرشاد وأبان أن الصلح كما يلزم بين الفئتين — يجب بين الأخوين ، ثم أمرهم بتقوى الله ووجوب اتباع حكمه وعدم الإهمال فيه رجاء أن يرحمهم إذا هم أطاعوه ولم يخالفوا أمره .

روى قتادة أن الآية نزلت فى رجلين من الأنصار كان بينهما مداراة فى حق ، فقال أحدهما للآخر : لآخذنّ حقى منك عنوة لكثرة عشيرته ، ودعاه الآخر ليحاكمه إلى النبى صلى الله عليه وسلم فأبى أن يتبعه ، فلم يزل الأمر بينهما حتى تدافعوا وتناول بعضهم بعضا بالأيدى والنعال ، ولم يكن قتال بالسيوف .

الإيضاح

(و إن طائفتان من المؤمنين اقتتلوا فأصلحوا بينهما) أى و إن اقتتلت طائفتان من أهل الإيمان ، فأصلحوا أيها المؤمنون بينهما بالدعاء إلى حكم الله والرضا بما فيه ، سواء كان لهما أو عليهما ، وذلك هو الإصلاح بينهما بالعدل .

(فإن بغت إحداهما على الأخرى فقاتلوا التى تبغى حتى تفىء إلى أمر الله) أى فإن أبت إحدى هاتين الطائفتين الإجابة إلى حكم الله وتعدت ماجعله الله عدلا بين خلقه ، وأجابت الأخرى فقاتلوا التى تعتدى وتأبى الإجابة إلى حكمه حتى ترجع إليه وتخضع طائعة له .

(فإن فاءت فأصلحوا بينهما بالعدل) أى فإن رجعت الباغية بعد قتالكم إياها إلى الرضا بحكم الله — فأصلحوا بينهما بالإنصاف والعدل حتى لايتجدد بينهما القتال فى وقت آخر .

ثم أمرهم سبحانه بالعدل فى كل أمورهم فقال :

(وأقسطوا إن الله يحب المقسطين) أى واعدلوا فى كل ماتأتون وما تذرون ، إن الله يحب العادلين فى جميع أعمالهم ويجازيهم أحسن الجزاء .

وفى الصحيح عن أنس رضى الله عنه أن النبى صلى الله عليه وسلم قال : « انصر أخاك ظالما أو مظلوما ، قلت يا رسول الله : هذا نصرته مظلوما ، فكيف أنصره ظالما ؟ قال : تمنعه من الظلم ، فذلك نصرك إياه » .

(إنما المؤمنون إخوة) أى إنهم منتسبون إلى أصل واحد وهو الإيمان الموجب للسعادة الأبدية ، وفى الحديث « المسلم أخو المسلم لا يظلمه ولا يعيبه ولا يخذُله ولا يتطاول عليه فى البنيان فيستر عليه الريح إلا بإذنه ولا يؤذيه بقُتار قدره إلا أن يغرف له غَرفة ، ولا يشترى لبنيه الفاكهة فيخرجون بها إلى صبيان جاره ولا يُطعمونهم منها ، ثم قال احفظوا ولا يحفظ منكم إلا قليل » وفى الصحيح أيضا : « إذا دعا المسلم لأخيه بظهر الغيب ، قال الملك : آمين ولك بمثله » .

ولما كانت الأخوّة داعية إلى الإصلاح ولا بد — تسبب عن ذلك قوله :

(فأصلحوا بين أخويكم) فى الدين كما تصلحون بين أخويكم فى النسب .

(واتقوا الله) فى كل ماتأتون وما تذرون ، ومن ذلك ما أمرتم به من إصلاح ذات البين .

(لعلكم ترحمون) أى رجاء أن يرحمكم ربكم ويصفح عن سالف إجرامكم إذا أنتم أطعتموه واتبعتم أمره ونهيه .

يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لاَ يَسْخَرْ قَوْمٌ مِنْ قَوْمٍ عَسَى أَنْ يَكُونُوا خَيْرًا مِنْهُمْ وَلاَ نِسَاءٌ مِنْ نِسَاءٍ عَسَى أَنْ يَكُنَّ خَيْرًا مِنْهُنَّ وَلاَ تَلْمِزُوا أَنْفُسَكُمْ وَلاَ تَنَابَزُوا بِالْأَلْقَابِ بِئْسَ الِاسْمُ الْفُسُوقُ بَعْدَ الْإِيمَانِ وَمَنْ لَمْ يَتُبْ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ (١١) .

شرح المفردات

السخرية : الاحتقار وذكر العيوب والنقائص على وجه يضحك منه ، يقال سخر به وسخر منه ، وضحك به ومنه ، وهزئ به ومنه ؛ والاسم السخرية والسخرى (بالضم والكسر) وقد تكون بالمحاكاة بالقول أو بالفعل أو بالإشارة أو بالضحك على كلام المسخور منه إذا غلط فيه ، أو على صنعته ، أو على قبح صورته ، والقوم : شاع إطلاقه على الرجال دون النساء كما فى الآية ، وقال زهير .

وما أدرى وسوف إخالُ أدرى أقومٌ آلُ حِصْنٍ أم نساء

ولا تلمزوا أنفسكم : أى لايعب بعضكم بعضا بقول أو إشارة باليد أو العين أو نحوهما ، والمؤمنون كنفس واحدة فمتى عاب المؤمن المؤمنَ فكأنما عاب نفسه ، والتنابز : التعاير والتداعى بما يكرهه الشخص من الألقاب ، والاسم : الذكر والصيت، من قولهم : طار اسمه بين الناس بالكرم أو اللؤم .

المعنى الجملى

بعد أن ذكر ماينبغى أن يكون عليه المؤمن مع الله تعالى ومع النبى صلى الله عليه وسلم ومع من يخالفهما و يعصيهما وهو الفاسق ، بيّن ماينبغى أن يكون عليه المؤمن مع المؤمن ، فذكر أنه لاينبغى أن يسخر منه ولا أن يعيبه بالهمز واللمز ، ولا أن يلقبه باللقب الذى يتأذى منه ، فبئس العمل هذا ، ومن لم يتب بعد ارتكابه فقد أساء إلى نفسه وارتكب جُرما كبيرا .

روى أن الآية نزلت فى وفد تميم إذ كانوا يستهزئون بفقراء أصحاب النبى صلى الله عليه وسلم كعمار وصُهَيْب و بلال وخبّاب وابن فُهَيْرة وسلمان الفارسى وسالم مولى أبى حذيفة فى آخرين غيرهم لما رأوا من رثاثة حالهم .

وروى أنها نزلت فى صفيّة بنت حُيَيّ بن أخطب رضى الله عنها: أتت رسول الله صلى الله عليه وسلم فقالت : « إن النساء يقلن لى: يا يهودية بنت يهوديين ، فقال لها: هلاّ قلتِ : أبى هارون ، وعمى موسى ، وزوجى محمد» .

الإيضاح

(يأيها الذين آمنوا لايسخر قوم من قوم) أى لايهزأ ناس من المؤمنين بآخرين :
ثم ذكر العلة فى ذلك فقال :

(عسى أن يكونوا خيراً منهم) أى فقد يكون المسخور منهم خيراً عند الله من الساخرين كما جاء فى الأثر « فربَّ أشعث أغبر ذى طِمْرَين لايؤبه له ، لو أقسم على الله تعالى لأبرّه » .

فينبغى ألا يجترئ أحد على الاستهزاء بمن تقتحمه عينه لرثاثة حاله أو لكونه ذا عاهة فى بدنه أو لكونه غير لبق فى محادثته ، فلعله أخلص ضميرا وأنقى قلبا ممن هو على ضد صفته ، فيظلم نفسه بتحقير من وقره الله تعالى .

ـ (ولا نساء من نساء عسى أن يكنّ خيراً منهن) أى ولا يسخر نساء من نساء عسى أن يكون المسخور منهن خيرا من الساخرات ، وأتى بالجمع فى الموضعين ، من قِبَل أن الأغلب فى السخرية أن تكون فى مجامع الناس ، وكم من متلذذ بها ، وكم من متألم منها .

روى الترمذى عن عائشة قالت : حكيت للنبى صلى الله عليه وسلم رجلا فقال : « ما يسرنى أنى حكيت رجلا وأن لى كذا وكذا ، قالت فقلت يا رسول الله إن صفية امرأة وقالت[1] بيدها هكذا تعنى أنها قصيرة ، فقال : لقد مزجتِ بكلمة لو مُزِجت بماء البحر لمزجته »

وروى مسلم عن أبى هريرة قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « إن الله لاينظر إلى صوركم وأموالكم ، ولكن ينظر إلى قلوبكم وأعمالكم » وفى هذا إيماء إلى أن المرء لايقطع بمدح أحد أو عيبه كما يرى عليه من صور أعمال الطاعة أو المخالفة فلعل من يحافظ على الأعمال الظاهرة يعلم الله من قلبه وصفا مذموما لاتصح معه تلك الأعمال ، ولعل من رأينا منه تفريطا أو معصية يعلم الله من قلبه وصفا محمودا يغفر له بسببه ، فالأعمال أمارات ظنية ، لا أدلة قطعية .

(ولا تلمزوا أنفسكم) أى ولا يعب بعضكم بعضا بقول أو إشارة على وجه الخِفْية.
وفى قوله : « أنفسكم » تنبيه إلى أن العاقل لايعيب نفسه ، فلا ينبغى أن يعيب غيره لأنه كنفسه ، ومن ثم قال النبى صلى الله عليه وسلم : « المؤمنون كجسد واحد إن اشتكى عضو منه تداعى له سائر الجسد بالسهر والحمّى » وقال عليه الصلاة والسلام: « يبصر أحدكم القذاة[2] فى عين أخيه ويدع الجِذْع فى عينه » .

---

(١) تطلق العرب القول على جميع الأفعال وتطلقه على غير الكلام واللسان توسعا فى الاستعمال .

(٢) ما يقع فى العين والماء والتراب من تراب أو تبن أو وسخ أو غير ذلك .

وقيل : من سعادة المرء أن يشتغل بعيوب نفسه عن عيوب غيره . قال الشاعر :

لاتكشفنْ من مساوى الناس ماستروا فيهتك الله ستراً عن مساويكا
واذكر محاسن مافيهم إذا ذكروا ولا تعب أحداً منهم بما فيكا

(ولا تنابزوا بالألقاب) أى لايدْعُ بعضكم بعضا باللقب الذى يسوءه ويكرهه كأن يقول لأخيه المسلم : يا فاسق ، يا منافق ، أو يقول لمن أسلم : يا يهودى ، أو يا نصرانى :

قال قتادة وعكرمة عن أبى جبيرة بن الضحاك قال : فى بنى سلمة نزلت (ولا تنابزوا بالألقاب) قدم رسول الله صلى الله عليه وسلم المدينة وليس فينا رجل إلا وله اسمان أو ثلاثة ، فكان إذا دعا واحدا باسم من تلك الأسماء قالوا : يارسول الله إنه يكرهه فنزلت . أخرجه البخارى فى الأدب وأهل السنن وغيرهم .

وأخرج ابن جرير عن ابن عباس قال : التنابز بالألقاب أن يكون الرجل قد عمل السيئات ثم تاب وراجع الحق ، فنهى الله تعالى أن يعيّر بما سلف من عمله .

أما الألقاب التى تكسب حمداً أو مدحاً وتكون حقّ وصدقا فلا تكره كما قيل لأبى بكر: عتيق ، ولعمر : الفاروق ، ولعثمان : ذو النورين ، ولعلى: أبو تراب ، ولخالد سيف الله .

(بئس الاسم الفسوق بعد الإيمان) أى بئس الذكر المرتفع للمؤمنين أن يذكروا بالفسوق بعد دخولهم فى الإيمان واشتهارهم به .

وفى هـذا إيماء إلى استقباح الجمع بين الأمرين كما تقول بئس الصبوة بعد الشيخوخة أى معها .

(ومن لم يتب فأولئك هم الظالمون) أى ومن لم يتب من نبزه أخاه بما نهى الله عن نبزه من الألقاب أو لمزه إياه أو سخريته منه ، فأولئك هم الذين ظلموا أنفسهم فأكسبوها عقاب الله بعصيانهم إياه .

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اجْتَنِبُوا كَثِيرًا مِنَ الظَّنِّ إِنَّ بَعْضَ الظَّنِّ إِثْمٌ وَلَا تَجَسَّسُوا وَلَا يَغْتَبْ بَعْضُكُمْ بَعْضًا أَيُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَنْ يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتًا فَكَرِهْتُمُوهُ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ تَوَّابٌ رَحِيمٌ (١٢) .

شرح المفردات

اجتنبوا : أي تباعدوا ، وأصل اجتنبته : كنت منه على جانب ، ثم شاع استعماله فى التباعد اللازم له ، والإثم : الذنب ، والتجسس : البحث عن العورات والمعايب والكشف عما ستره الناس ، والغيبة : ذكر الإنسان بما يكره فى غيبته فقد روى مسلم وأبو داود والترمذى «أن النبى صلى الله عليه وسلم قال : أتدرون ما الغيبة ؟ قالوا الله ورسوله أعلم ، قال : ذكرك أخاك بما يكره ، قيل : أفرأيت لو كان فى أخى ما أقول ؟ قال : إن كان فيه ماتقول فقد اغتبته ، وإن لم يكن فيه ماتقول فقد بهتّه » .

المعنى الجملى

أدب الله عباده المؤمنين بآداب إن تمسكوا بها كانت مجلبة للمودة والوئام بينهم: منها ماتقدم قبل هـذا ، ومنها ما ذكره هنا ، وذلك من الأمور العظام التى تزيد توثيق رباط المجتمع الإسلامى قوة :

(١) البعد عن سوء الظن بالناس وتخوّنهم فى كل مايقولون وما يفعلون ، لأن بعض ذلك قد يكون إثما محضا فليجتنب كثير منه ، وقد روى عن عمر رضى الله عنه أنه قال : ولا تظننّ بكلمة خرجت من أخيك المؤمن إلا خيرا ، وأنت تجد لها فى الخير محملا .

(٢) البحث عن عورات الناس ومعايبهم .

(٣) عدم ذكر بعضهم بعضا بما يكرهون فى غيبتهم ، وقد مثل الشارع المغتاب بآكل لحم الميتة استفظاعا له .

قال قتادة : كما تـكره إن وجدت جيفة مدودة أن تأكل منها ، كذلك فاكره لحم أخيك وهو حىّ .

الإيضاح

(يأيها الذين آمنوا اجتنبوا كثيراً من الظن) أى يأيها الذين آمنوا ابتعدوا عن كثير من الظن بالمؤمنين ، بأن تظنوا بهم السوء ماوجدتم إلى ذلك سبيلا ، فنى الحديث « إن الله حرم من المسلم دمه وعرضه ، وأن يظن به ظن السوء » .

ولا يحرم سوء الظن إلا ممن شوهد منه الستر والصلاح ، وأونست منه الأمانة ، أما من يجاهر بالفجور كمن يدخل إلى الحانات أو يصاحب الغوانى الفواجر فلا يحرم سوء الظن به .

أخرج البيهقى فى شعب الإيمان عن سعيد بن المسيِّب قال : كتبَ إلىّ بعض إخوانى من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم . أن ضَعْ أمر أخيك على أحسنه مالم يأتك مايغلبك ، ولا تظنن بكلمة خرجت من امرئ مسلم شرا وأنت تجد لها فى الخير محمِلا ، ومن عرَّض نفسه للتُّهم فلا يلومنّ إلا نفسه ، ومن كتم سره كانت الخيرة فى يده ، وما كافأتَ من عصى الله تعالى فيك بمثل أن تطيع الله فيه ، وعليك بإخوان الصدق فـكن فى اكتسابهم ، فإنهم زينة فى الرخاء ، وعُدَّة عند عظيم البلاء ، ولا تتهاون بالحلف فيهينك الله تعالى ، ولا تسألن عما لم يكن حتى يكون ، ولا تضع حديثك إلا عند من تشتهيه ، وعليك بالصدق وإن قتلك ، واعتزل عدوك واحذر صديقك إلا الأمين ، ولا أمين إلا من خشى الله ، وشاورْ فى أمرك الذين يخشون ربهم بالغيب .

ثم علل الأمر باجتناب كثير من الظن بقوله :

(إن بعض الظن إثم) أى إن ظن المؤمن بالمؤمن الشر إثم ، لأن الله قد نهاه عنه ففعله إثم . ونحو الآية قوله : « وَظَنَنْتُمْ ظَنَّ السَّوْءِ وَكُنْتُمْ قَوْمًا بُورًا » .

قال ابن عباس فى الآية : نهى الله المؤمن أن يظن بالمؤمن سوءا اه .

ثم لما أمرهم سبحانه باجتناب كثير من الظن نهاهم عن التجسس فقال :

(ولا تجسسوا) أى ولا يتتبع بعضكم عورة بعض ، ولا يبحث عن سرائره يبتغى بذلك الظهور على عيوبه ، ولكن اقنعوا بما ظهر لكم من أمره ، وبه فاحمدوا أو ذموا ، لاعلى ماتعلمون من الخفايا .

وفى الصحيحين عن أبى هريرة أن النبى صلى الله عليه وسلم قال : « إياكم والظن ، فإن الظن أكذب الحديث ، ولا تجسسوا ولا تحسسوا ولا تناجشوا ولا تباغضوا ولا تدابروا وكونوا عباد الله إخوانا ، ولا يحل لمسلم أن يهجر أخاه فوق ثلاثة أيام » التجسس : البحث عما يكتم عنك ، والتحسس : طلب الأخبار والبحث عنها ، والتناجش : البيع على بيع غيرك (الزيادة عليه) والتدابر : الهجر والقطيعة .

وعن أبى بَرْزَة الأسمى قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم «يا معشر من آمن بلسانه ولم يدخل الإيمان قلبه ، لاتغتابوا المسلمين ولا تتبعوا عوراتهم ، فإن من اتبع عوراتهم يتبع الله عورته ، ومن يتبع الله عورته يفضحه فى عُقر بيته » .

وروى الطبرانى عن حارثة بن النعمان رضى الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « ثلاث لازمات لأمتى : الطِّيَرَةُ والحسد وسوء الظن ، فقال رجل وما يذهبهن يا رسول الله ممن هن فيه ؟ قال صلى الله عليه وسلم : إذا حسدت فاستغفر الله ، وإذا ظننت فلا تحقق ، وإذا تطيرت فامض » .

وقال عبد الرحمن بن عوف : حرست ليلة مع عمر بن الخطاب بالمدينة ؛ إذ تبين لنا سراج فى بيت بابه مجاف على قوم لهم أصوات مرتفعة ولغط ، فقال عمر : هذا بيت ربيعة بن أمية بن خلف وهم الآن شَرْب ، فما ترى ؟ قلت : أرى أنا قد أتينا مانهى الله عنه ، قال تعالى : « وَلاَ تَجَسَّسُوا » وقد تجسسنا ، فانصرف عمر وتركهم .

وقال أبو قِلابة : حُدِّث عمر بن الخطاب أن أبا مِحْجَن الثقفى يشرب الخمر مع أصحاب له فى بيته ، فانطلق عمر حتى دخل عليه ، فإذا ليس عنده إلا رجل ، فقال أبو محجن : إن هذا لايحل لك ، قد نهاك الله عن التجسس . فخرج عمر وتركه .

(ولا يغتب بعضكم بعضا) أى ولا يذكر بعضكم بعضا بما يكره فى غيبته ، والمراد بالذكر الذكر صريحا أو إشارة أو نحو ذلك مما يؤدى مؤدى النطق ، لما فى ذلك من أذى المغتاب ، وإيغار الصدور وتفريق شمل الجماعات ، فهى النار تشتعل فلا تبقى ولا تذر ، والمراد بما يكره ما يكرهه فى دينه أو دنياه أو خَلقه أو خُلُقه أو ماله أو ولده أو زوجته أو خدمه أو ملبسه أو غير ذلك مما يتعلق به .

قال الحسن : الغيبة ثلاثة أوجه كلها فى كتاب الله : الغيبة ،والإفك، والبهتان .

(١) فأما الغيبة فهى أن تقول فى أخيك ماهو فيه .

(٢) وأما الإفك فأن تقول فيه مابلغك عنه .

(٣) وأما البهتان فأن تقول فيه ماليس فيه .

ولا خلاف بين العلماء فى أن الغيبة من الكبائر وأن على من اغتاب أحدا التوبة إلى الله أو الاستغفار لمن اغتابه أو الاستحلال منه .

وعن شعبة قال : قال لى معاوية بن قُرّة : لو مرّ بك رجل أقطع (مقطوع اليد) فقلت هذا أقطع كان غيبة ، قال شعبة فذكرته لأبى إسحاق فقال صدق .

ثم ضرب سبحانه مثلا للغيبة للتنفير والتحذير منها فقال :

(أيحب أحدكم أن يأكل لحم أخيه ميتاً فكرهتموه) أى أيحب أحدكم أن يأكل لحم أخيه بعد مماته ؟ فإذا كنتم لاتحبون ذلك بل تكرهونه لأن النفس تعافه ، فكذلك فاكرهوا أن تغتابوه فى حياته .

والخلاصة — إنكم كما تكرهون ذلك طبعا فاكرهوا ذلك شرعا لما فيه من شديد العقوبة .

وقد شبهت بأكل اللحم لما فيها من تمزيق الأعراض المشابه لأكل اللحم وتمزيقه ، وقد جاء هذا على نهج العرب فى كلامهم . قال المُقَنَّع الكِندى :

فإن أكلوا لحمى وفَرْتُ لحومهم وإن هدموا مجدى بنيت لهم مجداً

وقد زادت الآية فجعلت اللحم لحم أخ ميت تصويرا له بصورة بشعة تستقذرها النفوس جميعا .

سمع على بن الحسين رضى الله عنهما رجلا يغتاب آخر فقال : إياك والغيبة فإنها إدام كلاب الناس ، وقيل لعمرو بن عُبيد : لقد وقع فيك فلان حتى رحمناك ، قال : إياه فارحموا .

وقال رجل للحسن البصرى : بلغنى أنك تغتابنى ، فقال : لم يبلغ قدرك عندى أن أحكمك فى حسناتى .

وقد ثبت فى الصحيح من غير وجه أن النبى صلى الله عليه وسلم قال حين خطب فى حجة الوداع : « إن دماءكم وأموالكم وأعراضكم عليكم حرام كحرمة يومكم هذا فى شهركم هذا فى بلدكم هذا » .

(واتقوا الله) أى فاكرهوا الغيبة واتقوا الله فيما أمركم به ونهاكم عنه وراقبوه واخشوه .

ثم علل هذا بقوله :

(إن الله تواب رحيم) أى إن الله يتوب على من تاب إليه عما فرط منه من الذنب ، رحيم به أن يعذبه بعد توبته .

ويجب على المغتاب أن يبادر إلى التوبة حين صدورها منه ، بأن يقلع عنها ويندم على مافرط منه ، ويعزم عزما مؤكدا على ألا يعود إلى مثل مافرط منه .

ولا تحرم الغيبة إذا كانت لغرض صحيح شرعا لايتوصل إليه إلا بها ، وينحصر ذلك فى ستة أمور :

(١) التظلم ، فلمن ظُلم أن يشكو لمن يظن أنه يقدر على إزالة ظلمه أو تخفيفه .

(٢) الاستعانة على تغيير المنكر بذكره لمن يظن قدرته على إزالته .

(٣) الاستفتاء فيجوز للمستفتى أن يقول للمفتى : ظلمنى فلان بكذا فهل يجوز له ذلك ؟.

(٤) تحذير المسلمين من الشر كجرْح الشهود والرواة والمتصدين للإفتاء مع عدم أهليتهم لذلك ، وكأن يشير وإن لم يُستشر على مريد التزوج أو مخالطة غيره فى أمر دينى أو دنيوى ويقتصر على ما يكفى ، فإن احتاج إلى ذكر عيب أو عيبين ذكر ذلك .

(٥) أن يجاهروا بالفسق كالمدمنين على شرب الخمور وارتياد محالّ الفجور ، ويتباهوا بما يفعلون .

(٦) التعريف بلقب أو نحوه كالأعور والأعمش ونحو ذلك إذا لم تمكن المعرفة بغيره .

والأمة مجمعة على قبح الغيبة وعظم آثامها مع ولوع الناس بها حتى إن بعضهم ليقولون : هى صابون القلوب ، وإن لها حلاوة كحلاوة التمر ، وضراوة كضراوة الخمر .

يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَـٰكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَـٰكُمْ شُعُوبًا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓا۟ إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ (١٣) .

شرح المفردات

من ذكر وأنثى : أى من آدم وحواء ، قال علىّ كرم الله وجهه :

الناس فى عالم التمثيل أكفاء أبوهمُ آدم والأم حوّاء

فإن يكن لهم فى أصلهم شرف يفاخرون به فالطين والماء

والشعوب : واحدهم شعب (بفتح الشين وسكون العين) وهو الحى العظيم المنتسب إلى أصل واحد كربيعة ومضر ، والقبيلة دونه كبكر من ربيعة وتميم من مضر . وحكى أبوعبيدة أن طبقات النسل التى عليها العرب سبع : الشعب ثم القبيلة ثم العمارة ثم البطن ثم الفخذ ثم الفصيلة ثم العشيرة ، وكل واحد منها يدخل فيما قبله ، فالقبائل تحت الشعوب ، والعمائر تحت القبائل ، والبطون تحت العمائر ، والأفخاذ تحت البطون ، والفصائل تحت الأفخاذ ، والعشائر تحت الفصائل ، فخزيمة شعب ، وكنانة قبيلة ، وقريش عمارة (بفتح العين وكسرها) وقصىّ بطن ، وعبد مناف فخذ وهاشم فصيلة ، والعباس عشيرة ، وسمى الشعب شعبا لتشعب القبائل منه كتشعب أغصان الشجرة .

المعنى الجملى

بعد أن نهى سبحانه فيما سلف عن السخرية بالناس والازدراء بهم ، وعن اللمز والتنابز بالألقاب — ذكر هنا مايؤكد النهى ويؤيد ذلك المنع ، فبين أن الناس جميعا من أب واحد وأمّ واحدة ، فكيف يسخر الأخ من أخيه ؟ إلى أنه تعالى جعلهم شعوبا وقبائل مختلفة ، ليحصل بينهم التعارف والتعاون فى مصالحهم المختلفة ، ولا فضل لواحد على آخر إلا بالتقوى والصلاح وكمال النفس ، لا بالأمور الدنيوية الزائلة .

ذكر أبو داود أن الآية نزلت فى أبى هند وكان حجام النبى صلى الله عليه وسلم قال : إن رسول الله صلى الله عليه وسلم أمر بنى بياضة أن يزوجوا أبا هند امرأة منهم فقالوا لرسول الله صلى الله عليه وسلم : نزوج بناتنا موالينا ؟ فأنزل الله عز وجل : « إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوباً وَقَبَائِلَ » الآية .

الإيضاح

(يأيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى) أى إنا أنشأناكم جميعا من آدم وحواء، فكيف يسخر بعضكم من بعض ، و يلمز بعضكم بعضا وأنتم إخوة فى النسب، و بعيد أن يعيب الأخ أخاه أو يلمزه أو ينبزه .

وعن أبى مُليكة قال : لما كان يوم فتح مكة رقى بلال فأذن على ظهر الكعبة فقال عتّاب بن أسيد بن أبى العيص : الحمد لله الذى قبض أبى حتى لا يرى هذا اليوم. وقال الحرث بن هشام : ماوجد محمد غير هذا الغراب الأسود مؤذنا ، وقال سهيل ابن عمرو : إن يرد الله شيئا يغيره ، فأتى جبريل النبى صلى الله عليه وسلم وأخبره بما قالوا ، فدعاهم وسألهم عما قالوا فأقروا فأنزل الله الآية زجرا لهم عن التفاخر بالأنساب والتكاثر بالأموال والازدراء بالفقراء ، و بين أن الفضل بالتقوى .

وروى الطبرى قال : «خطب رسول الله بمنى فى وسط أيام التشريق وهو على بعير فقال :

يأيها الناس ألا إن ربكم واحد ، وإن أباكم واحد ، ألا لافضل لعربىّ على عجمى، ولا لعجمى على عربى، ولا لأسود على أحمر، ولا لأحمر على أسود إلا بالتقوى ألا هل بلغت ؟ قالوا نعم ، قال : فليبلغ الشاهد الغائب» .

وعن أبى مالك الأشعرى قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « إن الله لاينظر إلى أحسابكم ولا إلى أنسابكم ولا إلى أجسامكم ولا إلى أموالكم ، ولكن ينظر إلى قلوبكم ، فمن كان له قلب صالح تحنن الله عليه ، و إنما أنتم بنو آدم ، وأحبكم إليه أتقاكم » .

(وجعلناكم شعوبا وقبائل لتعارفوا) أى للتعارف لا للتناكر ، واللمزُ والسخرية والغيبة تفضى إلى ذلك .

ثم ذكر سبب النهى عن التفاخر بالأنساب بقوله :

(إن أكرمكم عند الله أتقاكم) أى إن الأكرم عند الله الأرفع منزلة لديه عز وجل فى الآخرة والدنيا هو الأتقى ، فإن فاخرتم ففاخروا بالتقوى ، فمن رام نيل الدرجات العلا فعليه بها .

روى ابن عمر رضى الله عنهما « أن النبي صلى الله عليه وسلم خطب الناس يوم فتح مكة وهو على راحلته فحمد الله وأثنى عليه بما هو له أهل ثم قال : أيها الناس إن الله قد أذهب عنكم عَيْبَةَ الجاهلية وتعظمها بآبائها ، فالناس رجلان : رجل بَرٌّ تقى كريم على الله ، ورجل فاجر شقى هيِّنٌ على الله تعالى ، إن الله عز وجل يقول : (يأيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوبا وقبائل لتعارفوا إن أكرمكم عند الله أتقاكم) ثم قال : أقول قولى هذا ، وأستغفر الله لى ولكم .

(إن الله عليم خبير) أى إن الله عليم بكم وبأعمالكم ، خبير بباطن أحوالكم ، فاجعلوا التقوى زادكم لدى معادكم .

قَالَتِ الْأَعْرَابُ آمَنَّا قُلْ لَمْ تُؤْمِنُوا وَلَـٰكِنْ قُولُوا أَسْلَمْنَا وَلَمَّا يَدْخُلِ الْإِيمَانُ فِي قُلُوبِكُمْ وَإِنْ تُطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ لَا يَلِتْكُمْ مِنْ أَعْمَالِكُمْ شَيْئًا إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ (١٤) إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُوا وَجَاهَدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أُولَـٰئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ (١٥) قُلْ أَتُعَلِّمُونَ اللَّهَ بِدِينِكُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ (١٦) يَمُنُّونَ عَلَيْكَ أَنْ أَسْلَمُوا ،

قُلْ لاَ تَمُنُّوا عَلَيَّ إِسلامَكُمْ بَلِ اللهُ يَمُنُّ عَلَيْكُم أَنْ هَدَاكُمْ لِلإِيمَانِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ (١٧) إِنَّ اللهَ يَعْلَمُ غَيْبَ السَّمٰوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاللهُ بَصِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ (١٨) .

شرح المفردات

الأعراب : سكان البادية ، آمنّا : أى صدقنا بما جئت به من الشرائع وامتثلنا ما أمرتنا به ، فالإيمان هو التصديق بالقلب ، أسلمنا : أى انقدنا لك ودخلنا فى السِّلْم وهو ضد الحرب : أى فلسنا حربا للمؤمنين وعونا للمشركين ، لايلتكم : أى لاينقصكم ، يقال لاته يليته إذا نقصه ، حكى الأصمعى عن أم هشام السلولية « الحمد لله الذى لايُفات ولا يُلات ولا تُصِمُّه الأصوات » يمنون عليك : أى يذكرون ذلك ذكر من اصطنع لك صنيعة ، وأسدى إليك نعمة .

المعنى الجملى

بعد أن حث الناس على التقوى — وبّخ من فى إيمانه ضعف من الأعراب الذين أظهروا الإسلام وقلوبهم وغلة ، لأنهم كانوا يريدون المغانم وعَرَض الدنيا ، إذ جاءوا فى سنة مجدبة ، وكانوا يقولون لرسوله صلى الله عليه وسلم : جئناك بالأثقال والعيال ولم نقاتلك كما قاتلك بنو فلان ، يريدون بذكر ذلك الصدقة والمنّ على النبى صلى الله عليه وسلم ، فأطلع الله نبيّه على مكنون ضمائرهم ، وأنهم لم يؤمنوا إيمانا حقيقيا ، وهو الذى وافق القلب فيه اللسان ، وأمرهم أن يقولوا : استسلمنا وخضعنا ، ثم أخبرهم بأنهم إن اتقوا الله حق تقاته وفّاهم أجورهم كاملة غير منقوصة ، ثم بين أن من علامة الإيمان الكامل التضحية بالنفس والمال فى سبيل الله ببذلهما فى تقوية دعائم الدين وإعلاء شأنه وخضد شوكة العدو بكل السبل الممكنة ، ثم أعقب هذا بأن الله

يعلم ما هم عليه من إيمان ضعيف أو قوى ؛ إذ لا تخفى عليه خافية فى الأرض ولا فى السماء ، وأنه لاينبغى للمؤمن أن يمتنّ على الرسول بإيمانه ، بل من حق الرسول أن يمتنّ عليه بأن وفقه إلى الهداية على يديه إن كان صادق الإيمان ، ثم ختم الآيات بالإخبار عن واسع علمه ، و إحاطته بمكنون سرّ خلقه فى السموات والأرض لايعزب عنه مثقال ذرة فيهما ، وهو البصير بما يعمل عباده من خير أو شر ، قال مجاهد : نزلت فى أعراب من بنى أسد بن خزيمة (وكانوا يجاورون المدينة) قدموا على رسول الله صلى الله عليه وسلم وأظهروا الشهادتين ولم يكونوا مؤمنين حقًّا .

وقال السُدِّىّ : نزلت فى الأعراب المذكورين فى سورة الفتح : أعراب مُزَيْنة وجُهينة وأسلم وغِفار والدِّيل وأشجع ، قالوا آمنا ليأمَنوا على أنفسهم وأموالهم ، فلما استُنفِروا إلى المدينة تخلفوا .

الإيضاح

(قالت الأعراب آمنا) أى قالت الأعراب: صدقنا بالله ورسوله ونحن له مؤمنون فردّ الله عليهم مكذبا لهم مع عدم التصريح بذلك فقال :

(قل لم تؤمنوا ولكن قولوا أسلمنا) أى قل لهم : إن الإيمان هو التصديق مع طمأنينة القلب والوثوق بالله ولم يحصل لكم بعدُ ، بدليل أنكم منتتم على الرسول بترك مقاتلته ، ولكن قولوا: انقدنا لك ، واستسلمنا ولاندخل معك فى حرب ، ولا نكون عونا لعدوك عليك .

وجاءت الآية على هذا الأسلوب ، ولم يقل لهم كذبتم ، ولكن قولوا أسلمنا ، حملا له عليه السلام على الأدب فى التخاطب ليتأسّى به أتباعه ، فيلينوا لمن يخاطبونهم فى القول .

(ولما يدخل الإيمان فى قلوبكم) أى قولوا أسلمنا فحسب ، لأنه لم يدخل الإيمان

فى قلوبكم بعدُ ، إذ لم يوافق القلب ما جرى به اللسان ، ولم يكن لشرائع الدين ولا آدابه أثر فى أعمالكم ، فلم تتغذَّ بها أرواحكم ، ولم تصطبغ بهديها نفوسكم .

قال الزجاج : الإسلام إظهار الخضوع وقبول ما أتى به النبى صلى الله عليه وسلم وبذلك يحقن الدم ، فإن كان مع ذلك الإظهار اعتقاد وتصديق بالقلب فذلك هو الإيمان وصاحبه المؤمن اه .

(وإن تطيعوا الله ورسوله لا يلتكم من أعمالكم شيئاً) أى وإن تطيعوا الله ورسوله وتخلصوا له فى العمل وتتركوا النفاق لا ينقص سبحانه من أجوركم شيئاً ، بل يضاعف ذلك أضعافا كثيرة .

ولما كان الإنسان كثير الهفوات مهما اجتهد ـ ذكر أنه غفور لزلاته فقال :

(إن الله غفور رحيم) أى إنه ستار للهفوات ، غفار لزلات من تاب وأناب وأخلص لربه ، رحيم به أن يعذبه بعد التوبة ، بل يزيد فى إكرامه ، ويصفح عن آثامه .

ثم بين سبحانه حقيقة الإيمان بقوله :

(إنما المؤمنون الذين آمنوا بالله ورسوله ثم لم يرتابوا وجاهدوا بأموالهم وأنفسهم فى سبيل الله أولئك هم الصادقون) أى إنما المؤمنون حق الإيمان الذين صدقوا الله ورسوله ثم لم يشكوا ولم يتزلزلوا بل ثبتوا على حال واحدة ، وبذلوا مهجهم ونفائس أموالهم فى طاعة الله ورضوانه — أولئك هم الصادقون فى قولهم : آمنا ، لا كبعض الأعراب الذين ليس لهم من الإيمان إلا الكلمة الظاهرة ، وقد دخلوا الملة خوفا من السيف ليحقنوا دماءهم ويحفظوا أموالهم .

ثم أكد ماسبق من قوله : لم تؤمنوا بقوله :

(قل أتعلِّمون الله بدينكم؟) أى قل لهم : أتخبرون الله بما فى ضمائركم ، وما تنطوى عليه جوانحكم من صادق الإيمان بقولكم : آمنا حقا .

(والله يعلم ما فى السموات وما فى الأرض) فلا يخفى عليه مثقال ذرة فيهما .

وفى هذا تجهيل وتوبيخ لهم لايخفى أمره .

(والله بكل شىء عليم) فاحذروا أن تقولوا خلاف مايعلم من ضمائر صدوركم فتنالكم عقوبته ، إذ لايخفى عليه شىء .

(يمنون عليك أن أسلموا) أى يعدّون إسلامهم ومتابعتهم لك ونصرتهم إياك مِنَّة يطلبون منك أجرها ، فقد قالوا جئناك بالأثقال والعيال ولم نقاتلك كما قاتلك بنو فلان و بنو فلان .

ثم أمر الله سبحانه رسوله صلى الله عليه وسلم بما يقوله لهم عند المنّ عليه بما يدّعونه من الإسلام فقال :

(قل لاتمنوا علىّ إسلامكم) أى لاتعدوا إسلامكم الذى سميتموه إيمانا منة علىّ، فإن الإسلام هو المنة التى لايطلب مُوليها ثوابا لمن أنعم بها عليه ، ومن ثم قال :

(بل الله يمنّ عليكم أن هداكم للإيمان إن كنتم صادقين) أى بل الله هو الذى يمن عليكم ، إذ أمدكم بتوفيقه وهدايته للإيمان إن كنتم صادقين فى إيمانكم .

وفى هذا إيماء إلى أنهم كاذبون فى ادعائهم الإيمان .

روى أن النبى صلى الله عليه وسلم قال للأنصار يوم حنين « يامعشر الأنصار ، ألم آتكم ضلّالا فهداكم الله ؟ وعالة فأغناكم الله ؟ وأعداء فألف الله بين قلوبكم ؟ قالوا بلى ، الله ورسوله أمنُّ وأفضل » .

والخلاصة — أن الله تعالى سمى ما كان منهم إسلاما وخضوعا لا إيمانا إظهارا لكذبهم فى قولهم آمنا، ثم لما منّوا على رسول الله بما كان منهم قال سبحانه لرسوله: أيعتدّون عليك بما ليس جديرا أن يعتد به من إسلامهم الذى سموه إيمانا وليس بذاك ؟ بل الله هوالذى يعتد عليهم إيمانهم إن صدقوا ، فهو قد أمدّهم بهديه وتوفيقه.
ثم أعاد الإخبار بعلمه بجميع الكائنات و بصره بأعمال المخلوقات فقال :

(إن الله يعلم غيب السموات والأرض والله بصير بما تعملون) أى إن الله يعلم ماغاب فيهما ، وهو بصير بسركم وعلانيتكم ، لايخفى عليه مافى ضمائركم .

وفى ذلك رمز إلى أنهم كاذبون فى إيمانهم ، و إعلان للنبى صلى الله عليه وسلم وأتباعه من المؤمنين بما فى أنفسهم .

خلاصة ماتضمنته السورة الكريمة

مباحث هذه السورة قسمان : قسم بين النبى صلى الله عليه وسلم وأمته ، وقسم يخص أمته وهو إما ترك للرذائل و إما تحلية بالفضائل . والقسم الأول هو :

(١) ألا يقضى المؤمنون فى أمر قبل أن يقضى الله ورسوله فيه .

(٢) الهيبة والإجلال لرسول الله صلى الله عليه وسلم، وألا تتجاوز أصواتهم صوته

(٣) ألا يخاطبوه باسمه وكنيته كما يخاطب بعضهم بعضا ، بل يخاطبونه بالنبى والرسول .

(٤) إن الذين يخفضون أصواتهم عند رسول الله أولئك هم المتقون .

(٥) إن من نادوه من وراء الحجرات كعُيينْة بن حِصن ومن معه أكثرهم لايعقلون .

(٦) ذمّ المنّ على الله ورسوله صلى الله عليه وسلم بالإيمان .

والقسم الثانى هو :

(١) ألا نسمع كلام الفاسق حتى نتثبّت منه وتظهر الحقيقة .

(٢) إذا بغت إحدى طائفتين من المؤمنين على أخرى وجب قتال الباغية حتى تفىء إلى أمر الله .

(٣) حبب الله الصلح بين المؤمنين .

(٤) النهى عن السخرية واللمز والتنابز .

(٥) النهى عن سوء الظن بالمسلم وعن تتبع العورات المستورة وعن الغيبة والنميمة.

(٦) الناس جميعا سواسية مخلوقون من ذكر وأنثى ، لافضل لأحد على أحد إلا بالتقوى .

سورة قٓ

هى مكية إلا آية ٣٨ فمدنية ، وعدة آيها خمس وأربعون، نزلت بعد المرسلات .

ومناسبتها لما قبلها ـ أنه أشار فى آخر السورة السابقة إلى أن إيمان أولئك الأعراب لم يكن إيمانا حقا ، وذلك يقتضى إنكار النبوة و إنكار البعث ، وافتتح هذه السورة بما يتعلق بذلك .

حدّث مسلم وغيره عن جابر بن سَمُرة أنه عليه الصلاة والسلام كان يقرأ هذه السورة فى الركعة الأولى من صلاة الفجر .

وأخرج أحمد ومسلم وأبو داود والنسائى عن أبى واقد الليثى « أنه صلى الله عليه وسلم كان يقرأ فى العيد بقاف واقتربت » .

وأخرج أبو داود والبيهقى وابن ماجه عن أم هشام بنة حارثة قالت « ما أخذت (قٓ والقرآن المجيد) إلا من فى رسول الله صلى الله عليه وسلم كان يقرأ بها فى كل جمعة على المنبر إذا خطب الناس » .

وكل ذلك دليل على أنه كان يقرأ بها فى المجامع الكبيرة كالعيدين والجُمع ، لاشتمالها على ابتداء الخلق والبعث والنشور والمعاد والحساب والجنة والنار والثواب والعقاب والترغيب والترهيب .

بِسْمِ ٱللهِ الرَّحْمٰنِ الرَّحِيمِ

قٓ وَالْقُرْآنِ الْمَجِيدِ (١) بَلْ عَجِبُوا أَنْ جَاءَهُمْ مُنْذِرٌ مِنْهُمْ فَقَالَ الْكَافِرُونَ هَذَا شَيْءٌ عَجِيبٌ (٢) أَءِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا ذَلِكَ رَجْعٌ بَعِيدٌ (٣) قَدْ عَلِمْنَا مَا تَنْقُصُ الْأَرْضُ مِنْهُمْ وَعِنْدَنَا كِتَابٌ حَفِيظٌ (٤) بَلْ كَذَّبُوا بِالْحَقِّ لَمَّا جَاءَهُمْ فَهُمْ فِي أَمْرٍ مَرِيجٍ (٥)

شرح المفردات

المجيد من المجد ، وهو كما قال الراغب: السعة فى الكرم من قولهم: مجدت الإبل إذا وقعت فى مرعى كثير واسع ، وُصف به القرآن لكثرة ماتضمنه من المكارم الدنيوية والأخروية ، رجع بعيد : أى بعث بعد الموت بعيد عن الأوهام ، ماتنقص الأرض : أى ماتأ كل من لحوم موتاهم وعظامهم ، حفيظ : أى حافظ لتفاصيل الأشياء كلها ، بالحق : أى بالنبوة الثابتة بالمعجزات ، مريج: أى مضطرب من قولهم: مرج الخاتم فى إصبعه إذا قلق من الهزال .

الإيضاح

(قٓ) تقدم أن قلنا غير مرة إن الحروف المفردة التى جاءت فى أوائل السور حروف لتنبيه السامع إلى مايرد بعدها ، وأكثر ماجاء ذلك إذا ورد بعدها وصف القرآن كما هنا .

(والقرآن المجيد) أقسم الله سبحانه بكتابه الكثير الخير والبركة — إنك أيها الرسول جئتهم منذرا بالبعث ، يدل على ذلك قوله تعالى« يٰسٓ وَالْقُرْآنِ الْحَكِيمِ . إِنَّكَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ — إلى أن قال — لِتُنْذِرَ قَوْمًا مَا أُنْذِرَ آبَاؤُهُمْ » .

(بل عجبوا أن جاءهم منذر منهم) أى إنك جئتهم منذرا بالبعث فلم يقبلوا ولم يكتفوا بالشك فى أمرك وردّ رسالتك ، بل جزموا بنفيها ، وجعلوها من عجائب الأمور التى تستحق الدهشة ، وكثير التأمل والاعتبار .

ثم فسر تعجبهم وفصّل محل التعجب وهو إنذاره بالقرآن فقال :

(فقال الكافرون هذا شىء عجيب) أى فقال المكذبون بالله ورسوله من قريش إذ جاءهم منذر منهم : هذا شىء عجيب أى إن مجىء رجل منا برسالة من الله إلينا

أمر عجيب ، هلا أنزل إلينا ملكا فيكون لنا نذيرا ، كما حكى عنهم من قولهم : « أَبَشَرًا مِنَّا وَاحِدًا نَتَّبِعُهُ » وقوله حكاية عنهم « قَالُوا مَا أَنْتُمْ إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُنَا » .

و بعد أن أظهروا التعجب من رسالته أظهروا استبعاد ما جاء به فقالوا :

(أئذا متنا وكنا ترابا ذلك رجع بعيد) أى أحين نموت ونصير ترابا نرجع كما يقول النذير ؟ إن ذلك الرجوع بعد الموت لبعيد عن الأوهام لايصدّقه العقل وتحيله العادة .

ثم أشار إلى دليل جواز البعث وقدرته تعالى عليه فقال :

(قد علمنا ماتنقص الأرض منهم) أى قد علمنا ما تأكل الأرض من لحوم موتاهم وعظامهم ، ولا يخفى علينا أين تفرقت الأبدان ، وأين ذهبت ، و إلى أين صارت ؟ فلا يصعب علينا البعث ولا يستبعد .

ثم أكد علمه بجميع الأشياء فقال :

(وعندنا كتاب حفيظ) أى وعندنا كتاب حافظ لتفاصيل الأشياء كلها ، وهذا تمثيل لحال علمه تعالى للكائنات جميعا علما كاملا بعلم من عنده كتاب حفيظ يتلقى منه كل شىء ، فيضبط مايعلم أتم الضبط و يحصيه أكمل الإحصاء .

ثم حكى عنهم ماهو أفظع من تعجبهم وهو تكذيبهم بالنبوة الثابتة بالمعجزات من أول وهلة بلا تدبر ولا تفكر فقال :

(بل كذبوا بالحق لما جاءهم) أى بل كذبوا بالنبوة التى قامت الأدلة على صدقها وأيدتها المعجزات الباهرة ، وهم إذا كذبوا بها فقد كذبوا بما أنبأ به الرسول من البعث وغيره ، ولاشك أن هذا الإنكار أعظم جُرما وأشد بلية من الإنكار بما جاء به الرسول ، إذ به أنكروا الصلة الروحية بين الله ومن يصطفيه من خلقه من ذوى النفوس الصافية وأرباب الأرواح العالية .

(فهم فى أمر مريج) أى فهم فى قلق واضطراب ، فتارة ينفون الرسالة عن البشر،

وأخرى يزعمون أنها لاتليق إلا بأهل الجاه والرياسة كما ينبئ بهذا قولهم : « لَوْلاَ نُزِّلَ هَذا الْقُرْآنُ عَلَى رَجُلٍ مِنَ الْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ » وثالثة يقولون: إنها سحر أو كهانة إذ قالوا للنبى صلى الله عليه وسلم :ساحر أو كاهن إلى نحو ذلك من أقاويلهم التى تدل على اضطراب فى الأمر وقلق فى الفكر ، فهم لايدرون ماذا يفعلون حين جاءهم النذير الذى أقضّ مضاجعهم ، وجعلهم حيارى دهشين ، إلام هم صائرون ؟ وإلى أى منقلب ينقلبون ؟

أَفَلَمْ يَنْظُرُوا إِلَى السَّمَاءِ فَوْقَهُمْ كَيْفَ بَنَيْنَاهَا وَزَيَّنَّاهَا وَمَا لَهَا مِنْ فُرُوجٍ (٦) وَالْأَرْضَ مَدَدْنَاهَا وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَاسِيَ وَأَنْبَتْنَا فِيهَا مِنْ كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ (٧) تَبْصِرَةً وَذِكْرَى لِكُلِّ عَبْدٍ مُنِيبٍ (٨) وَنَزَّلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً مُبَارَكًا فَأَنْبَتْنَا بِهِ جَنَّاتٍ وَحَبَّ الْحَصِيدِ (٩) وَالنَّخْلَ بَاسِقَاتٍ لَهَا طَلْعٌ نَضِيدٌ (١٠) رِزْقًا لِلْعِبَادِ وَأَحْيَيْنَا بِهِ بَلْدَةً مَيْتًا كَذَلِكَ الْخُرُوجُ (١١) .

شرح المفردات

بنيناها : أى أحكمنا بناءها ، فجعلناها بغير عمد ، وزيناها : أى بالكواكب ، فروج . أى شقوق ، مددناها : أى بسطناها ، رواسى : أى جبالا ثوابت تمنعها من الميد والاضطراب ، زوج : أى صنف ، بهيج : أى ذى بهجة وحسن ، تبصرة وذكرى : أى تبصيرا وتذكيرا ، منيب : من أناب إذا رجع وخضع، حب الحصيد: أى حب الزرع الذى من شأنه أن يحصد كالبرّ والشعير ، باسقات : أى طويلات ،

والطلع مايخو ويصير بلحا ثم رطبا ثم تمرا ، ونضيد : أى منضود بعضه فوق بعض ، الخروج : أى من القبور .

المعنى الجملى

بعد أن ذكر أنهم استبعدوا البعث فقالوا رجع بعيد — أردف ذلك بالدليل الذى يدحض كلامهم ، فإن من خلق السماء وزينها بالكواكب ، و بسط الأرض وجعل فيها رواسى وأنبت فيها صنوف النبات ، وجعل ذلك تذكرة وتبصرة لأولى الألباب ، ونزل من السماء ماء فأنبت به ناضر الجنان ، والزرع المختلف الأصناف والألوان ، والنخل الباسق ذا الطلع المتراكم بعضه فوق بعض رزقا لعباده ، وأحيا به الأرض الموات — أفلا يستطيع من هذا شأنه أن يخرج الناس من قبورهم بعد بلاهم و بعد أن يصيروا عظاما ورفاتا ، وينشئهم خلقا آخر فى حياة أخرى وعالمَ غير هذا العالم ؟

الإيضاح

(أفلم ينظروا إلى السماء فوقهم كيف بنيناها وزيناها وما لها من فروج) أى أفلم ينظر هؤلاء المكذبون بالبعث بعد الموت المنكرون قدرتنا على إحيائهم بعد البلى — إلى السماء فوقهم كيف رفعناها بلا عمد ، وزيناها بالكواكب وما لها من فتوق ، فهى ملساء متلاصقة الطباق ، وهذا هو الرأى الحديث فى عالم السموات ، إذ يقولون إن هناك عالما لطيفا أرق من الهواء وألطف من كل مانراه وهو مبدأ كل شىء وأول كل شىء وهو العالم المسمى بالأثير ، وهذا العالم وإن لم يره الناس فقد عرفوه من وصول أضواء الكواكب إلينا ، فإن من الكواكب ما لايصل ضوءه إلينا إلا فيما يزيد على ألف ألف سنة ، ونور الشمس (التى تبعد عنا مقدار سير القطار إليها

لو أمكن فى نحو خمس وستين وثلثمائة سنة) يصل إلينا فى مدة ثمان دقائق وثمانى عشرة ثانية .

فانظر كيف يكون بُعْد تلك الكواكب التى تحتاج بسير النور إلى مليون سنة ونصف مليون : ألا يدل هذا على أن ذلك الضوء محمول على شىء موجود وهو الأثير فلو أن طبقة من الطبقات لم يكن فيها الأثير لانقطع سير النور إلى الأرض ولم نره .

وهذا مايشير إليه الكتاب بقوله : « وَمَا لَهَا مِنْ فُرُوجٍ » فلو كان هنالك فروج تتخلل السموات لانقطع سير النور إلينا .

وآراء الجهلة فى كل أمة أن كل سماء منفصلة عن الأخرى و بينهما فضاء كما يظن لأول وهلة فيما بيننا و بين السماء ، فجاء الكتاب الكريم وعكس هذه القضية وقال لافروج فى السماء أى لاخلاء فى العالم .

(والأرض مددناها وألقينا فيها رواسى وأنبتنا فيها من كل زوج بهيج) أى والأرض بسطناها وألقينا فيها جبالا ثوابت لئلا تميد وتضطرب ، وأنبتنا فيها من كل صنف من صنوف النبات ماحسن منظره ، وراق مخبره .

(تبصرة وذكرى لكل عبد منيب) أى فعلنا ذلك لتبصرة العبد المنيب وادكاره ، فإن رفعتُ السماء أو زينتها بالكواكب فلاستبصاره ، وإن بسطت الأرض أو أرسيتها بالجبال أو أنبتّ النبات زينة للأرض فلاعتباره .

ثم شرع يبين كيفية ماذكر من إنبات كل زوج بهيج فقال :

(ونزلنا من السماء ماء مباركا فأنبتنا به جنات وحبَّ الحصيد) أى ونزلنا من السماء ماء كثير المنافع ، إذ أنبتنا به جنات غناء ، وحدائق فيحاء ، وحب الزرع الذى من شأنه أن يحصد كالشعير والقمح وغيرهما .

(والنخل باسقات لها طلع نضيد . رزقا للعباد) أى وأنبتنا به النخل الطوال التى لها طلع منضود متراكم بعضه فوق بعض ، لأقوات العباد وأرزاقهم .

عن قطبة قال : «سمعت النبى صلى الله عليه وسلم يقرأ فى الصبح قٓ فلما أتى على هذه الآية ــ وَالنَّخْلَ بَاسِقَاتٍ ــ فجعلت أقول مابسوقها ؟ قال طولها » أخرجه الحاكم وصححه وابن مردويه .

ولم يقيد هنا العباد بالإنابة كما قيد به فى قوله : « تَبْصِرَةً وَذِكْرَى لِكُلِّ عَبْدٍ مُنِيبٍ » لأن التذكرة لاتكون إلا لمنيب ، والرزق يعم كل أحد ، غير أن المنيب يأكل ذاكراً وشاكراً للإنعام ، وغيره يأكل كما تأكل الأنعام، ومن ثم لم يخصص الرزق بقيد .

(وأحيينا به بلدة ميتاً) أى وأحيينا بذلك الماء الأرض الجدبة التى لانبات فيها فربَتْ وأنبتت من كل زوج بهيج .

ثم جعل ماسلف كالدليل على البعث لأنه شبيه به فقال :

(كذلك الخروج) أى ومثل هذه الحياة البديعة حياتكم بالبعث من القبور .

وفى التعبير عن إخراج النبات من الأرض بالإحياء ، وعن إحياء الموتى بالخروج تفخيم لشأن الإنبات وتهوين لأمر البعث ، وتحقيق المماثلة بين إخراج النبات و إحياء الموتى لتوضيح منهاج القياس ، وتقريبه لأفهام الناس .

كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَأَصْحَابُ الرَّسِّ وَثَمُودُ (١٢) وَعَادٌ وَفِرْعَوْنُ وَإِخْوَانُ لُوطٍ (١٣) وَأَصْحَابُ الْأَيْكَةِ وَقَوْمُ تُبَّعٍ كُلٌّ كَذَّبَ الرُّسُلَ فَحَقَّ وَعِيدِ (١٤) أَفَعَيِينَا بِالْخَلْقِ الْأَوَّلِ بَلْ هُمْ فِي لَبْسٍ مِنْ خَلْقٍ جَدِيدٍ (١٥) .

شرح المفردات

الرس : البئر التى لم تطو أى لم تبن ، وأصحابه هم من بعث إليهم شعيب عليه الصلاة والسلام ، والأيكة : الغيضة الملتفة الشجر ، تبّع : هو تبع الحِمْيَرى ، والعِىّ

عن الأمر. العجز عنه : قال الكسائى تقول أعييت من التعب ، وعييت من العجز عن الأمر وانقطاع الحيلة ، ولبس : أى شك شديد وحيرة واختلاط .

المعنى الجملى

بعد أن ذكر تكذيب المشركين للرسول صلى الله عليه وسلم — أردف ذلك بذكر المكذبين للرسل من قبله وبيان ما آل إليه أمرهم ، تسلية لرسوله صلى الله عليه وسلم وعبرة لهم ، وتنبيها إلى أن حاله معهم كحال من تقدمه من الرسل ، كُذِّبوا فصبروا فأهلك الله مكذبيهم ونصرهم وأعلى كلمتهم كما قال : « وَلَيَنْصُرَنَّ اللهُ مَنْ يَنْصُرُهُ » وقال: « وَلَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَتُنَا لِعِبَادِنَا الْمُرْسَلِينَ . إِنَّهُمْ لَهُمُ الْمَنْصُورُونَ . وَإِنَّ جُنْدَنَا لَهُمُ الْغَالِبُونَ » .

وبعد أن ذكر دلائل الآفاق من خلق السموات والأرض أعقبه بذكر دلائل الأنفس كما قال : « سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الْآفَاقِ وَفِي أَنْفُسِهِمْ » .

الإيضاح

(كذبت قبلهم قوم نوح وأصحاب الرس وثمود . وعاد وفرعون وإخوان لوط . وأصحاب الأيكة وقوم تبع ، كل كذب الرسل فحق وعيد) هدد سبحانه كفار قريش بما أحله بأشباههم ونظرائهم من المكذبين قبلهم من النقم والعذاب الأليم فى الدنيا والآخرة ، فقد أغرق قوم نوح بالطوفان ، وأهلك جميع من ذكروا بعدهم من الأمم التى كذبت رسلها بضروب شتى من العذاب ، وحق عليهم وعيد ربهم ، ونصر الله أنبياءه وأعلى كلمتهم وكانت العاقبة للمتقين ، وقد تقدمت هذه القصص فى مواضع متفرقة من الكتاب الكريم .

ثم ذكر مايؤكد صحة البعث الذى أنكرته الأمم المكذبة فقال :

(أفعيينا بالخلق الأول ؟ بل هم فى لبس من خلق جديد) أى أفأعجزنا ابتداء

الخلق حتى يشكوا فى الإعادة ؟ أى إن ابتداء الخلق لم يعجزنا والإعادة أسهل من الابتداء ، فلا حق لهم فى تطرق الشبهة إليهم والشك فيه ، كما قال : « وَهُوَ الَّذِى يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ » وقال: « وَضَرَبَ لَنَا مَثَلاً وَنَسِىَ خَلْقَهُ قَالَ مَنْ يُحْيِي الْعِظَامَ وَهِىَ رَمِيمٌ ؟ قُلْ يُحْيِيهَا الَّذِى أَنْشَأَهَا أَوَّلَ مَرَّةٍ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ » وجاء فى الحديث القدسى : « يقول الله تعالى يؤذينى ابن آدم يقول لن يعيدنى كما بدأنى ، وليس أول الخلق بأهون علىّ من إعادته » .

وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ وَنَعْلَمُ مَا تُوَسْوِسُ بِهِ نَفْسُهُ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ الْوَرِيدِ (١٦) إِذْ يَتَلَقَّى الْمُتَلَقِّيَانِ عَنِ الْيَمِينِ وَعَنِ الشِّمَالِ قَعِيدٌ (١٧) مَا يَلْفِظُ مِنْ قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ (١٨) وَجَاءَتْ سَكْرَةُ الْمَوْتِ بِالْحَقِّ ذَلِكَ مَا كُنْتَ مِنْهُ تَحِيدُ (١٩) وَنُفِخَ فِى الصُّورِ ذَلِكَ يَوْمُ الْوَعِيدِ (٢٠) وَجَاءَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَعَهَا سَائِقٌ وَشَهِيدٌ (٢١) لَقَدْ كُنْتَ فِى غَفْلَةٍ مِنْ هَذَا فَكَشَفْنَا عَنْكَ غِطَاءَكَ فَبَصَرُكَ الْيَوْمَ حَدِيدٌ (٢٢) .

شرح المفردات

الوسوسة : الصوت الخفىّ ومنه وسواس الحلى ؛ والمراد بها هنا حديث النفس وما يخطر بالبال من شتى الشئون ، وحبل الوريد : عرق كبير فى العنق ، وللإنسان وريدان مكتنفان بصفحتى العنق فى مقدمهما متصلان بالوتين يردان من الرأس إليه، وقعيد : بمعنى مقاعد كالجليس بمعنى المجالس ، والرقيب : ملك يرقب قوله ويكتبه ، فإن كان خيرا فهو صاحب اليمين ، وإن كان شرا فهو صاحب الشمال ، عتيد : أى مهيأ لكتابة مايؤمر به من الخير والشر ، سكرة الموت : شدته ، بالحق : أى بحقيقة

الحال ، تحيد : أى تميل وتعدل ، يوم الوعيد : أى يوم إنجازالوعيد ، السائق والشهيد : ملكان أحدهما يسوق النفس إلى أمر الله ، والآخر : يشهد عليها بعملها ، والغطاء : الحجاب المغطى لأمور المعاد ، وهو الغفلة والانهماك فى اللذات وقصر النظر عليها ، حديد : أى نافذ ، لزوال المانع للإبصار .

المعنى الجملى

بعد أن استدل على إمكان البعث بقوله : أَفَعَيِينَا بِالْخَلْقِ الْأَوَّلِ — أردف ذلك بدليل آخر على إمكانه وهو علمه بما فى صدورهم وعدم خفاء شىء من أمرهم عليه ، فإن من كان كذلك لايبعد أن يعيدهم كرة أخرى ، ثم أخبر بأنهم سيعلمون بعد الموت أن ماجاء به الدين حق لاشك فيه ، وأنه يوم القيامة تأتى كل نفس ومعها ملكان أحدهما سائق لها إلى المحشر والثانى شهيد عليها ، وأن الخزنة سيقولون لأهل النار : لقد كنتم فى غفلة عن حلول هذا اليوم الذى توفى كل نفس جزاء ماعملت ، والآن أزلنا عنكم هذه الغفلة فأبصرتم عاقبة أمركم .

الإيضاح

(ولقد خلقنا الإنسان ونعلم ماتوسوس به نفسه) أى إنه تعالى قادر على بعث الإنسان ، لأنه خالقه وعالم بجميع أموره حتى إنه ليعلم ماتوسوس به نفسه من الخير والشر ولا عقاب على حديث النفس ، وقد ثبت فى الصحيح عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال : « إن الله تجاوز لأمتى ماحدّثت به أنفسها مالم تقل أو تفعل » .

(ونحن أقرب إليه من حبل الوريد) أى ونحن أعلم به وبخفيات أحواله لايخفى علينا شىء من أمره ، من علمكم بحبل الوريد ، لأن العرق تحجبه أجزاء من اللحم ، وعلم الله لايحجب عنه شىء .

أخرج ابن مردويه عن أبى سعيد عن النبى صلى الله عليه وسلم قال « نزل الله من ابن آدم أربع منازل ، هو أقرب إليه من حبل الوريد ، وهو يحول بين المرء وقلبه ، وهو آخذ بناصية كل دابة ، وهو معهم أينما كانوا » .

قال القشيرى فى هذه الآية : هيبة وفزع وخوف لقوم ، ورَوح وأنس وسكون قلب لقوم .

ثم ذكر سبحانه أنه مع علمه به وكل به ملكين يكتبان ويحفظان عليه عمله إلزاما للحجة فقال :

(إذ يتلقى المتلقيان) أى نحن أعلم بحاله من كل قريب حين يتلقن الحفيظان مايتلفظ به ، مع أننا أغنياء عن استحفاظ الملكين لشدة قربنا منه .

(عن اليمين وعن الشمال قعيد) أى عن اليمين قعيد وعن الشمال قعيد أى مقاعد ومجالس له يترصد مايقول ويعمل ، فالذى عن اليمين يكتب الحسنات ، والذى عن الشمال يكتب السيئات .

قال الحسن وقتادة : المتلقيان ملكان يتلقيان عملك : أحدهما عن يمينك ويكتب حسناتك ، والآخر عن شمالك يكتب سيئاتك .

ثم ذكر عملهما واستعدادهما لأدائه فقال :

(ما يلفظ من قول إلا لديه رقيب عتيد) أى لايلفظ بكلمة من فيه إلا لديه ملك حاضر معه مراقب لأعماله ، يكتب مافيه ثوابه أو عقابه .

قال الحسن البصرى وتلا هذه الآية (عنِ الْيَمِينِ وَعَنِ الشِّمَالِ قَعِيدٌ) يابن آدم بُسطت لك صحيفة ، ووكل به ملكان كريمان ، أحدهما عن يمينك ، والآخر عن شمالك ، فأما الذى عن يمينك فيحفظ حسناتك ، وأما الذى عن يسارك فيحفظ سيئاتك ، فاعمل ماشئت ، أقلل أو أكثر ، حتى إذا متَّ طويت صحيفتك وجعلت فى عنقك معك فى قبرك حتى تخرج يوم القيامة ، فعند ذلك يقول تعالى :

« وَكُلَّ إِنْسَانٍ أَلْزَمْنَاهُ طَائِرَهُ فِي عُنُقِهِ وَنُخْرِجُ لَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ كِتَابًا يَلْقَاهُ مَنْشُورًا . اقْرَأْ كِتَابَكَ كَفَى بِنَفْسِكَ الْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيبًا » ثم قال : عدل والله فيك من جعلك حسيب نفسك .

وروى أبو أسامة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « كاتب الحسنات أمير على كاتب السيئات ، فإذا عمل حسنة كتبها ملَك اليمين عشرا ، وإذا عمل سيئة قال صاحب اليمين لصاحب الشمال : دعه سبع ساعات لعله يسبح أو يستغفر » .

والحكمة فى هذا أن الله لم يخلق الناس لتعذيبهم ، بل خلقهم لتربيتهم وتهذيبهم فكل ألم فهو لرقى النفس ، والعالم المادى من طبعه أن يكون نفعه أكثر من ضره ، والله تعالى خلقنا لغاية شريفة لنا ، والحسنات هى الأصل والسيئات عارضة ؛ كما أن المنافع فى الطبيعة هى الأصل والمضارّ عارضة ، فالنار خلقت لنفعه ، والماء لنفعه ، والهواء لنفعه ، فإذا أُحرق ثوب الناسك ، أو أغرق رب صبية لاعائل لهم ، فهذا عارض ، والأصل فى ذلك المنافع ، وهكذا خلق نوع الإنسان للخير ، والشر عارض ، ولفعل الحسنات ، والسيئات عارضة .

وبعد أن ذكر استبعادهم البعث للجزاء ، وأزاح ذلك بتحقيق قدرته وعلمه أعلمهم بأنهم يلاقون صدق ذلك حين الموت وحين قيام الساعة فقال :

(وجاءت سكرة الموت بالحق) أى وكشفت لك سكرة الموت عن اليقين الذى كنت تمترى فيه ، وأن البعث لا شك فيه .

(ذلك ما كنت منه تحيد) أى ذلك الحق الذى كنت تفر منه قد جاءك ، فلا محيد ولا مناص ، ولا فكاك ولا خلاص .

ولما ثقل أبو بكر جاءت عائشة رضى الله عنها فتمثلت بقول حاتم :

لعَمْرُكَ ما يُغْنِى الثراء عن الفتى إذا حشرجتْ يوما وضاق بها الصدرُ

فكشف رضى الله عنه عن وجهه وقال : ليس كذلك ، ولكن قولى : « وَجَاءَتْ سَكْرَةُ الْمَوْتِ بِالْحَقِّ ذَلِكَ مَا كُنْتَ مِنْهُ تَحِيدُ » .

وفى الصحيح « أن النبى صلى الله عليه وسلم لما تغشاه الموت جعل يمسح العرق عن وجهه ويقول : سبحان الله ، إن للموت لسكرات » .

(ونفخ فى الصور ذلك يوم الوعيد) أى ونفخ فى الصور نفخة البعث ، وذلك الزمان العظيم الأهوال هو اليوم الذى أوعد الله الكفار أن يعذبهم فيه .

وفى الحديث أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « كيف أنعم وصاحب القرن قد التقم القرن وحنى جبهته وانتظر أن يؤذن له ؟ قالوا يارسول الله ماذا نقول ؟ قال : قولوا : حسبنا الله ونعم الوكيل » .

(وجاءت كل نفس معها سائق وشهيد) أى وجاءت فى هذا اليوم كل نفس ربها ومعها سائق يسوقها إلى الله ، وشهيد يشهد عليها بما عملت فى الدنيا من خير أو شر .

(لقد كنت فى غفلة من هـذا فكشفنا عنك غطاءك فبصرك اليوم حديد) أى لقد كنت أيها الإنسان فى غفلة من هذا الذى عاينت من الأهوال والشدائد ، فجلّينا ذلك لك ، وأظهرناه لعينيك حتى رأيته وعاينته ، فزالت عنك الغفلة .

وقد جعل سبحانه الغفلة غطاء غطى به الجسد كله ، أو غشاوة غشى بها عينيه فلا يبصر شيئا ، فإذا كان يوم القيامة تيقظ وزالت عنه الغفلة وغطاؤها ، فأبصر مالم يكن يبصره من الحق .

وَقَالَ قَرِينُهُ هَذَا مَا لَدَيَّ عَتِيدٌ (٢٣) أَلْقِيَا فِي جَهَنَّمَ كُلَّ كَفَّارٍ عَنِيدٍ (٢٤) مَنَّاعٍ لِلْخَيْرِ مُعْتَدٍ مُرِيبٍ (٢٥) الَّذِي جَعَلَ مَعَ اللَّهِ إِلَٰهًا آخَرَ فَأَلْقِيَاهُ فِي الْعَذَابِ الشَّدِيدِ (٢٦) قَالَ قَرِينُهُ رَبَّنَا مَا أَطْغَيْتُهُ وَلَٰكِنْ كَانَ

فِي ضَلَالٍ بَعِيدٍ (٢٧) قَالَ لَا تَخْتَصِمُوا لَدَيَّ وَقَدْ قَدَّمْتُ إِلَيْكُمْ بِالْوَعِيدِ (٢٨) مَا يُبَدَّلُ الْقَوْلُ لَدَيَّ وَمَا أَنَا بِظَلَّامٍ لِلْعَبِيدِ (٢٩) يَوْمَ نَقُولُ لِجَهَنَّمَ هَلِ امْتَلَأْتِ وَتَقُولُ هَلْ مِنْ مَزِيدٍ (٣٠) .

شرح المفردات

القرين : هو الملك الموكل بالمرء ، عتيد : أى معدّ مُحْضر ، عنيد : أى مبالغ فى العناد وترك الانقياد للحق ، مناع للخير: أى كثير المنع للمال فى الحقوق المفروضة عليه، معتد : أى متجاوز للحق ظالم ، مريب: أى شاكّ فى الله وفى دينه ، القرين هنا : الشيطان المقيَّض له ، بعيد : أى من الحق ، لاتختصموا لدىّ : أى لايجادل بعضكم بعضا عندى ، بالوعيد : أى على الطغيان فى دار الدنيا فى كتبى وعلى ألسنة رسلى ، مايبدل القول لدى : أى لايقع فيه الخلف والتغيير فلا تطمعوا أن أبدل وعيدى ، مزيد : زيادة .

الإيضاح

(وقال قرينه هذا مالدىّ عتيد) أى وقال الملك الموكل به : هذا الذى وكلتنى به من بنى آدم قد أحضرته وأحضرت ديوان أعماله .

(ألقيا فى جهنم كل كفار عنيد . مناع للخير معتد مريب . الذى جعل مع الله إلهاً آخر) أى قال تعالى للسائق والشهيد : ألقيا فى جهنم كل من كفر بالله وكذب بالحق وعارضه بالباطل ، ومنع الحقوق المفروضة عليه ، واعتدى على الناس بلسانه بالبذاء والفحش ، وبيده بالسطوة والبطش ظلما ، وشك فى وحدانية الله وقدرته على مايشاء ، وأشرك به فعبد معه معبوداً سواه من خلقه .

ثم كرر ماسلف توكيداً فقال :

(فألقياه فى العذاب الشديد) أى فألقياه فى النار ذات العذاب الشديد .

(قال قرينه ربنا ما أطغيته ولكن كان فى ضلال بعيد) أى فقال الكافر معتذرا : رب إن قرينى من الشياطين أطغانى ، فقال الشيطان المقيض له : ربنا ما أطغيته ، ولكن كان طبعه وديدنه الضلال والبعد عن الحق ، فسار على النهج الذى يشاكل أخلاقه .

وخلاصة ذلك — إنه فى ضلال بعيد المدى لايرجع عنه إلى الحق .

ونحو الآية قوله : « وَمَا كَانَ لِي عَلَيْكُمْ مِنْ سُلْطَانٍ إِلاَّ أَنْ دَعَوْتُكُمْ فَاسْتَجَبْتُمْ لِي » .

(قال لاتختصموا لدىّ وقد قدمت إليكم بالوعيد) أى قال عز اسمه للإنسى وقرينه من الجن حين اختصما ، فقال الإنسى : رب إن هذا أضلنى عن الذكر بعد إذ جاءنى ، وقال الشيطان : ربنا ما أطغيته ولكن كان فى ضلال بعيد عن منهج الحق — لاتختصموا عندى ، فقد أعذرت إليكم على ألسنة الرسل وأنزلت الكتب، وقامت عليكم الحجج .

والخلاصة — إنهم اعتذروا بغير مايصلح أن يكون عذرا ، فأبطل الله حجتهم وردّ عليهم قولهم .

(مايبدل القول لدىّ) أى لايغيّر قضائى الذى قضيته ، ووعيدى الذى أوعدته بتخليد الكفار فى النار ومجازاة العصاة على قدر مايستحقون .

(وما أنا بظلام للعبيد) فلا أعذب أحدا بغير جُرم اجترمه ، ولا ذنب جناه ، ولا أعذب أحدا مكان أحد .

ثم ذكر مكان حلول الوعيد فقال :

(يوم نقول لجهنم هل امتلأت وتقول هل من مزيد) أى وأنذر قومك يوم نقول لجهنم هل امتلأت بما ألقى إليك فوجا بعد فوج ؟ فتقول لامزيد بعد ذلك .

وفى هذا بيان لأنها مع اتساعها وتباعد أقطارها ، يطرح فيها من الجِنّة والناس جماعات بعد جماعات حتى تمتلئ ولا تقبل الزيادة .

وهـذا السؤال والجواب جىء بهما للتمثيل وتصوير المعنى بإبرازه فى لباس المحسوس ليتضح أمره .

روى عن ابن عباس أنه قال : سبقت كلمته : لأملأنّ جهنم من الجنة والناس أجمعين ، فلما سيق أعداء الله إليها صارت لايلقى فيها فوج إلا ذهب فيها ولا يملؤها شىء فتقول : ألست قد أقسمتَ لتملأنّى ؟ فيضع قدمه عليها فيقول : هل امتلأتِ ؟ فتقول : قَطْ قَطْ (كفى كفى) قد امتلأت وليس من مزيد .

وَأُزْلِفَتِ الْجَنَّةُ لِلْمُتَّقِينَ غَيْرَ بَعِيدٍ (٣١) هَذَا مَا تُوعَدُونَ لِكُلِّ أَوَّابٍ حَفِيظٍ (٣٢) مَنْ خَشِيَ الرَّحْمَٰنَ بِالْغَيْبِ وَجَاءَ بِقَلْبٍ مُنِيبٍ (٣٣) ادْخُلُوهَا بِسَلَامٍ ذَلِكَ يَوْمُ الْخُلُودِ (٣٤) لَهُمْ مَا يَشَاءُونَ فِيهَا وَلَدَيْنَا مَزِيدٌ (٣٥) .

شرح المفردات

أزلفت : أى أدنيت وقُرّبت ، غير بعيد : أى فى مكان غير بعيد منهم بل هو بمرأى منهم ومسمع ، هذا ماتوعدون : أى هذا هو الثواب الذى وعدتم به على ألسنة الرسل ، أوّاب : أى رجاع عن المعصية إلى الطاعة ، حفيظ : أى حافظ لحدود الله وشرائعه ، خشى الرحمن بالغيب : أى خاف عقاب ربه وهو غائب عن الأعين حين لايراه أحد ، منيب : أى مخلص مقبل على طاعة الله ، بسلام : أى سالمين من العذاب وزوال النعم ، الخلود : أى فى الجنة إذ لاموت فيها ، مزيد : أى مما لاعين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر .

المعنى الجملى

بعد أن ذكر الحوار بين الكافر وقرينه من الشياطين ، واعتذار الكافر وردّ القرين عليه ، وأن الله سبحانه نهاهم عن الاختصام لديه ، لأنه لافائدة فيه بعد أن أوعدهم على ألسنة رسله — أردف هذا بذكر حال المتقين ، فذكر أن الجنة تكون قريبة منهم بحيث يرونها رأى العين ، فتطمئن إليها نفوسهم ، وتثلج لمرآها صدورهم، ويقال لهم هذا هو الثواب الذى وعدتم به على ألسنة الأنبياء والرسل ، وهو دائم لانفاد له ولا حصر ، فكل مايريدون من لذة ونعيم فهو حاضر ، ولهم فوق هذا رضوان من ربهم « وَرِضْوَانٌ مِنَ اللهِ أَكْبَرُ » .

الإيضاح

(وأزلفت الجنة غير بعيد) أى وأدنيت الجنة للذين اتقوا ربهم واجتنبوا معاصيه ، بحيث تكون بمرأى العين منهم ، إكراما لهم ، واطمئنانا لنفوسهم ، فيرون ما أعدّ لهم من نعيم وحبور ، ولذة وسرور ، لانفاد له ولا فناء .

(هـذا ماتوعدون) أى وتقول لهم الملائكة : هذا هو النعيم الذى وعدكم به ربكم على ألسنة رسله ، وجاءت به كتبه ، ثم بين المستحق لهذا النعيم فقال :

(لكل أوّاب حفيظ . من خشى الرحمن بالغيب وجاء بقلب منيب) أى هذا الثواب للمتقين الذين يرجعون من معصية الله إلى طاعته تائبين من ذنوبهم ويلقون الله بقلوب منيبة إليه ، خاضعة له .

(ادخلوها بسلام) أى وتقول لهم الملائكة تكرمة لهم : ادخلوا الجنة سالمين من العذاب والهموم والأكدار ، فلا خوف عليكم ولا أنتم تحزنون .

ثم يبشّرون ويقال لهم :

(ذلك يوم الخلود) أى فاطمئنوا وقرّوا عينا ، فهذا يوم الخلود الذى لاموت بعده ، ولا ظعن ولا رحيل .

ثم زاد فى البشرى فقال :

(لهم مايشاءون فيها ولدينا مزيد) أى لهم إجابة لسؤلهم كل مايشتهون ، ثم نزيدهم فوق ما سألوا مما لم تره أعينهم ولم يدر بخلدهم .

ونحو الآية قوله : « لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا الْحُسْنَى وَزِيَادَةٌ » .

وَكَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُمْ مِنْ قَرْنٍ هُمْ أَشَدُّ مِنْهُمْ بَطْشًا فَنَقَّبُوا فِي الْبِلَادِ هَلْ مِنْ مَحِيصٍ (٣٦) إِنَّ فِي ذَلِكَ لَذِكْرَى لِمَنْ كَانَ لَهُ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى السَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ (٣٧) وَلَقَدْ خَلَقْنَا السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ وَمَا مَسَّنَا مِنْ لُغُوبٍ (٣٨) فَاصْبِرْ عَلَى مَا يَقُولُونَ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ وَقَبْلَ الْغُرُوبِ (٣٩) وَمِنَ اللَّيْلِ فَسَبِّحْهُ وَأَدْبَارَ السُّجُودِ (٤٠) وَاسْتَمِعْ يَوْمَ يُنَادِي الْمُنَادِي مِنْ مَكَانٍ قَرِيبٍ (٤١) يَوْمَ يَسْمَعُونَ الصَّيْحَةَ بِالْحَقِّ ذَلِكَ يَوْمُ الْخُرُوجِ (٤٢) إِنَّا نَحْنُ نُحْيِي وَنُمِيتُ وَإِلَيْنَا الْمَصِيرُ (٤٣) يَوْمَ تَشَقَّقُ الْأَرْضُ عَنْهُمْ سِرَاعًا ذَلِكَ حَشْرٌ عَلَيْنَا يَسِيرٌ (٤٤) نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَقُولُونَ وَمَا أَنْتَ عَلَيْهِمْ بِجَبَّارٍ فَذَكِّرْ بِالْقُرْآنِ مَنْ يَخَافُ وَعِيدِ (٤٥) .

شرح المفردات

القرن : الجيل من الناس ، بطشاً : أى قوة ، فنقّبوا فى البلاد : أى ساروا فيها يبتغون الأرزاق والمكاسب ، ويقال لمن طوّف فى الأرض نقّب فيها .

قال امرؤ القيس :

وقد نقّبتُ فى الآفاق حتى　　رضيت من الغنيمة بالإياب

محيص : أى مهرب ، لذكرى : أى لعبرة ، قلب : أى لبٌّ يعى به ، أو ألقى السمع : أى أصغى إلى مايتلى عليه من الوحى ، شهيد : أى حاضر فهو من الشهود بمعنى الحضور ، والمراد به الفطِن ، إذ غيره كأنه غائب ، لغوب : أى تعب ، سبح بحمد ربك : أى نزهه عن كل نقص ، أدبار السجود : أى أعقاب الصلوات ، واحدها دبر (بضم فسكون و بضمتين) واستمع : أى لما أخبرك به من أهوال يوم القيامة ، يوم ينادى المنادى : أى يخرجون من القبور يوم ينادى المنادى ، من مكان قريب : أى بحيث لايخفى الصوت على أحد ، والمنادى هو جبريل عليه السلام على ماورد فى الآثار ، يقول : أيتها العظام البالية ، والأوصال المتقطعة ، واللحوم المتمزّقة ، والشعور المتفرقة ، إن الله يأمركن أن تجتمعن لفصل القضاء ، والصيحة : النفخة الثانية . بالحق : أى بالبعث والجزاء ، يوم الخروج : أى من القبور ، تشقق : أى تتصدع ، بجبار : أى بمسيطر ومسلط ، إنما أنت داع ومنذر .

المعنى الجملى

بعد أن أنذرهم بما بين أيديهم من اليوم العظيم والعذاب الأليم — أنذرهم بما يعجل لهم فى الدنيا من ضروب العذاب ، سنة الله فيمن تقدمهم من المكذبين قبلهم ممن ساروا فى البلاد طولا وعرضا وكانوا ذوى قوة وأيْد ، ولم يغن ذلك عنهم من الله شيئا ، ووسط بين ذلك ذكر المتقين وما يلاقونه من النعيم ، ليكون أمرهم بين الخوف والطمع ، ومن ثم ذكر حال الكفور المعاند ، وحال الشكور العابد ، ثم ذكر أن هذا عظة وذكرى لكل ذى لبّ واعٍ سميع لما يلقى إليه ، ثم أعاد الدليل مرة أخرى على إمكان البعث ، فأبان أنه قد خلق السموات والأرض فى ستة أطوار مختلفة وما أصابه تعب ولا لغوب كما قال : « أَفَعَيِينَا بِالْخَلْقِ الْأَوَّلِ ؟ » ثم أمره بالصبر على مايقولون ، وتنزيه الله عن كل نقص آناء الليل وأطراف النهار ، فهاهو ذا اقترب يوم البعث والنشور ، وسمع صوت الداعى لذلك بعد النفخ فى الصور ، وتشققت

الأرض سراعا وخرج الناس من القبور ، وما ذلك بالصعب على رب العالمين ، خالق السموات والأرضين ، وإنا لنعلم مايقول المشركون فى البعث والنشور ، فدعهم فى غيّهم يعمهون ، فما أنت عليهم بجبار تلزمهم الإيمان بهذا اليوم ، وما فيه من هول، إن أنت إلا نذير ، ولا يؤمن بك إلا من يخاف عقابى ، وشديد وعيدى ، ولا تنفع العظة إلا ذوى الأحلام الراجحة ، والقلوب الواعية .

الإيضاح

(وكم أهلكنا قبلهم من قرن هم أشد منهم بطشا فنقبوا فى البلاد هل من محيص ؟) أى وكثير من الأمم التى قبلك أهلكناهم وكانوا أشد منهم بطشا وأكثر قوة كعاد وثمود وتبّع ، فتقلبوا فى البلاد وسلكوا كل طريق ابتغاء للرزق ولم يجدوا لهم من أمر الله مهربا ولا ملجأ حين حُمّ القضاء ، وهكذا حالكم ، فحذارِ أن يصيبكم مثل ما أصابهم من العذاب العاجل فى الدنيا ، والآجل يوم القيامة .

وبعد أن ذكر فى هذه السورة وما قبلها بارع الحكم ونفائس المعارف الإلهية جملة وتفصيلا ، فمن أدب للأمة مع نبيّها ، إلى أدب للأمة بعضها مع بعض ، إلى حفظ للسلام بين الناس والصلح بينهم ، وصيانة اللسان من الهزؤ والسخرية والهمز واللمز ، ثم إلى النظر فى ملكوت السموات والأرض ، وبذا يحل التواصل محل التقاطع ، ويتعلم الجهال ، ويجتمع الشمل ، ويخيم الأمن فى ربوع البلاد ، أبان أن تلك الزواجر لاينتفع بها إلا ذوو الألباب فقال :

(إن فى ذلك لذكرى لمن كان له قلب أو ألقى السمع وهو شهيد) أى إن فيما تقدم لتذكرة وعبرة لمن كان له قلب واع يتدبر به الحقائق ، ويعى مايقال له .

ثم أعقب ذلك بذكر ماهو كالدليل على ماسلف فقال :

(ولقد خلقنا السموات والأرض وما بينهما فى ستة أيام وما مسنا من لغوب) أى قسما بربك إنا خلقنا السموات والأرض وملأناهما بالعجائب فى ستة أطوار مختلفة

وما مسنا تعب ولا إعياء ، ولا تزال عجائبنا تترى كل يوم ، فانظروا إليها وتأملوا فى محاسنها فهى لاتحصى ، ولا يبلغها الاستقصا ، وكذّبوا اليهود الذين قالوا : إن الله خلق السموات والأرض فى ستة أيام أوّلها الأحد وآخرها الجمعة واستراح يوم السبت واستلقى على العرش ، فنحن لايمسنا لغوب ولا إعياء .

ونحو الآية قوله : « أَوَ لَمْ يَرَوْا أَنَّ اللهَ الَّذِى خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَلَمْ يَعْىَ بِخَلْقِهِنَّ بِقَادِرٍ عَلَى أَنْ يُحْيِيَ الْمَوْتَى ، بَلَى إِنَّهُ عَلَى كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ » .

(فاصبر على مايقولون) أى فاصبر على مايقوله المشركون فى شأن البعث من الأباطيل التى لامستند لها إلا الاستبعاد ، فإن من خلق العالم فى تلك المدة اليسيرة بلا إعياء - قادر على بعثهم وجزائهم على ماقدموا من الحسنات والسيئات .

(وسبح بحمد ربك قبل طلوع الشمس وقبل الغروب ، ومن الليل فسبحه وأدبار السجود) أى ونزه ربك عن العجز عن كل ممكن كالبعث ونحوه ، حامداً له أنعمه عليك ، وقت الفجر ووقت العصر و بعض الليل ، وفى أعقاب الصلوات .

وقال ابن عباس : الصلاة قبل طلوع الشمس صلاة الفجر ، وقبل الغروب الظهر والعصر ، ومن الليل العشاءان ، وأدبار السجود النوافل بعد الفرائض .

روى البخارى عن ابن عباس قال : أمر رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يسبح فى أدبار الصلوات كلها ، يعنى قوله : « وَأَدْبَارَ السُّجُودِ » وفى حديث مسلم تحديد التسبيح بثلاث وثلاثين ، والتحميد بثلاث وثلاثين ، والتكبير بثلاث وثلاثين ، وتمام المائة لاإله إلا الله وحده لاشريك له ، له الملك وله الحمد يحيى و يميت وهو على كل شىء قدير ، دُبُر كل صلاة .

(واستمع) أيها الرسول لما أخبرك به من أهوال يوم القيامة ، وفى إبهام أمره ، تعظيم لشأنه .

ثم بين ذلك الخبر وزمانه بقوله :

(يوم ينادى المنادى من مكان قريب) أى يوم ينادى المنادى من موضع قريب

فيصل نداؤه إلى كل الخلائق على السوية ، ويقول : هلموا إلى الحساب ، فيخرجون من قبورهم ويقبلون كأنهم جراد منتشر .

ثم زاد الأمر تفصيلا فقال :

(يوم يسمعون الصيحة بالحق) أى يوم يسمعون النفخة الثانية منذرة بالبعث والجزاء على ماقدموا من الأعمال .

ثم ذكر مايقال لهم حينئذ فقال :

(ذلك يوم الخروج) أى هذا اليوم هو يوم الخروج من القبور .

ثم لخص ماتقدم من أول السورة إلى هنا فقال :

(إنا نحن نحيي ونميت وإلينا المصير) أى إنا نحن نحيي فى الدنيا ونميت فيها حين انقضاء الآجال ، وإلينا الرجوع للحساب والجزاء فى الآخرة .

(يوم تشقق الأرض عنهم سراعا ذلك حشر علينا يسير) أى إلينا المصير فى ذلك اليوم الذى تتصدع فيه الأرض فتخرج الموتى من صدوعها مسرعة ، وذلك جمع هين علينا لاعسر فيه ولا مشقة .

ثم سلى رسوله وهدد المشركين بقوله :

(نحن أعلم بما يقولون) أى نحن أعلم بما يقولون من فريتهم على ربهم وتكذيبهم بآياته ، وإنكارهم قدرته على البعث بعد الموت .

(وما أنت عليهم بجبار) أى وما أنت بمسلط عليهم تقسرهم على الإيمان وتسيرهم على ماتهوى وتريد ، إنما أنت نذير ، وما عليك إلا التبليغ وعلينا الحساب .

ثم أكد أنه مذكّر لامسيطر وأن التذكير لاينفع إلا من خشى ربه فقال :

(فذكر بالقرآن من يخاف وعيد) أى فذكر أيها الرسول بهذا القرآن الذى أنزلته عليك من يخاف وعيدى الذى أوعدته من عصانى وخالف أمرى ، أى بلغ رسالة ربك ، وما يتذكر بها إلا من يخاف وعيد الله وشديد عذابه

ونحو الآية قوله : « فَذَكِّرْ إِنَّمَا أَنْتَ مُذَكِّرٌ . لَسْتَ عَلَيْهِمْ بِمُسَيْطِرٍ »
وقوله : « لَيْسَ عَلَيْكَ هُدَاهُمْ . وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ » .

وكان قتادة يقول : اللهم اجعلنا ممن يخاف وعيدك ، ويرجو موعودك ، يا برُّ يا رحيم .

موجز لما تضمنته السورة الكريمة من الموضوعات

(١) إنكار المشركين للنبوة والبعث .

(٢) الحث على النظر فى السماء وزينتها وبهجة بنائها ، وفى الأرض وجبالها الشامخات ، وزروعها النضرات ، وأمطارها الثجّاجات .

(٣) العبرة بالدول الهالكات كعاد وثمود وأصحاب الأيكة وقوم تبع وما استحقوا من وعيد وعذاب .

(٤) تقريع الإنسان على أعماله ، وأنه مسئول عن دخائل نفسه ، فى مجلس أنسه ، وعند إخوته ، وفى خلوته ، وأنه محوط بالكرام الكاتبين ، يحصون أعماله ، ويرقبون أحواله حتى إذا جاءت سكرته ، وحانت منيته، حوسب على كل قول وكل عمل ، وشهدت عليه الشهود وكُشفت له الحجب

(٥) إنه ماخلق السموات والأرض وما بينهما باطلا .

(٦) إن القرآن عظة وذكرى لمن كان له قلب واعٍ يستمع مايلقى إليه .

(٧) تسلية رسوله على مايقول المشركون من إنكار البعث وتهديدهم على ذلك.

(٨) أمر الرسول صلى الله عليه وسلم بالتسبيح آناء الليل وأطراف النهار .

(٩) أمر الرسول بالتذكير بالقرآن من يخاف وعيد الله ويخشى عقابه .

سورة الذاريات

هى مكية وعدة آيها ستون ، نزلت بعد الأحقاف ، ومناسبتها لما قبلها :

(١) إنه قد ذكر فى السورة السابقة البعث والجزاء والجنة والنار ، وافتتح هذه بالقسم بأن ماوعدوا من ذلك صدق وأن الجزاء واقع .

(٢) إنه ذكر هناك إهلاك كثير من القرون على وجه الإجمال ، وهنا ذكر ذلك على وجه التفصيل .

بِسْمِ اللهِ الرَّحْمٰنِ الرَّحِيمِ

وَالذَّارِيَاتِ ذَرْوًا (١) فَالْحَامِلَاتِ وِقْرًا (٢) فَالْجَارِيَاتِ يُسْرًا (٣) فَالْمُقَسِّمَاتِ أَمْرًا (٤) إِنَّمَا تُوعَدُونَ لَصَادِقٌ (٥) وَإِنَّ الدِّينَ لَوَاقِعٌ (٦) وَالسَّمَاءِ ذَاتِ الْحُبُكِ (٧) إِنَّكُمْ لَفِي قَوْلٍ مُخْتَلِفٍ (٨) يُؤْفَكُ عَنْهُ مَنْ أُفِكَ (٩) قُتِلَ الْخَرَّاصُونَ (١٠) الَّذِينَ هُمْ فِي غَمْرَةٍ سَاهُونَ (١١) يَسْأَلُونَ أَيَّانَ يَوْمُ الدِّينِ (١٢) يَوْمَ هُمْ عَلَى النَّارِ يُفْتَنُونَ (١٣) ذُوقُوا فِتْنَتَكُمْ هَذَا الَّذِي كُنْتُمْ بِهِ تَسْتَعْجِلُونَ (١٤) .

شرح المفردات

الذاريات : الرياح تذرو التراب وغيره ، أى تفرقه ، والوقر : حمل البعير وجمعه أوقار: أى أثقال، والحاملات وقراً: هى الرياح الحاملات للسحاب المُشْبَع ببخار الماء ، واليسر: السهولة ، والجاريات يسراً : هى الرياح الجارية فى مهابّها بسهولة ، والمقسمات أمراً : هى الرياح التى تقسم الأمطار بتصريف السحاب ، وما توعدون : هو البعث

والحشر للحساب والجزاء ، والدين : الجزاء ، وواقع : أى حاصل ، والحبك : الطرق واحدها حبيكة ، مختلف : أى متناقض مضطرب فى شأن الله ، فبينا تقولون إنه خالق السموات تقولون بصحة عبادة الأوثان معه ، وفى شأن الرسول فتارة تقولون إنه مجنون، وتارة تقولون إنه ساحر، وفى شأن الحشر فتارة تقولون لا حشر ولا بعث ، وأخرى تقولون : الأصنام شفعاؤنا عند الله يوم القيامة ، يؤفك عنه من أفك : أى يصرف عن القول المختلف : أى بسببه من صرف عن الإيمان ، والخراصون : أى الكذابون من أصحاب القول المختلف ، فى غمرة : أى فى جهل يشملهم ويغمرهم شمول الماء الغامر ، ساهون : أى غافلون عما أمروا به ، أيان يوم الدين : أى متى يوم الجزاء : أى متى حصوله ، يفتنون : أى يحرقون ، وأصل الفتْن: إذابة الجوهر ليعرف غشه فاستعمل فى الإحراق والتعذيب ، فتنتكم : أى عذابكم المعدّ لكم .

المعنى الجملى

هاهنا أمور يجمل بك أن تتفهمها :

(١) بعد أن بين الحشر بدلائله وقال : ذَلِكَ حَشْرٌ عَلَيْنَا يَسِيرٌ ، ثم أصروا على ذلك غاية الإصرار لم يبق إلا اليمين فقال : « وَالذَّارِيَاتِ ذَرْوًا — إِنَّمَا تُوعَدُونَ لَصَادِقٌ » .

(٢) إن الأيمان التى حلف بها الله تعالى فى كتابه كلها دلائل على قدرته أخرجها فى صورة الأيمان ، كما يقول القائل للمنعم عليه : وحق نعمك الكثيرة إنى لا أزال أشكرك ، فيذكر النعم وهى سبب لدوام الشكر ويسلك بها مسلك القسم ، وجاءت الآية هكذا ، مصدّرة بالقسم ، لأن المتكلم إذا بدأ كلامه به علم السامع أن هاهنا كلاما عظيما يجب أن يصغى إليه ، فإذا وجّه همه لسماعه خرج له الدليل والبرهان المتين فى صورة اليمين .

(٣) فى السور التى أقسم الله فى ابتدائها بغير الحروف المقطعة كان القسم لإثبات أحد الأصول الثلاثة : الوحدانية والرسالة والحشر وهى التى يتم بها الإيمان ، فأقسم لإثبات الواحدانية فى سورة الصافات فقال : « إِنَّ إِلَٰهَكُمْ لَوَاحِدٌ » وأقسم فى سورتى النجم والضحى لإثبات الرسالة فقال فى الأولى : « وَالنَّجْمِ إِذَا هَوَى . مَاضَلَّ صَاحِبُكُمْ وَمَا غَوَى » وقال فى الثانية « وَالضُّحَى وَاللَّيْلِ إِذَا سَجَى . مَاوَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَى » وأقسم فى سور كثيرة على إثبات البعث والجزاء .

(٤) فى السورة التى أقسم فيها لإثبات الوحدانية أقسم بالساكنات فقال : « وَالصَّافَّاتِ صَفًّا » ، وفى السور التى أقسم فيها لإثبات الحشر أقسم بالمتحركات فقال: «وَالذَّارِيَاتِ ذَرْوًا ــ وَالمُرْسَلَاتِ عُرْفًا ــ وَالنَّازِعَاتِ غَرْقًا ــ وَالعَادِيَاتِ ضَبْحًا » لأن الحشر فيه جمع وتفريق ، وهو بالحركة أليق .

(٥) كانت العرب تحترز عن الأيمان الكاذبة وتعتقد أنها تدع الديار بلاقع ، وقد جرى النبى صلى الله عليه وسلم على سننهم ، فحلف بكل شريف ولم يزده ذلك إلا رفعة وثباتا ، وكانوا يعلمون أنه لايحلف إلا صادقا وإلا أصابه شؤم الأيمان ، وناله المكروه فى بعض الأيمان .

الإيضاح

(والذاريات ذروا ، فالحاملات وقراً ، فالجاريات يسرا ، فالمقسمات أمراً . إنما توعدون لصادق وإن الدين لواقع) أقسم سبحانه بالرياح وذروها التراب ، وحملها السحاب ، وجريها فى الهواء بيسر وسهولة ، وتقسيمها الأمطار ، إن هذا البعث لحاصل ، وإن هذا الجزاء لابد منه فى ذلك اليوم ، يوم يقوم الناس لرب العالمين .

وهنا أقسم سبحانه بالرياح وأعمالها ، لما يشاهدون من آثارها ونفعها العظيم لهم فهى التى ترسل الأمطار مبشرات برحمته ، ومنها تسقى الأنعام والزروع وتنبت

البساتين والجنات وتجعل الأرض القَفْرَ مرُوجا ، وعليها يعتمدون فى معاشهم ، فآثارها واضحة أمامهم ، ولا عجب أن تكون لهـا المنزلة العظمى فى نفوسهم .

وأفعال الرياح تخالف ناموس الجاذبية ، فإن ما على الأرض منجذب إليها ، واقع عليها ، ولكن هذه الرياح تتصرف تصرفا عجيبا تابعاً لسير الكواكب ، فبجريها وجرى الشمس تؤثر فى أرضنا وهوائها بنظام محكم ، فما ذرت الرياح التراب ، ولا حملت السحاب ، ولا قسمت المطر على البلاد إلا بحركات فلكية منتظمة ، من أجل هذا جعل ذلك براهين على البعث والإعادة .

(والسماء ذات الحبك ، إنكم لفى قول مختلف ، يؤفك عنه من أفك) أى والسماء ذات الجمال والبهاء . والحسن والاستواء ، إنكم أيها المشركون المكذبون للرسول ، لفى قول مختلف مضطرب ، لايلتئم ولا يجتمع ، ولا يروج إلا على من هو ضالّ فى نفسه ، لأنه قول باطل يُصرف بسببه من صرف عن الإيمان برسول الله صلى الله عليه وسلم وبما جاء به .

والخلاصة — قسما بالسماء وزينتها وجمالها ، إن أمركم فى شأن محمد وكتابه لعجب عاجب ، فهو متناقض مضطرب ، فحيناً تقولون هو شاعر ، وحينا آخر تقولون هو ساحر ، ومرة ثالثة تقولون هو مجنون ، وبينا تقولون عن القرآن إنه سحر إذا بكم تقولون إنه شعر أو إنه كهانة .

(قتل الخراصون الذين هم فى غمرة ساهون) أى قتل الكذابون من أصحاب القول المختلف الذين هم فى جهل عميق وغفلة عظيمة عما أمروا به .

وهذا دعاء عليهم يراد به فى عرف التخاطب لعنهم ، إذ من لعنه الله فهو بمنزلة الهالك المقتول ، وقد جاء فى القاموس : قتل الإنسان ماأكفره : أى لعن ، وقاتلهم الله ، أى لعنهم .

(يسألون أيان يوم الدين) أى يسألك المشركون استهزاء فيقولون : متى يوم الجزاء ، وقد كان لهم من أنفسهم لو تدبروا ما يدفعهم إلى الاعتقاد بمجىء هذا

اليوم ، فإن أحداً منهم لايترك عبيده وأجراءه فى عمل دون أن يحاسبهم وينظر فى أحوالهم ، ويحكم بينهم فى أقوالهم وأفعالهم ، فكيف يترك أحكم الحاكمين عبيده الذين أبدع لهم هذا الكون وهيأ لهم كل ما يحتاجون إليه ـ سدى ويوجدهم عبثاً .

ثم أجاب عن هذا السؤال وذكر أنه يكون يوم القيامة فقال :

(يوم هم على النار يفتنون) أى يوم الجزاء هو يوم نعذب الكفار وتقول لهم الخزنة :

(ذوقوا فتنتكم هذا الذى كنتم به تستعجلون) أى ذوقوا هذا العذاب الذى كنتم تستعجلون وقوعه استهزاء وتظنون أنه غير كائن .

إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ (١٥) آخِذِينَ مَا آتَاهُمْ رَبُّهُمْ إِنَّهُمْ كَانُوا قَبْلَ ذَلِكَ مُحْسِنِينَ (١٦) كَانُوا قَلِيلاً مِنَ اللَّيْلِ مَا يَهْجَعُونَ (١٧) وَبِالْأَسْحَارِ هُمْ يَسْتَغْفِرُونَ (١٨) وَفِي أَمْوَالِهِمْ حَقٌّ لِلسَّائِلِ وَالْمَحْرُومِ (١٩) وَفِي الْأَرْضِ آيَاتٌ لِلْمُوقِنِينَ (٢٠) وَفِي أَنْفُسِكُمْ أَفَلَا تُبْصِرُونَ (٢١) وَفِي السَّمَاءِ رِزْقُكُمْ وَمَا تُوعَدُونَ (٢٢) فَوَرَبِّ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ إِنَّهُ لَحَقٌّ مِثْلَ مَا أَنَّكُمْ تَنْطِقُونَ (٢٣) .

تفسير المفردات

فى جنات وعيون: أى فى بساتين تجرى من تحتها الأنهار ، محسنين: أى مجوّدين لأعمالهم ، والهجوع: النوم ليلا؛ والهجعة النومة الخفيفة، والأسحار: واحدها سحر وهو السدس الأخير من الليل ، حق: أى نصيب وافر يوجبونه على أنفسهم تقربا إلى ربهم وإشفاقا على عباده ، والسائل : هو المستجدى الطالب العطاء ، والمحروم : هو المتعفف

الذى يحسبه الجاهل غنيا فيحْرَمُ الصدقة من أكثر الناس ، آيات : أى دلائل على قدرته تعالى من وجود المعادن والنبات والحيوان ، والدحو فى بعض المواضع والارتفاع فى بعضها الآخر عن الماء ، واختلاف أجزائها فى الكيفيات والخواص ، للموقنين: أى للموحدين الذين سلكوا الطريق الموصل إلى معرفة الله ، فهم نظارون بعيون باصرة ، وأفهام نافذة ، وما توعدون أى والذى توعدونه من خير أو شر .

المعنى الجملى

بعد أن ذكر حال المفترين الذين أنكروا يوم الدين ، وكذبوا بالبعث والنشور ، وأنكروا نبوة محمد صلى الله عليه وسلم وعبدوا مع الله غيره من وثن أو صنم ــ أردف ذلك بذكر حال المتقين وما يتمتعون به من النعيم المقيم فى جنات تجرى من تحتها الأنهار جزاء إحسانهم فى أعمالهم ، وقيامهم بالليل للصلاة ، والاستغفار بالأسحار ، وإنفاقهم أموالهم للفقراء والمساكين ، ونظرهم فى دلائل التوحيد التى فى الآفاق والأنفس ، وتفكيرهم فى ملكوت السموات والأرض مصدقين قوله تعالى : « سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الآفَاقِ وَفِي أَنْفُسِهِمْ » .

ثم أقسم برب السماء والأرض إن ماتوعدون من البعث والجزاء حق لاشك فيه ، كما لاشك فى نطقكم حين تنطقون .

الإيضاح

(إن المتقين فى جنات وعيون . آخذين ما آتاهم ربهم) أى إن الذين اتقوا الله وأطاعوه واجتنبوا معاصيه ، فى بساتين وجنات تجرى من تحتها الأنهار ، قريرة أعينهم بما آتاهم ربهم ، إذ فيه مايرضيهم ويغنيهم ويفوق ما كانوا يؤملون .

ثم ذكر الثمن الذى دفعوه لنيل هذا الأجر العظيم فقال :

(إنهم كانوا قبل ذلك محسنين) أى إنهم كانوا فى دار الدنيا يفعلون صالح

الأعمال خشية من ربهم وطلبا لرضاه ، ومن ثم نالوا هذا الفوز العظيم ، والمكرُمَة التى فاقت ما كانوا يؤملون ويرجون .

ونحو الآية قوله : « كُلُوا وَاشْرَبُوا هَنِيئاً بِمَا أَسْلَفْتُمْ فِي الْأَيَّامِ الْخَالِيَةِ » .

ثم فصل ما أحسنوا فيه فقال :

(كانوا قليلا من الليل ما يهجعون) أى كانوا ينامون القليل من الليل ويتهجدون فى معظمه ، قال ابن عباس : ما تأتى عليهم ليلة ينامون حتى يصبحوا إلا يصلون فيها شيئاً إما من أولها أو من وسطها ، وقال الحسن البصرى : كابدوا قيام الليل ، فلا ينامون من الليل إلا أقله ، وربما نشطوا فجدّوا إلى السحر . وعن أنس قال : كانوا يصلون بين المغرب والعشاء .

(وبالأسحار هم يستغفرون) أى فهم يحيون الليل متهجدين ، فإذا أسحروا أخذوا فى الاستغفار كأنهم أسلفوا فى ليلهم الجرائم .

ولما ذكر أنهم يقيمون الصلاة ثنى بوصفهم بأداء الزكاة والبر بالفقراء فقال :

(وفى أموالهم حق للسائل والمحروم) أى وجعلوا فى أموالهم جزءا معينا ميزوه وعزلوه للطالب المحتاج ، والمتعفف الذى لايجد مايغنيه ، ولا يسأل الناس ، ولا يفطنون إليه ليتصدقوا عليه .

أخرج ابن جرير وابن مردويه عن أبى هريرة قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « ليس المسكين الذى تردّه التمرة والتمرتان والأُكْلَة والأُكْلتان ، قيل فمن المسكين ؟ « قال الذى ليس له مايغنيه ، ولا يُعلم مكانه فيتصدق عليه ، فذلك المحروم » .

وبعد أن ذكر أوصاف المتقين بين أنه قد لاحت لهم الأدلة الأرضية والسماوية التى بها أخبتوا إلى ربهم وأنابوا إليه فقال :

(وفى الأرض آيات للموقنين) أى وفى الأرض دلائل على وجود الخالق وعظيم

قدرته ، استبانت لمن فكر وتدبر فى هذا الكون وبديع صنعه ، مما يشاهد من صنوف النبات والحيوان ، والمهاد والجبال ، والقفار والبحار ؛ إلى نحو أولئك مما يبهر المخلوقات كما قال : « وَيُسَبِّحُ الرَّعْدُ بِحَمْدِهِ وَالْمَلَائِكَةُ مِنْ خِيفَتِهِ » .

فالموقنون كلما رأوا آية عرفوا وجه تأويلها فازدادوا إيقانا ، وخصهم بالذكر لأنهم هم الذين يعترفون بذلك ويتدرون فيه فينتفعون به .

(وفى أنفسكم أفلا تبصرون ؟) أى أفلا تنظرون نظر من يعتبر فى اختلاف الألسنة والألوان ، والتفاوت فى العقول والأفهام ، واختلاف الأعضاء ، وتعدد وظائف كل منها على وجه يحار فيه اللُّبّ ، ويدهش منه العقل ؟

وخلاصة ماسلف — إن الله تعالى وصف المتقين بأنهم مجدّون فى العبادة البدنية وفى بذل المال للمستحقين من ذوى الحاجة والبائسين ، والإيمان بالله والعلم بقدرته بالنظر فى الآفاق والأنفس .

(وفى السماء رزقكم وما توعدون) أى وفى السماء أسباب رزقكم من النيِّرَيْن (الشمس والقمر) والكواكب والمطالع والمغارب التى بها تختلف الفصول فتُنبت الأرض أنواع النبات وتسقى بماء الأمطار التى تحملها السحب وتسوقها الرياح لأسباب فلكية وطبيعية أوضحها علماء الفلك وعلماء الطبيعة . وكذلك ماتوعدون من خير وشر ، قاله مجاهد .

ثم أقسم ربنا بعزته وجلاله إن البعث لحق فقال :

(فورب السماء والأرض إنه لحق مثل ماأنكم تنطقون) أقسم ربنا جلت قدرته بجلاله وكبريائه : إن ماوعدهم به من أمر القيامة والبعث والجزاء حق لامرية فيه ، فلا تشكوا فيه كما لاتشكون فى نطقكم حين تنطقون ، وهذا كما يقول الناس : إن هذا الحق كما أنك ترى وتسمع .

أخرج ابن جرير وابن أبى حاتم عن الحسن أنه قال فيها : بلغنى أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال « قاتل الله قوما أقسم لهم ربهم ثم لم يصدقوا » .

عن الأصمعى قال : أقبلت من جامع البصرة فطلع أعرابى على قعود فقال ممن الرجل ؟ قلت من بنى أصمع ، قال من أين أقبلت ، قلت من موضع يتلى فيه كلام الرحمن ، قال : اتل علىّ فتلوت وَالذَّارِيَاتِ فلما بلغت: وَفِي السَّمَاءِ رِزْقُكُمْ قال حسبك، فقام إلى ناقته فنحرها ووزعها وعمد إلى سيفه وقوسه فكسرهما وولى ، فلما حججت مع الرشيد طفقت أطوف فإذا أنا بمن يهتف بى بصوت رقيق فالتفتّ فإذا بالأعرابى قد نحل واصفر فسلم علىّ واستقرأ السورة ، فلما بلغت الآية صاح وقال لقد وجدنا ماوعدنا ربنا حقا ، ثم قال : وهل غير هـذا ؟ فقرأت فَوَرَبِّ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ إِنَّهُ لَحَقٌّ . فصاح وقال : ياسبحان الله ، من ذا الذى أغضب الجليل حتى حلف ، لم يصدقوه حتى حلف (قالها ثلاثا) وخرجت معها نفسه .

وإنما قصصت عليك هذا القصص لما فيه من أدب بارع وظرف وحسن فهم من ذلك الأعرابى لكتاب الله ، ولك بعد ذلك أن تصدقه أو تشكك فيه ، فكم للأصمعى من مثله ، فهو الأديب البارع ، والراوية الحافظ ، فلا يعجزه أن يصنعه ويصنع أمثاله .

هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ ضَيْفِ إِبْرَاهِيمَ الْمُكْرَمِينَ (٢٤) إِذْ دَخَلُوا عَلَيْهِ فَقَالُوا سَلَامًا قَالَ سَلَامٌ قَوْمٌ مُنْكَرُونَ (٢٥) فَرَاغَ إِلَى أَهْلِهِ فَجَاءَ بِعِجْلٍ سَمِينٍ (٢٦) فَقَرَّبَهُ إِلَيْهِمْ قَالَ أَلَا تَأْكُلُونَ (٢٧) فَأَوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً قَالُوا لَا تَخَفْ وَبَشَّرُوهُ بِغُلَامٍ عَلِيمٍ (٢٨) فَأَقْبَلَتِ امْرَأَتُهُ فِي صَرَّةٍ فَصَكَّتْ وَجْهَهَا وَقَالَتْ عَجُوزٌ عَقِيمٌ (٢٩) قَالُوا كَذَلِكِ قَالَ رَبُّكِ إِنَّهُ هُوَ الْحَكِيمُ الْعَلِيمُ (٣٠) .

شرح المفردات

الضيف : لفظ يستعمل للواحد والكثير ، المكرمين : أي عند إبراهيم إذ خدمهم هو وزوجه وعجل لهم القرى وأجلسهم فى أكرم موضع ، قوم منكرون : أى قوم لاعهد لنا بكم من قبل ، وقد قال ذلك إبراهيم عليه السلام للتعرف بهم كما تقول لمن لقيته وسلم عليك : أنا لا أعرفك ، تريد عرّف لى نفسك وصفها ، فراغ إلى أهله : أى ذهب إليهم على خفية من ضيفه ، سمين : أى ممتلئ بالشحم واللحم ، فقربه إليهم : أى وضعه لديهم ، فأوجس منهم خيفة : أى أضمر فى نفسه الخوف منهم ، امرأته هى سارّة لما سمعت بشارتهم له ، صَرّة : أى صيحة ، فصكت وجهها : أى ضربت بيدها على جبهتها وقالت يا ويلتا ، عجوز عقيم : أى أنا كبيرة السن لا ألد .

المعنى الجملى

بعد أن ذكر إنكار قومه للبعث والنشور حتى أقسم لهم ربهم بعزته أنه كائن لامحالة – سلى رسوله فأبان له أنه ليس ببدع فى الرسل ، وأن قومه ليسوا ببدع فى الأمم ، وأنهم إن تمادوا فى غيهم وأصروا على كفرهم ولم يقلعوا عما هم فيه ، فسيحل بهم مثل ماحل بمن قبلهم من الأمم الخالية .

وذكر إبراهيم من بين الأنبياء لكونه شيخ المرسلين ، وكون النبى صلى الله عليه وسلم على سننه كما قال تعالى : « مَا كَانَ إِبْرَاهِيمُ يَهُودِيًّا وَلاَ نَصْرَانِيًّا وَلَـكِنْ كَانَ حَنِيفاً مُسْلِماً وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ » ولأن العرب كانت تجله وتحترمه وتدعى أنها على دينه .

وأتى بالقصص بأسلوب الاستفهام تفخيما لشأن الحديث كما تقول لمخاطبك هل بلغك كذا وكذا ، وأنت تعلم أنه لم يبلغه ، توجيها لأنظاره حتى يصغى إليه ويهتم بأمره ، ولو جاء على صورة الخبر لم يكن له من الروعة والجلال مثل ما كان وهو بهذه الصورة ، وتنبيها إلى أن الرسول لم يعلم به إلا من طريق الوحى .

الإيضاح

(هل أتاك حديث ضيف إبراهيم المكرمين . إذ دخلوا عليه فقالوا سلاما قال سلام ؟) أى هل عندك نبأ بما حدث بين إبراهيم وضيوفه من الملائكة الذين وفدوا عليه وهم ذاهبون فى طريقهم إلى قوم لوط ، فسلموا عليه فرد عليهم التحية بأحسن منها .

ثم أراد أن يتعرف بهم فقال :

(قوم منكرون) أى إنكم قوم لاعهد لنا بكم من قبل فعرفونى أنفسكم - من أنتم ؟

واستظهر بعض العلماء أن هذه مقالة أسرّها فى نفسه أو لمن كان معه من أتباعه وجلسائه من غير أن يُشْعِرهم بذلك ، لأن فى خطاب الضيف بنحو ذلك إيحاشا له ، إلى أنه لو كان أراد ذلك لكشفوا له أحوالهم ، ولم يتصد لمقدمات الضيافة ، ثم ذكر أنه أسرع فى قِرى ضيوفه فقال :

(فراغ إلى أهله فجاء بعجل سمين . فقربه إليهم) أى فذهب خفية مسرعا وقدم لضيوفه عجلا سمينا أنضجه شيّا ، كما جاء فى سورة هود « فَمَا لَبِثَ أَنْ جَاءَ بِعِجْلٍ حَنِيذٍ » أى مشوى على الرضَف .

(قال ألا تأكلون ؟) أى قال مستحثا لهم على الأكل : ألا تأكلون ؟ وفى هذا تلطف منه فى العبارة وعرض حسن ، وقد انتظم كلامه وعمله آداب الضيافة ،

إذ جاء بطعام من حيث لايشعرون ، وأتى بأفضل ماله وهو عجل فتىّ مشوى ووضعه بين أيديهم ولم يضعه بعيداً منهم حتى يذهبوا إليه ، وتلطف فى العرض فقال : ألا تأكلون ؟

(فأوجس منهم خيفة) أى فأعرضوا عن طعامه ولم يأكلوا فأضمر فى نفسه الخوف منهم ، ظنا منه أن امتناعهم إنما كان لشرّ يريدونه ، فإنّ أكل الضيف أَمَنَةٌ ودليل على سروره وانشراح صدره ، وللطعام حرمة ، وفى الإعراض عنه وحشة موجبة لسوء الظن ، وقدجاء فى سورة هود : « فَلَمَّا رَأَى أَيْدِيَهُمْ لاَتَصِلُ إِلَيْهِ نَكِرَهُمْ وَأَوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً » .

ثم ذكر أنهم طمأنوه حينئذ فقال :

(قالوا لاتخف) منا إنا رسل ربك ، وجاء فى الآية الأخرى : « قَالُوا لاَتَخَفْ إِنَّا أُرْسِلْنَا إِلَى قَوْمِ لُوطٍ » .

(وبشروه بغلام عليم) أى فبشروه بإسحاق بن سارّة كما جاء فى سورة هود : « فَبَشَّرْنَاهُ بِإِسْحَاقَ وَمِنْ وَرَاءِ إِسْحَاقَ يَعْقُوبَ » وجاءت البشارة بذكر لأنه أسرّ للنفس ، وأقر للعين ، ووصفه بالعلم لأنه الصفة التى يمتاز بها الإنسان الكامل ، لا الصورة الجميلة ولا القوة ولا نحوها .

ثم أخبر عما حدث من امرأته حينئذ فقال :

(فأقبلت امرأته فى صرة فصكت وجهها وقالت عجوز عقيم) أى فأقبلت امرأته سارّة حين سمعت بشارتهم (كانت فى ناحية من البيت تنظر إليهم) وهى تصرخ صرخة عظيمة وضربت بيديها على جبينها وقالت : أنا عجوز عقيم فكيف ألد ؟ وجاء فى الآية الأخرى : « قَالَتْ يَاوَيْلَتَا أَأَلِدُ وَأَنَا عَجُوزٌ وَهَـذَا بَعْلِي شَيْخًا » فأجابوها عما قالت :

(قالوا كذلك قال ربك إنه هو الحكيم العليم) أى قالوا لها : مثل الذى أخبرناك به قال ربك ، فنحن نخبرك عن الله ، والله قادر على ماتستبعدين ، وهو الحكيم فى فعله ، العليم الذى لايخفى عليه شىء فى الأرض ولا فى السماء .

والخلاصة — إنها استبعدت الولادة لسببين : كبر السن والعقم ، وقد كانت لاتلد فى عنفوان شبابها والآن قد عجزت وأيست ، فأجْدِرْ بها الآن ألا تلد ، فكأنها قالت : ليتكم دعوتم دعاء قريبا من الإجابة ، ظنا منها أن ذلك منهم كما يصدر من الضيف من الدعوات الطيبات كما يقول الداعى : أعطاك الله مالا ورزقك ولدا ، فردوا عليها بأن هذا ليس منا بدعاء ، وإنما ذلك قول الله تعالى .

قد تمّ ما أردنا تصنيفه فى تفسير هذا الجزء بمدينة حلوان من أرباض القاهرة كورة الديار المصرية فى اليوم العاشر من شهر ربيع الثانى من سنة خمس وستين وثلثمائة بعد الألف من هجرة سيد ولد عدنان .

والحمد لله الذى بنعمته تتم الصالحات ، وصلى الله على سيدنا محمد وآله وسلم.

فهرست

أهم المباحث العامة التى فى هذا الجزء

الصفحة	المبحث
٤	القرآن الكريم من عند الله ، لا من عند محمد .
٩	الردّ على المشركين فى طعنهم فى النبوة .
١١	ماينسب إلى بعض الأولياء من علمهم بشئون الغيب فهو فرية على الله .
١٤	إسلام عبد الله بن سلام وحديثه مع قومه اليهود .
١٥	الرد على المشركين فى أن القرآن ليس مفترى .
١٧	الوصية بالوالدين .
١٨	حوار بين علىّ وعثمان فى أقل مدة الحمل .
١٩	لم يبعث الله نبياً قبل الأربعين إلا ابنى الخالة عيسى ويحيى .
٢٠	الدعاء الذى كان يعلّمه رسول الله صلى الله عليه وسلم لأصحابه فى التشهد .
٢٣	خطبة مروان فى المسجد دعاية ليزيد بن معاوية وردّ عبد الرحمن ابن أبى بكر عليه .
٢٦	غضب رسول الله صلى الله عليه وسلم حين رأى على الحسن والحسين قُلبَين من فضة .
٣١	كان رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا عصفت الريح يدعو بدعاء خاص .
٣٤	استماع الجن للقرآن .
٣٥	لادليل من العقل على عالمى : الملائكة والجن ، بل الدليل من السمع وأخبار الأنبياء .

الصفحة	المبحث
٣٧	ورد أن الجن استمعت القرآن مرات كثيرة .
٤١	ضرب القرآن للأمثال .
٤٩	الحرب ترقى الصناعات ، وتوقظ الشعور ، وتزيد عدد الأمم .
٥٠	سيأتى يوم تسعد فيه الأمم بسعادة أعدائها .
٥٢	يعرف أهل الجنة منازلهم فيها كما يعرفون منازلهم فى الدنيا .
٥٦	لما خرج النبى صلى الله عليه وسلم من مكة مهاجراً التفت إليها وقال : أنت أحب بلاد الله إلىّ ، أنت أحب بلاد الله إلىّ .
٥٨	صفة الجنة كما وصفها القرآن .
٦٣	فى الحديث : «إنى أستغفر الله وأتوب إليه فى اليوم أكثر من سبعين مرة».
٦٤	ما كان يقول المنافقون حين نزول آيات الجهاد ؟ .
٧٠	ممالأة المنافقين لليهود من بنى قريظة .
٧١	يعرف المنافقون من غيرهم بلحن القول والعدول عن التصريح إلى الإشارة .
٧٢	فى الحديث : « ماأسرّ أحد سريرة إلا كساه الله جلبابها » .
٧٥	المعاصى تبطل الحسنات .
٨١	نتائج صلح الحديبية .
٨٦	من سنن الله أن يسلط بعض عباده على بعض .
٨٧	لله جنود للرحمة ، وجنود للعذاب .
٩٠	بيعة الرضوان — بيعة الشجرة .
٩٢	معاذير بعض القبائل للتخلف عن الجهاد .
٩٩	الأعذار المبيحة للتخلف عن الجهاد .
١٠١	نادى منادى رسول الله للبيعة وهو تحت الشجرة .
١٠٢	أمر عمر بقطع الشجرة التى بويع عندها رسول الله صلى الله عليه وسلم حين رأى الناس يحجون إليها .

الصفحة	المبحث
١٠٤	فتح خيبر ومغانمها ليست بشيء إذا قيست إلى مابعدها .
١٠٦	قال النبي صلى الله عليه وسلم : « لأعطين الراية رجلا يحبه الله ورسوله » .
١٠٧	كتاب الصلح الذى كتب بين يدى رسول الله صلى الله عليه وسلم .
١١١	مادار من الحديث بين سهيل بن عمرو ، ورسول الله صلى الله عليه وسلم .
١١٢	حوار بين أبى بكر وعمر .
١١٦	قال عمر : من أصلح سريرته أصلح الله علانيته .
١٢٤	ماأنشده الوفود أمام النبي صلى الله عليه وسلم .
١٢٨	رأى الرسول صلى الله عليه وسلم أنفع للمؤمنين من آرائهم لأنفسهم .
١٣١	وجوب قتال الفئة الباغية .
١٣١	المؤمنون بعضهم إخوة لبعض .
١٣٣	النهى عن السخرية والهمز واللمز .
١٣٧	من عرض نفسه للتهم فلا يلومن إلا نفسه .
١٣٨	فى الحديث : « إياكم والظن ، فإن الظن أكذب الحديث » .
١٤٠	قال على بن الحسين : إياك والغيبة فإنها إدام كلاب الناس .
١٤٠	لاتحرم الغيبة فى ستة مواضع .
١٤٤	خطبة النبي صلى الله عليه وسلم يوم فتح مكة وهو على راحلته .
١٤٦	القرآن علم المؤمنين الأدب فى التخاطب .
١٤٧	الفرق بين الإسلام والإيمان .
١٤٨	مقال النبي صلى الله عليه وسلم للأنصار يوم حنين .
١٦١	فى الحديث : « كاتب الحسنات أمير على كاتب السيئات » .
١٧١	الرسول صلى الله عليه وسلم مذكر وليس بمسيطر .
١٧٦	أفعال الرياح تخالف ناموس الجاذبية .
١٨١	القصص الذى رواه الأصمعى عن أعرابى قابله .
١٨٤	بشرى الملائكة لإبراهيم .
١٨٥	استبعاد سارة للولادة فى هذه السن .